محمد ﷺ

بين الحقيقة والافتراء

بسم الله الرحمن الرحيم



بين الحقيقة والافتراء

في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودينسون

الدكتور محمد محمد أبو ليلة

دار النشر للجامعات

الكتاب : محمد ﷺ بين الحقيقة والافتراء

المؤلف : د. محمد محمد أبو ليلة

رقم الطبعة : الأولى

تاريخ الإصدار : ربيع الآخر ١٤٢٠ هـ - أغسطس ١٩٩٩م

الناشر : دار النشر للجامعات

رقم الإيداع : ١١٣١٠/ ٩٩

الترقيم الدولي : ISBN: 977 - 316 - 022 - X

دار النشر للجامعات - مصر

١٤ عمارات المهور - الدور الثاني - صلاح سالم

ص.ب ١٣٠ محمد فريد ١١٥١٨ . القاهرة . تليفاكس: ٢٦١٣١٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نعرض في هذا البحث لكتاب مكسيم رودينسون اليهودي الفرنسي الماركسي وهو بعنوان «محمد» والذي أثار جدلاً واسعًا في أوساط العلماء والمثقفين بمصر كما سيتضح من خلال هذه الدراسة ، وذلك عندما نشر عنه الكاتب الصحفي صلاح منتصر مقالا في عموده بالأهرام في ١٣ مايو ١٩٩٨م ينبه فيه على خطورته متعجبًا كيف يدرس مثل هذا الكتاب في الجامعة الأمريكية بالقاهرة لأبناء وبنات المسلمين ، وذلك على أثر تسلمه لاحتجاج مكتوب وموقع عليه من ست وأربعين من خريجي الجامعة الأمريكية كانوا قد تقدموا به إلى عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية يطالبون فيه باتخاذ موقف لتصحيح الوضع ، مما ترتب عليه صدور قرار الأستاذ الدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالي بسحب الكتاب ، وذلك بعد أن تيقن من صحة ما نشر عنه . قائلاً إننا لا يمكن أن نقف مكتوفي الأيدي عندما تقوم جامعة في مصر - حتى ولو كانت جامعة أجنبية - بتدريس الطلاب كتابًا فيه إهانة لمعتقداتهم وكتابهم المقدس، هذا عمل مرفوض وغير قابل للتبرير . وبناءً عليه فقد تتابعت الكتابات والتعليقات والردود في الصحف والمجلات على هذا الكتاب ، وتنوعت فيما بينها بين الشجب والتبرير كما سيتبين فيما بعد ، بل لقد تحمس البعض في التعبير عن احتجاجه إلى درجة المطالبة بترحيل الأستاذ الفرنسي ديبييه الذي كان يدرس هذا الكتاب للطلاب مهما كانت لديه من مبررات ، وفي هذا الكتاب نقدم هذه الدراسة العلمية الدقيقة والنقدية الفريدة ، لكل المهتمين من المسلمين وغير المسلمين لمعرفة ما يتضمنه هذا الكتاب بالتفصيل من تزييف وافتراءات ، مشفوعة بالتحليل والتأصيل ، وقد اطلعنا على كل ما نشر حول هذا الكتاب تقريبًا وذلك من مختلف وجهات النظر وتباين المواقف والآراء .

قسمت هذا الكتاب إلى مقدمة وقسمين وخاتمة .

المقدمة وبينت فيها بداية ظهور المشكلة وردود فعل العلماء والمثقفين تجاهها .

القسم الأول ويتضمن بابين :

الباب الأول : وتكلمت فيه عن المؤلف ، حياته وفكره وتوجهاته ومؤلفاته ، وفي هذا الباب تناولت أيضًا بالعرض والنقد كتابات وتعليقات الكتاب وفتاوى العلماء

الخاصة بكتاب «محمد» لمكسيم رودينسون منذ أن عرض الموضوع على الرأي العام في الصحف والمجلات المصرية .

الباب الثاني : وتناولت فيه مصادر مكسيم رودينسون التي شكلت فكره ومنهجه بشكل عام ، وقد أجملتها في الكتابات اليهودية والصهيونية والكتابات الفرنسية والغربية على وجه العموم والكتابات المعادية للإسلام والمسلمين منها بوجه خاص، وكذلك أعمال المستشرقين التي اعتمد عليها هذا الكاتب في تأليف كتابه «محمد» . وفي هذا الاتجاه قدمنا دراسة تتبعية نقدية لصورة الإسلام في الكتب المدرسية التي تدرس في فرنسا .

أما القسم الثاني : فهو يشتمل على دراسة تحليلية نقدية شاملة لكتاب رودينسون ، وقد اكتفيت في هذا القسم بترقيم موضوعاته الرئيسة، و لم أقسمه إلى أبواب كما فعلت في القسم الأول وذلك متابعة لخطة الكاتب في تقسيم موضوعات الكتاب محل النقد .

ومن الجدير بالإشارة إليه أنه يوجد في الصفحة رقمان بين هلالين ، أحدهما للإشارة إلى الهامش ، والآخر لتحديد موضع الكلام في كتاب رودينسون ، وقد ميزت هذا الأخير بوضع الحرف ص داخل القوسين وقبل الرقم .

وأما الخاتمة فقد أجملت فيها ما فصلته في كتابي هذا مع ذكر النتائج التي توصلت إليها من دراستي ، وأهمها أن الكاتب عنصري متحيز وأنه استغل معطيات علم النفس الغربي أسوأ استغلال عندما حاول تطبيقها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو النموذج الفذ والأمثل الذي يسمو على تكهنات وافتراضات ومناهج علم النفس الغربي . وأنه لم يستعمل المنهج العلمي كذلك ، و لم يراع أعراف وآداب الكتابة فضلاً عن احترام مشاعر المسلمين ومقدساتهم عندما تناول حياة النبي صلى ا الله عليه وسلم وأهل بيته وصحابته ودعوته بالطعن والتجريح ، اعتمادًا على مصادر هامشية ودعاوى مغرضة وعنصرية .

وأخيرًا فإنني أقدم هذا العمل خالصًا لوجه الله الكريم وعنوان محبة لرسول ا الله صلى الله عليه وسلم ، الرحمة المهداة والسراج المنير ، محتسبًا في حبه وفي الدفاع عنه وعن دينه وأمته كل شدة ومعاناة .

والله ولي التوفيق،

الدكتور محمد محمد أبو ليلة

القسم الأول

الباب الأول

كتابات وتعليقات العلماء المنشورة
حول كتاب رودينسون
(عرض ونقد)

يقوم هذا الكتاب على بحث ألقي في المؤتمر الدولي للترجمة ودورها في تفاعل الحضارات بجامعة الأزهر في الفترة ما بين ١٦ إلى ١٨ يونيه ١٩٩٨م ، ثم رأيت أن أوسعه وأنشره على هذا النحو الذي أمكن معه الرد على دعاوى رودينسون بتفصيل أكثر وأدلة أوفر تبين تهافت دعاواه الباطلة وتحامله العنصري على أعظم شخصية عرفها تاريخ الإنسانية منذ بدايته وحتى نهايته .

نشر كتاب مكسيم رودينسون عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في فرنسا في بداية الستينات باللغة الفرنسية وفي بداية السبعينيات باللغة الإنجليزية . وكان هذا الكتاب على رداءة فكرته وسوء خطته يوزع في مصر ، بل كان يدرس بالجامعة الأمريكية للطلاب والطالبات المسلمين والمسلمات وبالرغم من وجود لجنة لمتابعة ومراجعة مثل هذه الكتب بمجمع البحوث الإسلامية ، وكاتب هذه السطور أحد المتعاونين معها ، فيما يخص الكتب الأجنبية ، وبالرغم من وجود هذا الكتاب في مكتبتي الخاصة منذ أكثر من عشرين عامًا ، فإنه لم يصل إلى علمنا أن الكتاب كان يدرس لعدة سنوات بقسم التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والذي سبق أن نقدته أكثر من مرة في محاضراتي بإنجلترا ، واستمر الكتاب يدرس حتى كتب الأستاذ صلاح منتصر عنه في عموده الخاص بجريدة الأهرام في عددها الصادر في (١٣/٥/ ١٩٩٨) تحت عنوان (*كتاب يجب وقفه*) ومن ثم فقد لفت الأنظار إلى بعض ما يحتوي عليه هذا الكتاب من مغالطات وافتراءات حول سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

عرض الكاتب صلاح منتصر بأسلوب هادئ ومفعم بالحرارة في نفس الوقت برغم فداحة الجرم ، لست نقاط مما يحتوي عليه هذا الكتاب ثم قال:«إن حرية العلم والتعليم

ليس معناهـا ترك آلاف الكتـب ، واختيـار هذا الكتـاب بـالذات الـذي يمس العقيدة الإسلامية ليقال بعد ذلك إنها حرية التفكير والتعليم . وفي خاتمة مقاله دعا الكاتب إلى ضرورة وقف تدريس هذا الكتاب فورًا إذ أن قضيته لا تقبل المساومة .

وقد جاءت استجابة الدكتور الوزير مفيد شهاب لدعوة الكاتب فورية فأصدر أمره مشكورًا إلى الجامعة الأمريكية بالقاهرة بضرورة وقف تدريس الكتاب . وقد استجاب رئيس الجامعة فرانك فاندفير لهذا المطلب بل وقدم اعتذارًا عما حدث معربًا عن أن تدريس الكتاب إنما كان تصرفًا فرديًا لأحد أعضاء هيئة التدريس بالجامعة . وعلى أثر ما نشر سارع الدكتور نصر فريد واصل مفتي الجمهورية بإصدار بيان نشرته جريدة عقيدتي (بتاريخ ٢٣ من المحرم ١٤١٩هـ ـ ١٩ مايو١٩٩٨ م ص ١٤-١٥) وجريدة الأحرار(في ٢٦ من المحرم -٢٢ مايو ص ٧) يدين الكتاب ويفند فيه النقاط الست الواردة بمقال الأستاذ صلاح منتصر ، وقد نبه بيان دار الإفتاء على «أن هذه الافتراءات والضلالات ليس المقصود من ورائها إلا إثارة الفتنة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، وزعزعة الأمن العام والخاص بين المواطنين على اختلاف مستوياتهم ، وهذا ما يجب التنويه به والتنبيه عليه للعامة والخاصة» كما نادى البيان أيضًا «بأنه يجب علينا أن نكون على يقظة تامة بما يفعله أعداء الإسلام والسلام وأعداء الديانات الإلهية السماوية كلها التي جاءت لنشر المحبة بين الناس جميعًا وتحقيق الأخوة والمودة بينهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم ،وذلك لمصالح شخصية وأهداف خاصة يبتغون من ورائها منافع مادية أو سياسية» . ويضيف البيان أنه كان «على أصحاب هذه الأفكار الضالة والمزاعم الباطلة ، إن كانت لديهم شبهة وكانوا حسني النية وأرادوا توضيحها فكان الواجب عليهم أن يعودوا إلى أهل الذكر ،والمؤسسات الدينية فيما يعن لهم من شبهات لنبينها لهم بالحجة والموعظة الحسنة» . كذلك ناقشت لجنة التعليم بمجلس الشعب بعض الطعون التي وجهها مكسيم رودينسون إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى القرآن والعقيدة الإسلامية .

وتحت عنوان كتاب (*مكسيم رودينسون والجامعة الأمريكية*) كتبت الدكتورة ليلى عنان ـ أستاذة الحضارة الفرنسية بجامعة القاهرة ـ مقالاً حول هذا الموضوع ترى فيه أن الكاتب ليس موضوعيًا قط وأنه هو نفسه «قد يكون أول من يحتاج إلى تحليل نفسي فرويدي» وتصف الكتاب بأنه خبيث ،وبأنه مليء بالدجل ويقوم على أسلوب ذكي مغلف بالسخرية ، ومؤلفه يسعى عن طريق الإيحاء أن يقنع القارئ الغربي أن ما

فعله محمد باليهود من حرب ومن إبادة يشبه ذلك الذي أوقعه بهم النازي في ألمانيا في العصر الحديث . وقد تكلمنا في هذا البحث عن هذه التهمة الباطلة التي كان مكسيم رودينسون يسعى إلى ترويجها في الأوساط الأوربية لتسميم الرأي العام ضد المسلمين وعقيدتهم ونبيهم .

ومن المفيد أن ننقل بعض التعليقات الموضوعية للكاتبة تقول «المستشرق الفرنسي مكسيم رودينسون نشر في عام ١٩٦١ كتابا عنوانه (موهامد) ويؤكد فيه مؤرخنا اليهودي موضوعيته في تناوله قصة نبي الإسلام ، واحترامه للمسلمين ، ثم يقول كلامًا لا يسعنا إلا الموافقة عليه . فهو يؤكد حقيقة بديهية : (أنا طبعًا غير مؤمن بأن القرآن هو كتاب الله . وإلا أصبحت مسلمًا).. كلام منطقي لن يختلف عليه اثنان ؛ لأنه يهودي الديانة ، وبالتالي لا يمكن أن يؤمن بغير دينه ، ونحن نؤمن أن ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ . وبناء عليه ، فهو يعرض وجهة نظر الآخر ، مؤكدًا موضوعية لا نرى لها أي أثر في كتاب يبني نظريته على معرفة نفسية النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، قوامها (عقله الباطن) .. فما أسهل اللجوء إلى هذا المسمى الغامض الذي يدعي مؤرخنا اليهودي معرفته ، والاستناد عليه لتأكيد كل ما يحلو له من مبررات أو نوايا ، لا يعرفها إلا الله . قد يكون أول من يحتاج إلى تحليل نفسي فرويدي هو المؤرخ نفسه» فمثلاً وبادئ ذي بدء ، لماذا يكون عنوان كتابه «ماهوميه» . بإيحاءاته المضللة ، خاصة أنه بعد ذلك ، وعلى مدى ٣٨٠ صفحة ، لا يسمي النبي إلا «موهامد» أي «محمد» بالفرنسية ؟

ثم تقدم الدكتورة ليلى عنان المفهوم الغربي لكلمة «موهامد» كما هي في اللغة الفرنسية فتقول : «كانت فلسفة التنوير قد أخذت في فرنسا بالذات صورة هجوم ضار على كل الديانات ، والدين المسيحي بالذات ، وذلك منذ القرن الثامن عشر ، ومن أشهر ما نشر آنذاك ، كتيب عنوانه «الدجالون الثلاثة : موسى وعيسى وماهوميه» . و«ماهوميه» هذا ، هو الاسم الذي عرف به النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) منذ القرون الوسطى الأوربية . واستعمال «ماهوميه» يشير إلى كل ما كتب آنذاك عن نبي الإسلام من أكاذيب وافتراءات ، بما فيها مثلاً أن دينه الجديد يطلب من مريديه عبادة صنم له رأس حمار . ولم يتغير استعمال الاسم إلا مؤخرًا ، حتى أن رودينسون نفسه استعمل في كتابه اسم «موهامد» أي محمد وليس «ماهوميه» ويبقى السؤال : لماذا اختار «ماهوميه» عنوانا لكتابه ؟ لن نلجأ مثل رودينسون إلى دجل

استعمال «العقل الباطن» لشرح موقف مؤرخنا . فالحال عنده ، والحمد لله ، «عقل ظاهر جدًّا» لا يحتاج إلى البحث عن باطن» .

وفي نفس العدد من جريدة الأهرام (٢٥ مايو ١٩٩٨) وفي نفس الصفحة (قضايا وآراء) كتب سامر سليمان حول نفس الموضوع مقالا يدافع فيه عن الدكتور الفرنسي دبييه ، المدرس بقسم التاريخ بالجامعة الأمريكية ، ومن البداية وصف سامر سليمان ردود العلماء على هذا الكتاب بأنها «ضجة مفتعلة» ثم قال : إن هذا الأستاذ «بالرغم من أنه أجنبي إلا أنه منتم لمصر ، ومدافع عن قضايا العرب ، وأنه لم يعرف أحد عن هذا الأستاذ أنه معاد للإسلام بأي صورة من الصور ، ولكن من الثابت عنه لكل المصريين والمسلمين الذين عرفوه في قاعات الدرس وخارجها أنه مناوئ شديد للعداء للإسلام والمسلمين باعتبار أن العداء أحد أشكال العنصرية ، وأنه مدافع أصيل عن الفهم الموضوعي للدين الإسلامي باعتباره مكونًا أساسيًّا من مكونات المجتمعات العربية التي تخصص هذا الأستاذ في تاريخها». وأضاف نفس الكاتب أن الأستاذ الفرنسي من المعادين للصهيونية العنصرية ، ومن المناصرين بشكل قاطع لتحرير فلسطين .

أشار الكاتب إلى أن كتاب رودينسون كان ضمن كتب مكتبة الجامعة الأمريكية منذ صدوره بالفرنسية منذ حوالي ثلاثين عامًا وأن الأستاذ دبييه لم يقرره على الطلبة كمادة ، وإنما كلفهم فقط بقراءة نقدية له critical review .

وينتهي سامر سليمان من عرضه ودفاعه إلى هذه النتيجة «هذا هو ما حدث وهذه هي الملابسات الحقيقية للموضوع فليس هناك على الإطلاق محاولة لبث السم داخل عقول الطلاب وتشكيكهم في عقيدتهم ، لقد كان من الظلم الشديد أن يتهم الأستاذ بالهجوم على الإسلام لأنه كلف الطلاب بعمل عرض نقدي للكتاب» .

وذكر نفس الكاتب أن التحقيق الذي أجرته الجامعة الأمريكية مع الأستاذ أثبت على العكس حسن نيته ، بل إن الطلاب قد دافعوا عنه لمواقفه المنصفة من الإسلام والمسلمين . ثم يشير إلى ما ذكره نفس الأستاذ بالأهرام أيضا من أنه رفض أن يدلي بأي تصريح عن الموضوع للصحافة الأجنبية حتى لا يستغل كلامه في الإساءة إلى الإسلام والمسلمين .

وهذا الكلام طيب أن يصدر عن مصري يحاول أن يدافع عن ضيف يبدي مشاعر

الود والمناصرة لنا ولقضايانا ، ونحن نقدر للكاتب وللمكتوب عنه ذلك . ولكنني فقط كنت أود من الأستاذ الفرنسي أولاً : أن يفرق بين مادة التاريخ التي تخصص فيها ، وبين مادة السيرة النبوية والتي هي علم قائم بذاته وتدرس كمادة مستقلة ، مما جعل الكاتب يخرج عن نطاق تخصصه. وثانيًا : فإنني كنت أود أن يدعو الدكتور ديبيه أحد علماء المسلمين المتخصصين ليحاضر طلبته حول موضوع هذا الكتاب ويبين ما فيه من تجن على المنهج العلمي وعلى الحقائق التاريخية وبخاصة إذا كانت تتصل بأعظم وأطهر شخصية عرفها التاريخ ، وبأوثق وأصدق كتاب طالعته العين الإنسانية على هذا الكوكب . ناهيك بعقيدة يدين بها أكثر من خمس سكان العالم . إنه ما كان لهذا الأمر أن يترك لاجتهاد الطلاب وحدهم فإن طاقة الطالب الجامعي الإبداعية والنقدية ومعلوماته الدينية ، وطالب الجامعة الأمريكية بوجه خاص ، محدودة بلا شك . أضف إلى ذلك أن هؤلاء الطلاب لم يأتوا إلى الجامعة من معاهد أزهرية ، ولم يتعمقوا في دراسة المواد العربية والدينية . بل إن معظمهم إن لم يكن كلهم قد درسوا في مدارس لغات أو حصلوا على شهادات من الخارج .

ولقد كنت أود أيضًا أن يقول الكاتب سامر سليمان شيئًا ولو سطرًا واحدًا في الدفاع عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي تخطئة مكسيم رودينسون بدل أن يجند المقال كله للدفاع عن الأستاذ الفرنسي ، ولكننا مع هذا لا نتهم الكاتب في عقيدته ولا نشكك في نيته فلعل الأفكار زاحمته فأبعدته عن المقصد الأسنى .

ونضيف إلى هذا أن الكتاب ، وهذا مما لا ينبغي تجاهله ، لم يكلف به الطلاب للقراءة الحرة ، وإنما كان مقررًا وكان عليه ٣٠ ٪ من درجات المادة ، وبالتالي فقد كانت قراءته واجبة كما أوضح الكاتب صلاح منتصر بالأهرام (عدد ١٥ يونيو ١٩٩٨ ص ١١) .

في عموده الخاص (من قريب) كتب الأستاذ سلامة أحمد سلامة مقالتين حول هذا الموضوع : الأولى بتاريخ ١٥ مايو ١٩٩٨م ، وعنوانها (*زوبعة كتاب محمد*). والثانية بعنوان (*رسالتان وعقليتان*) وهي بتاريخ ٦ يونيو ١٩٩٨م ، وقد صممت المقالتان للدفاع عن الأستاذ الفرنسي الذي كلف الطلاب بقراءة الكتاب لنفس السبب الذي ذكره الأستاذ سامر سليمان إلا أن الأستاذ سلامة أحمد سلامة قد أطلق على اهتمام العلماء بقضية الكتاب في أصل وضعه ، وفي اختياره هو بالتحديد من بين الكتب وتكليف الطلاب بقراءته ، «زوبعة مفتعلة ، أثيرت حول مدرس مادة تاريخ

العرب بالجامعة الأمريكية» هذا و لم يقدم لنا الكاتب أسباب افتعال هذه الزوبعة .

قال الأستاذ سلامة بطريقة إنذارية «لا بد أن تتضح أمام أعيننا الأسباب الحقيقية لانتشار ظاهرة النفاق العلمي ، وتدني مستوى التعليم الجامعي ، وانهيار تقاليد البحث العلمي وتفشي ظاهرة الدروس الخصوصية في الجامعة» . ولا داعي لتكرار ما قاله الأستاذ سلامة أحمد سلامة في هذه المقالة لتبرئة الأستاذ الفرنسي مما نسب إليه . إلا أن الحق يقتضينا أن نخالف الكاتب الصحفي في طريقة تشخيصه للمسألة موضوع النقاش بأنها «نفاق علمي» ، وتحميله للموضوع أكثر مما يحتمل - أعني موضوع الدفاع عن الأستاذ الفرنسي - ونتساءل هل الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبر نفاقًا علميًّا؟ ! وهل تنبيه طلابنا على خطر ما قد يلقى إليهم يعد نفاقًا ، وحجرًا على التفكير الحر والبحث العلمي ؟! وبخاصة إذا كانوا يدرسون في بلادهم ويعيشون في حضن دينهم وقيمهم وتقاليدهم ، إنه كان يمكن للكاتب أن يدافع عن الأستاذ الفرنسي بما يراه صالحًا دون أن يصف كل من قال كلمة في كتاب يخوض في دين الأمة ، بالنفاق والجمود ، إن الأمم لابد أن يكون لديها ما تعتز به ولا تسمح بحال بالنيل منه ، والأمة التي لا مقدسات لها أمة هضيمة وواهية ، مهما تكن قوتها المادية .

أما المقال الثاني : للأستاذ سلامة أحمد سلامة فقد اتخذ عنوانه من رسالتين وصلتا إليه، اعتبرهما كاشفتين عن عقليتين مختلفتين ، عقلية تقدمية مستنيرة ، وأخرى متخلفة جامدة ظلامية.

أما الرسالة الأولى: فهي للدكتور القس عبد المسيح اسطفانوس بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة والتي ذكر فيها صاحبها من خبرته الشخصية أنه تعرض لموقف اهتزت معه عقيدته في المسيحية ، وذلك عندما ذكر أحد المحاضرين بالجامعة الأمريكية وهو طالب بها ، أن روح الإيثار - يعني حب الناس جميعًا - يعتبر مكونًا أساسيًّا في الطبيعية الإنسانية ، وأن هذا الشعور يمكن أن يغنينا عن الدين . ثم يشير الدكتور عبد المسيح أن ابنته قد تعرضت هي الأخرى لمثل هذا الموقف عندما زلزل كيانها الإيماني أستاذ كان يهاجم الدين المسيحي والإنجيل إلى درجة التشكيك في الوجود التاريخي أو الحقيقي لشخصية السيد المسيح عليه السلام . ثم يختم كلامه بهذه العبارات : «إن المرء يزداد رسوخًا كلما تعرض لموجات الفكر التي تدور من حوله ... قد نشفق على الشجرة الصغيرة ونحن ننقلها من المشتل لتواجه حرارة الشمس حينًا ، وبرودة الجو أحيانًا إلا أنه بدون هذه لن يصلب لها عود ، ولن تتأصل لها جذور فلنفتح لها الأبواب

والنوافذ فتتفتح العيون على ما يقوله الآخرون وكيف يفكرون ، كفانا من أسلوب التلقين ، ومحاصرة الفكر والحجر على الباحثين . لنشجع التعرف على الرأي والرأي الآخر بلا خوف ولا فزع ، فصاحب العقيدة السليمة والفكر الصحيح سيزداد رسوخا» .

هذه هي رسالة القس باختصار لا يخل بشيء مما جاء فيها . أما الرسالة الثانية التي تسلمها الكاتب الصحفي من أحد قرائه ، والذي وصفه بالجهل والظلامية ، فقد طالب صاحبها بوضع مثل هذه الكتب في متناول الباحثين المؤهلين فقط ، وليس للطلاب الذين لا تتوفر لديهم المعلومات الكافية عن الدين ، وهذا مطلب معقول وإن بدا أنه مقيد للحرية الفكرية . وبغض النظر عما قد يكون ورد في رسالة الأخير من ألفاظ غير لائقة ، والتي احتفظ الكاتب بمعرفتها لنفسه ، فإنه كان ينبغي على الكاتب أن يكون أوسع صدرًا في قبول الرأي الآخر حتى يضرب بالمثال ما يدعو إليه بالمقال .

وعلى أي حال فإننا نراه من الإجحاف العلمي وعدم الإنصاف في المقارنة أن يضع الكاتب رسالتين (انتقاهما) بلا شك ليدلل من خلالهما على جهل وتسرع وظلامية المسلمين ، أو هكذا يمكن للقارئ أن يفهم ، وسرعة تشككهم وخوفهم من المواجهة ، وذلك في شخص كاتبها المسلم أيًّا كانت تبريرات فإن اعتبار الانتصار للدين يجب أن يعلو على الانتصار للكرامة الشخصية.

أما الرسالة الأولى والتي أفسح لها الكاتب ثلثي عموده تقريبا فإنها تصور كاتبها بصورة البطل القوي وتصور معتقداته بأنها هي الأقوى والأثبت .

وإذا كنا لا نختلف مع القس الدكتور عبد المسيح في أن الإنسان الصحيح لا يخاف من فتح النوافذ والتعرض للتيار فإننا نقول أيضا أن الحرية الفكرية لا تعني أن لا تكون لنا معالم ننتهي إليها ، وأسوار تحمينا وتقينا فيما نعتقده . صحيح أن الشتلة الصغيرة تقلع ثم تغرس في موضعها التي تنمو فيه وتثمر ، وهي في أثناء رحلتها تتعرض لتأثير العوامل الطبيعية عليها، ولكننا أيضا لا ينبغي أن نهمل في رعاية الشتلة في موطنها الأول المؤقت ، أو في موطنها الثاني الأكثر ديمومة ، إن الرعاية مطلوبة في كلتا الحالتين، لأن الشتلة الضعيفة سوف تذروها الرياح أو تحرقها الشمس أو يخطفها الطير.

وهنا أجد من المفيد أن أنقل بعض ما أورده الكاتب الصحفي الأستاذ صلاح منتصر في مقاله الرابع حول الموضوع نفسه وهو في الدفاع عن رأيه (١٧ يونيو

١٩٩٨م) وذلك بعد أن عرضت وناقشت أهم ما ورد بمقالاته السابقة .

أشار الكاتب إلى ما حدث للاعب الكرة المصري عندما داعب أحد أصدقائه الألمان فحياه على الطريقة النازية ، فقبض عليه لأن هذا النوع من التحية ممنوع قانونًا في ألمانيا. هذا بالرغم من مرور أكثر من ٤٠ سنة على نهاية الحرب وموت هتلر ، فإن أحدًا لا يستطيع مناقشة موضوع النازية ، ولا يجرؤ أستاذ في مدرسة أو جامعة ألمانية أن يطلب إلى تلاميذه قراءة كتاب «كفاحي» الذي كتبه هتلر ، ... .. ولو فعل أي أستاذ ذلك لقدم فورًا إلى المحاكمة دون أن يجرؤ قلم واحد على الدفاع عنه ، وإعلان أن هذه حرية بحث يريد بها تعليم الطلبة ممارسة الحوار والتفكير العلمي .. وعندما تجرأ مفكر كبير في حجم جارودي أن يناقش الأسطورة اليهودية حول عدد اليهود الذين عذبهم هتلر ، فإن فرنسا - دولة المدرس الذي اختار كتاب رودينسون (محمد) لتدريسه في الجامعة الأمريكية - تناست كل صفات الحرية والتنوير والريادة الفكرية التي تقال عنها وقدمت جارودي إلى المحاكمة دون أن يقال - داخل فرنسا - أن الذي تفعله فرنسا يمثل قمة النفاق السياسي وخنق حرية التفكير . وفي الهند حيث هناك قداسة خاصة للبقرة ، لا يجرؤ أي مدرس أو أستاذ أجنبي تدريس كتاب يمس هذه القداسة بحجة زيادة تقوى الهنود وتقديسهم للأبقار .. ولو فعل ذلك لقتلوه ، رغم أن الهند وصلت ، بدليل التقدم النووي الذي حققته ، إلى درجة علمية تفرض احترامها .. ولكن هذا شيء واحترام ما تحيطه الشعوب بالقداسة شيء آخر ..وبالنسبة للمجتمع المصري ، وهذا أمر يجب أن يعرفه أي أستاذ أو مدرس أجنبي يدرس العلم ، أو أي كاتب فإن طبيعة هذا المجتمع احترام عقيدته التي هي في الوقت نفسه تحترم عقائد الآخرين الدينية . هذه قضية يجب أن تكون واضحة ولا علاقة لها بالبحث العلمي الذي سينهار إذا لم يتم حتما تدريس كتاب يهين الإسلام ورسوله . ونحن لسنا ضد حرية الرأي والبحث العلمي وتعليم الشباب حرية التفكير . فليس مثل الإسلام دينًا يدعو إلى العلم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (فهل يتحقق ذلك بغير البحث والعلم) . وقال الحق أيضا ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (فهل هناك أوضح من ذلك) ولكن علينا أن نحسن اختيار ما نقرره لشبابنا . إن مكتباتنا عامرة بآلاف الكتب وهناك مئات القضايا التي تستحق المناقشة ومن غير المعقول أن يضيق بعضنا البحث فلا يجد سوى كتاب واحد يسب الإسلام ، ويرهن على تدريسه مستقبل العلم في مصر !!».

ونعود مرة أخرى إلى الكاتب سلامة أحمد سلامة فقد نشر رسالة أخرى في عموده «من قريب» بالأهرام (١٣/٦/ ١٩٩٨ ص ١٠) . وصلت إليه من الدكتورة عزة عزت بكلية آداب المنيا ، اعتبرت فيها هذا الكتاب وكتاب سلمان رشدي *آيات شيطانية* وغيرهما حلقات في سلسلة الإساءة إلى الإسلام . وترى الكاتبة أن منع أو مقاطعة مثل هذه الكتب أو مجرد شجبها والتنديد بها ليس هو الحل ،وتقول :«إن صورة العرب في الغرب سيئة ومشوهة جدًّا»وأنها قد ألفت كتابًا في هذا الموضوع . وترى أنه ينبغي علينا أن نرد وننقد بطريقة عقلية وبأسلوب علمي ، وليس بالعواطف التي سرعان ما تنتهي إلى لا شيء ، لذلك فهي تطالب بإنشاء هيئة إسلامية عليا للتصدي لمثل هذه الأعمال التي تسئ إلى الإسلام ، فالأجهزة الصهيونية لم تترك شاردة ولا واردة لم ترد عليها أو تروج لها بحسب المصلحة ، وهي تتهم كل من يحاول الخروج على مقرراتها بمعاداة السامية ، وقد صوب الأستاذ سلامة أحمد سلامة رأي صاحبة الرسالة ، وعلق عليها بقوله : «هذا بالضبط ما ينبغي أن ندعو إليه ونربي أجيالنا الصاعدة من طلبة الجامعة عليه ، ولو أدركنا حجم ما ينشر عن العرب والمسلمين ليس فقط في صورة كتب وأفكار ومحاضرات ، بل قبل ذلك وبعده في صورة أفلام سينمائية ومسلسلات تليفزيونية رصد منها الباحث الأمريكي البروفيسور جاك شاهين أكثر من ٩٠٠ برنامج وفيلم تليفزيوني في أمريكا وحدها ، لعرفنا أن أساليب المنع والشجب والتنديد لن تجدي شيئًا ؛ وما دمنا لا نتقن لغة الغرب في الصراع الحضاري .. فسوف نظل على ما نحن عليه من تخلف وتعصب وجهل».

ونحن نتفق مع صاحبة الرسالة ومع تعليق الكاتب الصحفي عليها ، وقد طالبنا منذ أكثر من عام بإنشاء مثل هذه الهيئة أو المجمع الإسلامي الشامل ،وذلك لأن عرض الإسلام الصحيح والرد على مفتريات خصومه كما ينبغي يتعدى طاقات الأفراد بل وطاقة دولة واحدة ، و يتطلب جهود وإمكانات دول العالم العربي والإسلامي كله ، ويحتاج كذلك إلى ميزانية ضخمة ، وهذا المشروع الهائل إذا تم ينبغي أن تستخدم فيه جميع الوسائل والأساليب والتقنيات الحديثة .

وإنه لمن الواجب حقًّا أن نهيئ بيئة علمية صالحة لنمو قيادات فكرية واعية ، قادرة على الاستيعاب وعلى الإقناع بالحجج العقلية ، لا بمجرد الاحتجاج والصياح والجلبة، وإذا ما توفرت لدينا هذه القيادات الفكرية الواعية فإن خصومنا سوف يفكرون مرات قبل أن يكتبوا مرة واحدة .

وفي ندوة عقدت بالمجلس الأعلى للثقافة فاجأ محمود أمين العالم الحاضرين بقوله بصوت عال : «إنها فضيحة ثقافية ، أكررها هنا من فوق منبر المجلس الأعلى للثقافة ، إنها فضيحة ثقافية أن يمنع كتاب أيًا كان هذا الكتاب من التداول ، كيف يخرج كتاب من المكتبة بحجة ما ، وأين كرامة البحث والمنهج العلمي ؟ ثم أين الحرية الفكرية ؟ ثم أين قيمة العلم الذي يحث عليها الدين نفسه ودون التصريح باسم الكاتب، وبعنوان الكتاب فهم الجالسون على المنصة أن المتحدث يعني مكسيم رودينسون وكتابه «محمد» .

هذا هو كلام المفكر المصري التحرري ، إنه يجعل من الفضيحة أن يعترض معترض على كتاب يهاجم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويهاجم الإسلام ، وليس فيه من آثار المنهج العلمي أي أثر، بل إنه اعتمد على الشتائم والسباب والتهم وتمزيق التاريخ وتشويه الحقائق وطمس معالم القيم ، لم يقل هذا المفكر المصري التحرري كلمة واحدة في إدانة هذا الكتاب ،وكأن الإسلام لا يعنيه ، وكأن حرية البحث العلمي عنده فوق الحقيقة وفوق المساءلة . إنني لا أعرف ، على حد علمي ، للأستاذ محمود أمين العالم موقفًا أنصف فيه الإسلام أو دافع فيه عن المسلمين الذين ينتمي إليهم، وكنا نود أن تقل حدته وتتزن نبرته ويكون موضوعيًّا في إبداء رأيه . إننا لا نحجر على أصحاب الآراء ، ولا على أصحاب الاتجاهات أن يقولوا ما يعانون وأن يعلقوا بما يشاءون ، ولكننا فقط نطلب منهم أن يعطوا للآخر ما يعطونه لأنفسهم ، وألا يصفوا بالجمود كل من يخالفهم في الرأي أو المعتقد ، إن هذا منهج غير علمي بالمرة ولكنهم للأسف يلبسون مثل هذه المزاعم والأكاذيب ثوب العلم ويضعون فوق رءوسها طيلسانات العلم وحرية البحث العلمي ، وما هي إلا تعصبات ضد ما لا يعتقدونه .

إن الأستاذ محمود أمين العالم الذي استنكر على العلماء ردودهم على رودينسون ومدرس كتابه ، لم يكتب شيئًا ولم تصدر عنه أي عبارة في استنكار التهجم المنافي للعلمي ، والتبجح المناهض للمنهج العلمي على هداة البشرية ، وعلى القيم التي جاءوا بها من عند الله ، لإسعاد عباده في الدنيا والآخرة ؛ بل إنه اكتفى فقط بالدفاع عن المخطئ ، واعتبر الهجوم على أفكاره هجومًا على المنهج العلمي ، وعلى العقل ، ما كان أولى أن يقول المعترض أن كتاب رودينسون ليس فيه منهج ولا يقره العقل ، وأن مؤلفه يعتمد على الشتائم المقذعة كما يعتمد على المصادر الثانوية في كتابه .

وقد علق الدكتور مصطفى عبد الغني في مقاله الذي أشار فيه إلى ندوة المجلس الأعلى للثقافة على كلام المعترضين على الأستاذ الفرنسي الذي قرر وضع كتاب رودينسون ضمن قائمة الكتب التي كلف الطلبة بقراءتها قراءة نقدية (الأهرام ٢٢ يونيو ١٩٩٨م ص ١٨).

ثم أعقب ذلك بقول الأستاذ محمود أمين العالم : «إن عدم استعانتنا بالكتب الأجنبية أيًا كان محتواها إنما يجعلنا نتضاءل في عملنا ، ونتحول إلى النقل لا العقل ، والاقتصار على المكتبة العربية فقط يحول بيننا وبين توسيع المدارك ، وتعميق الأفهام» ويذكر نفس المتحدث أنه قرأ منذ فترة مبكرة أعمال ماسينيون ، وأنه قارعه الحجة بالحجة ، ومن ثم فهو يرى أن هذا هو ما ينبغي أن يكون في التعامل مع مثل هذه الكتب .

بالطبع لم تكن الساحة خالية من المعارضين للكتاب ولتدريسه هو بالذات لشباب مسلم في سن العشرين ، حيث يخبرنا كاتب المقال أن الدكتورة يمنى الخولي ـ أستاذة الفلسفة ـ صرخت أثناء الندوة ، هكذا اختار الكاتب أن يعبر قائلة : «كلنا متطرفون» الكتاب سيئ وعباراته سيئة ، ونستطيع أن نحذف اسم رسولنا الكريم محمد لنضع مكانه في هذا الكتاب اسم أي نجم معاصر كيلا ندرك تغييرًا ملموسًا في الفكرة التي أراد توصيلها رودينسون بخبث شديد ، ثم إن الكتاب خطير خاصة حين يتعلق الأمر بشباب عمره عشرون عامًا» .

بعد أن عرض الدكتور مصطفى عبد الغني كلام محمود أمين العالم ، الذي استنكر فيه بشدة موقف المعارضين من الكتاب ، ومدرسه ديبييه مونسيبو الفرنسي وكلام الدكتورة يمنى الخولي في تأكيد ما سبق أن قاله العلماء في شجب هذا الكتاب .

يقول : « ... إنني واع أشد ما يكون الوعي إلى هذه العنصرية الغربية التي يعاملنا بها الغرب ، ويستخدم – في أولياتها – النظر إلى ديننا وعقيدتنا ، والتعامل مع رسولنا الكريم الذي سمي أحيانا «مهمه» وأحيانا أخرى«محمد» للتقليل من شأننا .

أضف إلى هذا أنني مدرك تمام الإدراك أن العقيدة (في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، كمثال) تستخدم الدين أحيانًا للتعبير عن هذه العنصرية البشعة التي يشارك الغرب كله في صنعها وممارساتها ضدنا ، ولعل المثال الذي برد إلى ذهني الآن قصة هذه الطالبة المصرية التي قامت هذه الجامعة بفصلها لأنها ارتدت الحجاب ، داخل الجامعة ،

ومارست العقيدة ممثلة في الصلاة مع زميلاتها ، مما نجم عنه قضية قامت الطالبة برفعها أمام القضاء المصري منذ سنوات ، وما زالت تنتظر حكم القضاء .

ربما كان هذا الوصف البسيط لشخصي الضعيف عاصمًا لي لاتقاء أي اتهام بالانحياز أو الشوفونية» .

إن دعاة الحرية الفكرية يرغموننا باسم العقل أن نشم الهواء دخنًا ، وأن نشرب الماء آسنًا رنقًا ، وأن نتناول الأطعمة الفجة والعفنة دون اعتراض أو امتعاض ، وأن نقبل أن تغسل أمخاخ أبنائنا وبناتنا ، ويهان دينهم وديننا ، وأن نسكت لأن الحرية الفكرية والمنهج العلمي يلزمنا نحن فقط بالسكوت ، وكأن هذا شيء مصمم لنا بخاصة من دون العالمين ، إذا اعترضنا قوطعنا ، وإذا سكتنا وصفنا بالجهل وبالتأخر والتخلف ، وأما غيرنا فمن حقهم أن ينفخوا في الأبواق ويطيروا إلى السبع الطباق .

والعجيب أن أمثال رودينسون يجدون من بيننا من يروج لأفكارهم ، حتى وإن كانت ضد معتقداتنا وقيمنا وللأسف فإنهم إذ يروجون لمثل هذه الأفكار إنما يعرضونها وكأنها مسلمات وحقائق علمية دامغة ، وما ذلك إلا لأنها مستوردة وكأن الغرب لأنه متقدم من حقه أن تكون آراؤه وأحكامه كلها صائبة ، ولذلك فإنهم لا يفندونها ولا يردون عليها ، بل نراهم يتجاهلون قول أهل الحق فيها .

ونعرض هنا لما جاء في ندوة الأهرام في عدد الجمعة ١٩٩٨/٣/٧ ، تحت عنوان «هل نملك تذكرة الدخول للقرن ٢١ ؟» وقد تناولت هذه الندوة عدة نقاط يهمنا منها ما جاء بخصوص حرية التدريس للطلاب في ضوء ما أثير من نقاش حول كتاب مكسيم رودينسون. في البداية أشار الدكتور برهام عطا الله ـ الأستاذ بكلية حقوق الإسكندرية ـ إلى كتاب «محمد» لرودينسون ثم قال :«إن المجتمع يربط بين العلوم الطبيعية الدقيقة والعلوم الثانية الاجتماعية أو القاعدية وأنا أريد أن أوجه النظر إلى أننا نريد أن نخلق مجتمعًا علميًا ، وقد استخدم الدكتور زويل كلمة «حرية» ، وأنا أستخدم مثلها «التسامح» ؛ لأن المهم جدًّا في نشاط العلوم الاجتماعية أن يكون هناك تسامح وحرية، وألا يكون هناك أي نوع من الزجر أو التعسف ، أو حتى محاولة الرفض الجزافي لأي عمل فكري . وبالمناسبة أنا كنت منذ شهر في سفر وعندما رجعت وجدت ابنتي تقول أن هناك كتابًا خرب الدنيا في الجامعة الأمريكية ، والسيد الوزير مفيد شهاب منع الكتاب لمجرد أن أحد الصحفيين الكبار قال أن فيه بعض

الكلمات غير المناسبة عن الدين الذي نؤمن به ونحبه ، فقلت لها يا ابنتي أنا أعرف هذا المؤلف وحضرنا معه ومعالي الدكتور مفيد حضر معنا بعض محاضراته في الستينيات ، وأنا أريد أن أربط بين التسامح وبين الحرية الفكرية وبين التقدم عموما والقاعدة العلمية» .

هذا الكلام ينطوي على بعض المغالطات أما عن قول الدكتور عطا الله بأنه لا بد من توفر عاملي الحرية والتسامح في نشاط العلوم الاجتماعية «فإن حرية البحث شيء لا ننكره ولا نرفضه ، ولكننا ننكر ونرفض أن تؤخذ اجتهادات العلماء وما توصلوا إليه ، مما قد يكون خطأ ، ونقدمه على أنه حقائق يجب الأخذ بها ، أو أن نروج لهذه الاجتهادات لخدمة أغراض معينة قد لا تكون ظاهرة ، ولكنها أبعد ما تكون عن العلم والبحث العلمي ، إن البحث العلمي ينبغي أن يكون لصالح الإنسان من الناحيتين: الروحية والمادية ،وليس لمجرد التقدم المادي وحده أو إثبات التفوق والغلبة على الآخرين .

أما عن التسامح فإننا ينبغي أن نفرق بين التسامح والتساهل ، فالتسامح مطلب ديني وإنساني معًا ، وشيء لا غنى عنه لحياة الإنسان المدنية ولمؤسساته الاجتماعية بشكل عام ، ولكن أن نتساهل في القيم الراسخة للمجتمع ونسلمها لأهل الأهواء والأغراض ، فإن هذا ينبغي أن يكون أمرًا مرفوضًا ومردودًا ، كما أننا لا يمكن أن نعد الهجوم على الرسول صلى الله عليه وسلم بحثًا علميًّا ، ونعتبر في نفس الوقت ، الدفاع عنه وصد عادية المغرضين تعصبًا وتحجرًا ومصادرة على الحريات . لا شك أن علم الاجتماع المعاصر برغم اعتماده على أصول علمانية مادية بحتة غالبًا ، قد أمدنا بمادة علمية صالحة تفيد في إبراز التاريخ الديني والسيرة الخلقية للمجتمعات ، وللبيئة الاجتماعية للإنسان ، أما أن يستغل علم الاجتماع لتثبيت آراء أو نظريات باطلة فهذا مرفوض بالكلية .

إن الظواهر الاجتماعية التي يتابعها ويرصدها علم الاجتماع ليست لها في كل الأحوال قيمة الحقائق المطلقة ، ولا ينبغي أن تؤخذ مأخذ التسليم دون تفنيد ، ولست أدري ماذا يريد الدكتور برهام بقوله : أنه يعرف رودينسون ، هل يعني أن مجرد معرفته وحضوره بعض المحاضرات للكاتب تعفيه من المسئولية الخلقية والعلمية تجاه سب الرسول صلى الله عليه وسلم والعدوان على الإسلام بهذه الطريقة الفجة ؟ وتجعله فوق النقد والمساءلة .

إن رودينسـون خصـم عنيد لرسـول الله صلى الله عليـه وسـلم وهو متخصص في مهاجمة الإسـلام مثل معظم المستشرقين ، وإن ادعى أنه يناصر القضية الفلسطينية ، وما هي يـا ترى العلاقة بين الهجوم على الرسـول صلى الله عليه وسـلم والإسلام ومناصرة القضية الفلسطينية !!

وقبل أن نمضي في عـرض ما جاء في هذه الندوة بخصوص الكتـاب موضوع المناقشة ينبغي أن نعلق أيضا على كلام الدكتور برهام عطا الله في هذا الصدد ، يقول الدكتور «إننا نريد أن نخلق مجتمعًـا علميًّا لأن المهـم جدًّا في نشـاط العلوم الاجتماعية أن يكون هناك تسامح وحرية وألا يكون هنـاك أي نوع من الزجر أو التعسف ، أو حتى محاولة الرفض الجزافي لأي عمل فكري ، أنا أعرف هذا المؤلف وحضرنا معه ومعالي الدكتور مفيد ... بعض محاضراتـه في الستينيات» وإلى جانب ذلك يطالب نفس الأستاذ بالربط بين الحرية الفكرية وبين التقدم بصفة عامة والقاعدة العلمية بصفة خاصة .

إن خلق المجتمع العلمي الذي ينادي بـه المتحدث لا ينكره الإسلام ، بل إن الإسلام كان أول ديـن يؤسـس مثل هـذا المجتمع ، ويرسـي قواعده علـى القراءة والتعلم اللذان همـا أسـاس العلم والحضـارة ، يقول تعـالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ والقرآن الكريم كتاب علم أُمِرَ المسلمون بحفظه وتدبره وبتطبيق ما جاء فيه ، ومن أول وأهم ما جاء فيه الحض على طلب العلم وتعليمه ، وعلى البحث والنظر والتأمل والتفكر والتدبر والإفادة من تجارب الآخرين .

إنه بفضل الإسلام قد تحولت المدينة ومكة إلى دار علم ، وكان العلم ينتشر بانتشار القرآن في كل مكـان من ممـالك الدنيا ، لقـد حارب الإسـلام الخرافـة والجهل والتقليد الأعمى ، وطـالب بالحجـة والبرهـان والدليل لإزالـة الشـك والغموض ، والوصول إلى الحقـائق الثابتـة واليقين الجـازم عن طريـق العلم الصحيح والمجتمع العلمـي الذي أسسـه الإسـلام ، وجعل أهـل الحل والعقد فيـه هـم العلماء ، قـام على الدين وعلـى الاتصال برب العالمين خالق الإنسان وواهب العقل والفكر ، ومفجر الطاقات العقلية والفكرية، وخـالق المـادة التي يعمل فيهـا العقل ويتصـرف بمقتضاهـا ، ومبدع القوانين الطبيعيـة ، ومنزل القواعد العقائديـة والمبادئ الخلقية والشـرعية التي تحكـم الحياة والفكر ، وتضبط سير العقل ، وترسـم سـلوك البحث والنظر ، وإذا فليس معنى أن نخلق مجتمعًا علميًّا أن نكـون لا دينيين ، لأن اللادينيـة ، أو الاسـتخفاف بـالدين هما من أخطـر المخاطر التي تتحدى الإنسان في قيمه العلميـة والدينية ، بل وفي إنسانيته على العموم ، إن الضوابط

والقيم التي وضعها الله تعالى وأكدتها سنن الأنبياء ، والتي يعدها البعض قيودا أو معوقات إنما هي لمصلحة الإنسان الذي لا يمكن له أن يستقل بحياته وحاجاته عن ا لله ، خالقه وخالق الكون كله ، إن العقل والوحي كلاهما من الله تعالى ، والعقل حامل الوحي ، والوحي حاميه وراعيه .

بعد أن عرضنا رأينا فيما قاله الدكتور برهام نعود الآن إلى موضوع الندوة .

رد الدكتور أحمد زويل على كلام الدكتور برهام قائلا : «أنا عايز أعلق على هذه النقطة في صراحة ، يا دكتور فإنه حتى في أمريكا العلماء لهم حدود ، يعني أنا لا أستطيع غدًا في جامعة كلتاك أن أقول إن الحكومة الأمريكية يجب ألا تضرب العراق مثلاً ... أنا أستطيع أن أقول هذا كشخص ، وأستطيع أن أقول ذلك كأحمد زويل ، ولكن كعالم من جامعة كلتاك لا يمكن أن أقول ذلك وفقًا لقواعد الجامعة . لهذا فإن ما تريد أن تقوله أنا أوافقك عليه ، وهو أن يكون عالم الفكر حرًّا وواضحًا ، ولكن لا تكون هناك لخبطة تخلط العلم بالمجتمع بالدولة بالحكومة» . معنى ذلك أن العلم والبحث الحر لا ينبغي أن يتجاوز نظام الدولة والقيم التي ارتضاها المجتمع وقرر أنها من محمياته . ومن المهم أن ننقل هنا رد الدكتور الوزير العلامة مفيد شهاب ، صاحب قرار سحب كتاب رودينسون من الجامعة الأمريكية على كلام الدكتور برهام ، وعلى كل المعارضين لهذا القرار الشجاع بحجة الدفاع عن حرية الفكر . يقول الدكتور مفيد شهاب «أما بالنسبة لقضية حرية البحث العلمي التي أشار إليها الدكتور برهام عطا الله ، سواء في العلوم الاجتماعية ، أو العلوم الطبيعية ، أو غيرها فقد أغناني الأخ الدكتور أحمد زويل وهو يعيش في مجتمع متحرر جدًّا وديمقراطي جدًّا ، عندما رد على بعض أبعادها ... وأضيف إلى هذا :

أولا : أن من يقول بالحق لا بد أن يقول بالواجب...ومن يقول بحرية الفرد فعليه أن يقول بحق المجتمع.

ثانيا : وأنا أتحدث كأستاذ قانون فإن هناك مجموعة آداب وقيم في كل مجتمع تشكل النظام العام الخاص به ، وما قد يكون عيبًا في مجتمع لا يكون كذلك في مجتمع آخر ، وعندنا في مصر .. لا يسمح النظام العام بأن تكون المعتقدات الدينية الراسخة محل استهزاء ونقد وتجريح. نعم أنا مع حرية البحث العلمي وأول من يؤيده في العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، ولكن دون أن تصل إلى الإخلال بالنظام العام والآداب

الخاصة بكل مجتمع وبمعتقداته، وهذه قاعدة في القانون .. ولهذا أوقفنا تدريس الكتاب الذي أشار إليه الدكتور برهام، في الجامعة الأمريكية .. وهو كتاب «محمد» تأليف مكسيم رودينسون .. فالكاتب يقول إن القرآن الكريم ليس من وحي الله سبحانه .. ولكن كتبه واحد كان يجيد الشعر ، ولولا أنه مكتوب على شكل شعر من النبي صلى الله عليه وسلم ما استمر القرآن (!!) فهذه مسألة داخلة في صميم العقيدة.

وقال أيضًا : إن الرسول في سلوكياته تزوج السيدة خديجة لأنها كانت غنية ، وهو كان يريد أن يرتفع إلى مستواها ، ولما تزوجها وجدها سيدة كبيرة في السن لم تشبع شهوته الجنسية - وأنا آسف أني أكرر هذا الكلام ، ولكن لا بد أن يعرف الناس ما دمنا نتحدث عن الحرية - وهذا مرفوض .. وأنا أسفت للمؤلف، فإنني كنت في باريس واستمعت إليه وكان وقتها يساند القضية الفلسطينية وكان ماركسيًّا، ولكن كونه يدافع عن القضية الفلسطينية ليس معناه أن كل ما يكتبه أقبله ،وإنما لا بد أن أرى مضمونه. وعندما تحققت من أن ما ذكره الأستاذ صلاح منتصر - الذي أثار هذا في عموده - صحيح مائة في المائة أصدرت قراري بوقف تدريس الكتاب في الجامعة.
يا دكتور برهام .. إنه في باريس التي هي أكثر منا حرية قدموا جارودي للمحاكمة ، وأدين لماذا ؟ لأنه انتقد بعض ما قيل من أفكار عن النازية ، وأنهم بالغوا في الأرقام ، وأن هذا العدد غير صحيح، بمجرد أن كتب جارودي هذه الأفكار ، اعتبروا أن فيها إخلالاً بالنظام العام الفرنسي وبالقانون الفرنسي ، الذي يقول أن هذه مسلمات لا يمكن الطعن فيها، ومنها أن تقول أن اليهود لم يعذبوا .. أي أنه بمجرد أن تنتقد وتقول أن اليهود لم يعذبوا وتكتب ضد هذا تحاكم وتدان !.

إن هذا الكتاب يتعارض مع حرية البحث العلمي وإذا جاء أي كتاب بما يخالف رواسخ المعتقدات الدينية فسوف أوقفه .. فالرقابة في الجامعة لاحقة على ما هو مخالف لمعتقدات المجتمع، ولكن لا يمكن في البداية أن أقول لكل أستاذ هات كتبك لكي أراجعها ، لأن هذا ضد حرية البحث العلمي .. إنما وبعد صدور الكتاب نقرؤه ونفحصه ، هل هو مناسب للتدريس أم لا ؟ فإذا كنت تريد أن تكتب فأهلاً وسهلاً ولكن لا تخل بقيم المجتمع .. هذا ما حدث وأرجو يا دكتور أن تبلغه لابنتك.!.

نقلنا كلام الدكتور مفيد شهاب كاملا لأهميته في توضيح موقفه من هذا الكتاب، وإصدار قرار بمنع تدريسه في الجامعة ، والدكتور مفيد شهاب من جهابذة العلم والسياسة في مصر ، وهو رجل معروف بأصالته وعمق انتمائه لهذا الوطن وأن غيرته

على الإسلام محل شهادة وتقدير ، وقد أصاب في وقف هذا الكتاب فور معرفته به وذلك لتهجمه على الإسلام وعلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفوق ذلك وقبل كل شيء لقلة جدواه العلمية ، وضعف مصادره ، واهتزاز معايير مؤلفه بل لعنصريته وتعسفه ضد نبي الإسلام والحضارة الإسلامية بشكل عام .

وفي أخبار الأدب (عدد ٤ من ربيع الأول ١٤١٩هـ - ٢٨ من يونيو ١٩٩٨ م. ص ٢٦) نشر عبد الحميد صالح حمدان مقالاً حول رودينسون وكتابه قدم له بنبذة مختصرة في تاريخ الاستشراق والنزعة التعصبية التي كانت تحكمه منذ بداية تكوينه ، ثم قال : «وقد أردت بهذه المقدمة أن أبين أن ما جاء في كتاب «محمد» (صلى الله عليه وسلم) لمكسيم رودينسون ما هو إلا قطرة في المحيط الإستشراقي ! فهذا المهاجر اليهودي الروسي : بدأ اهتمامه بالعالم العربي والإسلامي منذ صغره ، وتحديدًا في الثلاثينيات من هذا القرن». وأشار الكاتب إلى اهتمام رودينسون بالتاريخ الإسلامي والعربي ، وذكر أنه تتلمذ على يد المستشرق الفرنسي جودفروادي موبين (١٩٥٧) الذي كتب السيرة النبوية بموضوعية وامتياز ، وهو أستاذ الدكتور زكي مبارك وبعد أن ذكر الكاتب معالم حياة رودينسون يقول تحت عنوان طبيعة التكوين : «ورودينسون في الواقع شخصية غريبة الأطوار من تلك الشخصيات التي لا تهدأ ولا تستقر على حال . فهو بطبيعة تكوينه وتفكيره يغالي في (تأثير) الأيدلوجيات ويطبقها على كل دراساته وأبحاثه . وهو كما يقول قد انبهر بالإسماعيلية كنموذج للأممية الحديثة، وتأثر - بشكل كبير - بالبيئة الفرنسية التي نشأ فيها ، وبما حدث في أوروبا من تحول الكنيسة الكاثوليكية عن موقفها الخاص بتحريم تناول المقدسات . وكان أمله أن يحدث الأمر نفسه في العالم الإسلامي! وقد شرح رودينسون وجهة نظره هذه في مؤلفاته ، بل وألقى محاضرة في القاهرة حول الماركسية وتاريخ الإسلام ، صاغ فيها لأول مرة مفهوم المسلم الاجتماعي و«العلمنة في الإسلام» ، فهو أول من رأى أن هذه العلمنة قد ظهرت في العالم الإسلامي بفضل الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي عرف كيف يجند الناس من أجل توحيد الأمة العربية وإنشاء نظام اجتماعي مثالي يتجنب مزالق الاشتراكية والشيوعية.

وهو يرى أن الدين الإسلامي في وعي المسلمين لا يمكن أن يقتصر على ذكر الجنة والنار، بل الأهم هو التعبئة حول عظمة أمة الإسلام ، ونظام الإسلام الاجتماعي. وقد لفت هذا التطور نظره، كما لفت نظره كذلك خوف الغربيين من الكلام عن الإسلام

الـذي يبدو لهـم كعـالم مجهول ومعقد رغـم آثـاره الهامـة (المهمـة) علـى العلم وعلى الشعـوب». وبعد أن أشـار عبد الحميد صـالح إلى مؤلفـات رودينسـون وكلهـا حول الإسلام والعـرب قال تحت عنوان مواضع الخلل : «ولا شـك أن هذه المؤلفات تعكس اتجاهـات رودينسون في البحث والنقد والتأويل، وهي اتجاهات تقبل بالمقدمات المنطقية وتتعـامل مع الأيدلوجيـات المشـحونة بـالقلق والتوتر ، والمغرقـة في الإيهـام والمثاليـة».
ويحدد عبـد الحميد صالح حمدان موقفـه كمسلم مـن مثل هذا الكتاب فيقول : «ولكن هذا ليس سببا وجيها يدعونا إلى مقاطعته ، أو منع تداول كتبه المنشورة والمتداولة على نطـاق واسع في أنحـاء العالم ، بل العكس صحيـح، فقد قرأنا في شـبابنا هذه الكتابات، فزادتنـا إيمانـا على إيمان، وأتـاحت لنـا أن نضع أيدينـا على مواضع الخلـل في التفكير ، وعلى حـالات سوء الفهـم والتأويلات الخاطئـة المقصودة وغير المقصودة . وخلق ذلك لدينا حاسـة النقد الموضوعي ، وحررنـا من الوسـاطة الفكرية وقربنـا من طرق التفكير التحديديـة دون تفريط في أي من معتقداتنا الراسخة أو زحزحتها قيد أناملة (أنملة)».
هـذه هي وجهة نظر عبد الحميد صالح حمدان في رودينسـون وكتابه ، أثبتناها لأن فيها نقاطا تفيد البـاحثين في أدب الرد والمعارضة في المسـائل الدينية وبخاصـة ما هو إسلامي منهـا . ولكنني أود أن أعلق على عبارة الكـاتب «فهو أول من رأى أن هذه العلمنة قد ظهـرت في العـالم الإســلامي بفضل الرســول محمد صلـى الله عليــه وسـلم» إذ أن رودينســون يحـاول هنـا أن يحشـر العلمنـة أو العلمانيـة في الإســلام بمفهومهـا الغربي الإلحادي . صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أول من بنى أمة وحضارة على قواعد علميـة راسخة ، وعلى قيم دينيـة وإنسـانية ثابتـة تجمع بين الوحي والعقل والضمير . أما العلمانية بمفهومها الغربي الذي يسلم للعلم كل شيء ولا يترك للدين إلا زوايا ضيقـة في حياة الناس ، فـإن هذا شيء يرفضـه الإسـلام . إن رودينسون قد ربط بين العلمنة وبين عمل الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، لأنه يعتبر الإسلام فرقة، وفرقة خارجـة ومنبوذة ، وأنه يربط بـين الإسلام والوثنيـة العربية التي جـاء الإسلام في حقيقـة الأمر لإزالتهـا وللإطاحـة بنفوذ أهلهـا إلى الأبـد . إن الرسـول صلـى ا لله عليـه وسـلم لم يكن قائدًا سياسـيًّا محاصرًا ببيئتـه وزمنه ، ولكنـه كان رسـولاً ، ورجل دولة ودين أرسى قواعد دولته العظمى على أساس الوحي ، والعقل ، والحس ، والضمير .

وفي هذه القرينة كتب عصام زكريا مقالا بعنوان خلط آيات القرآن والإنجيل (روز اليوسـف ٦/٢٢/ ١٩٩٨ عدد ٣٩٥٤) ، قال فيـه بعـد العرض والتفنيد الجيدين لهذه

السور المزعومة ، أن الكاتب سواء كان فردًا أو مجموعة ربما يكون فعل ذلك بدافع شخصي ، ولكننا نرى أنه لو صح القول بالدافع الشخصي لهان الخطب ، لكن المتتبع لشبكة المعلومات وللإصدارات التي تنشر حول الإسلام لا يسعه إلا أن يجزم بوجود اتجاه عام يحرك بواسطة جماعات ومؤسسات عالمية تدبر بمكر وتمول بسخاء الحملات المسعورة ضد الإسلام والمسلمين . وسوف نشير فيما بعد إلى محاولة الحكومة الإسرائيلية لفرض ثلاثين كتابًا على الطلبة العرب المسلمين ، كلها في الهجوم على الإسلام وعلى نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم .

إن الدين الإسلامي يهاجم اليوم من كل اتجاه ، والمطالع لما توجهه شبكة المعلومات ضد الإسلام يحس وكأنها مصممة لشن حرب كلامية فضائية على الإسلام والمسلمين، ويحس كذلك وكأن الغرب وأمريكا ليس لهم عدو فعلاً غير الإسلام والمسلمين ، ففي الأسابيع الماضية طالعتنا هذه الشبكة من عدة مواقع بأكاذيب وأضاليل كافرة ومنفرة ، فقد كتب أحد الحانقين أن المسلمين يعبدون القمر ، وكتب آخر يزعم أنه قادر على معارضة القرآن إذ سود عدة صفحات بالعربية والإنجليزية ، نشرها على موقع «أمريكا على الخط» حاول فيها أن يحاكي نظم القرآن مع دس عقائد نصرانية ، في ثنايا كلامه الخارج على حدود المعقول والمنقول ، ولو أن المسيح نفسه عاد إلى الأرض في أيامنا هذه لعاقب هؤلاء المفترين المتجردين من أخلاق جميع النبيين ، ومحى بيده الشريفة كل ما كتب من هراء وافتراء .على سبيل المثال فقد كتب أحد المفترين (ا ل ص م) قل يا أيها المسلمون إنكم لفي ضلال بعيد ، إن الذين كفروا بالله ومسيحه لهم في الآخرة نار ، وعذاب شديد ... ».

والحروف الصم ليست ضمن الحروف المقطعة في القرآن الكريم ، وهي كفر أيضا «الصُّم» بتشديد الصاد مع الضم يعني الذين لا يسمعون ولا يعقلون ، وفي أخرى جاء «ا ل م ذ إنا أرسلناك للعالمين مبشرًا ونذيرًا تقضي بما يخطر بفكرك وتدبر الأمور تدبيرًا فمن عمل بما رأيت فلنفسه ومن لم يعمل فلسوف يلقى على يديك جزاءً مريرًا ...» فهذا المتبجح «يحرف كلمة المنذر إلى «المذ» أقرب إلى كلمة «المذنب» وقد هانت عليه محاولة تحريف أعظم وأصدق وأوثق كتاب لأنه هان عليه من قبل تحريف كتب الله السابقة ، وكلام رسل الله الأولين فالتحريف أبداً صناعته هذا فضلاً عن غثاثة وهشاشة هذا الكلام .

إن هذا الكلام بعيد عن البلاغة ، مبنى ومعنى . ومثل هذه المفتريات كانت تكتب

على ورق برسم المصحف وتوزع على المسلمين في آسيا وإفريقيا للتمويه عليهم ، حدث ذلك منذ سبعينيات هذا القرن ، بل كانت كتب غير إسلامية تقدم في بعض الإذاعات ذات الأهداف الخاصة الموجهة إلى الشعوب الإسلامية ، مقروءة بطريقة تشبه في أدائها طريقة قراءة القرآن الكريم.

وفي القاهرة نشرت مجلة «الصلة» ، وهي مجلة تطبعها بالفرنسية الجمعية الديمقراطية للفرنسيين المغتربين بالمعادي وتوزع على الفرنسيين المقيمين بمصر بغرض تعريفهم بالتقاليد المصرية فيما تزعم المجلة . في هذه المجلة وضعت صورة صفحة من المصحف سطورها غير مقروءة وفي وسطها رسمت مقشة زعم الكاتب أن عوام المسلمين يعتقدون فيها ويكنسون بها أضرحة الأولياء (الأهرام ٢٢ /٥/ ١٩٩٨ ص٥) .

هذا ما رآه أصحاب المجلة من الأهمية بحيث يعرفون به الفرنسيين المستنيرين المقيمين في مصر .

وقد لفت كاتب هذا البحث النظر لأول مرة في جريدة عقيدتي إلى كتاب يدرس بالعربية والألمانية في بعض المدارس الألمانية حرف فيه القرآن ، وذكرت على سبيل المثال أن مؤلف الكتاب رسم عبارة ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى «يا أيها الغبي لم تحرم ما أحل الله لك» .

أرأيت إلى مثل هؤلاء القوم الذين تلفح قلوبهم ووجوههم النار ، نار الحقد والكراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . الأدلة على أن هذه الحملات المحمومة غرضها سياسي وليس ديني فقط . إن المتعصبين من الغربيين لم يتركوا رحى يمكن أن تضر بالإسلام والمسلمين إلا أداروها ضده . فهم يروجون في هذه الأيام لأفكار مثل الإسلام دين العنف ، والجهل ، والمراوغة . وأن لون بشرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت بيضاء ، وبالتالي فمحمد كان ضد السود ، وأن المسلمين هم الذين ابتدعوا نظام الرق ، وهم الذين اتخذوا العبيد والجواري لأنفسهم . ويزعمون أن محمدًا بهذا قد أهان العبيد ، وأهدر إنسانية السود . هذه التفاهات نقلناها من شبكة المعلومات .

ومن هؤلاء من نفوا العصمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاولوا من خلال الروايات الصحيحة التي لم يفهموها ، والروايات الضعيفة لبعض الأحاديث ، والتي لم يصححوا معناها ولا عرفوا مغزاها ، على أن يصوروا الإسلام على أنه دين

يهتبل بالخرافات بل إن بعضهم زعم أن في القرآن ما يناقض الحقائق العلمية والتاريخية ويتعارض مع ما جاء في كتب اليهود والنصارى (روز اليوسف ٢٢/ ٦/ ١٩٩٨ ص ٧٩-٨١).

إنه لا يوجد في القرآن ما يعارضه العلم الصحيح البتة ، فالحقائق العلمية لا تتصادم قط مع الحقائق القرآنية لأن الله تعالى هو الذي ألهم العلماء معرفتها ، والوقوف على أسرارها ومنافعها ، كما أنه هو الذي أوحى بالقرآن إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرفه بأسراره ومنافعه ، كما أمره ببثه بين الأبيض والأحمر .

إن القرآن لا يعارض الفطرة السليمة ولا الحقيقة الثابتة وإنما يعارض الجهل والعنصرية ، والإلحاد والفساد في الأرض ، وإشاعة الفوضى بين الناس تحت أي مسمى.

إن المغرضين في الغرب يريدون أن يصدوا الناس عن الإسلام لأن الناس مقبلون عليه إقبالاً واسعًا ، وهم يريدون أن يوقعوا الفتنة بينهم ، ليس فقط بين المسلمين والمسيحيين في ديار الإسلام ولكن أيضا بين المسلمين المهاجرين في أمريكا وأوروبا .

إن أمريكا التي تدعي الدفاع عن المتدينين بأي دين كان وتعلن الحرب على الاضطهاد الديني باسم المحافظة على حقوق الإنسان ، هي المسئولة إلى حد كبير عن مثل هذه الحملات المستعرة ضد المسلمين في أنحاء العالم .

وامتدادًا لسلسلة الغارات على الإسلام والمسلمين ننقل هنا ما جاء عن مطيع عمر أبو محبة ـ وكيل مساعد وزارة التربية والتعليم ـ بفلسطين ، أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي بدأت الأسبوع الماضي تشكيل لجنة للعمل على تطبيق المناهج الدراسية الإسرائيلية على المدارس العربية في القدس ومنع سيطرة مؤسسات التعليم الفلسطينية على المناهج التعليمية . وقال أثناء عرض تقرير بلاده في الدورة الثامنة والثلاثين لمجلس الشئون التربوية لأبناء فلسطين بدمشق أن هناك أكثر من ثلاثين كتابًا تفرضها إسرائيل الآن على المدارس العربية بالقدس تشمل هجومًا وقحًا على الرسول صلى الله عليه وسلم والدين الإسلامي . وطالب المتحدث الفلسطيني بإنشاء صندوق خاص تشارك فيه الدول العربية والإسلامية لدعم التعليم بالقدس لمواجهة الممارسات الإسرائيلية والحفاظ على الهوية العربية . (جريدة الأهرام الثلاثاء ٢٣ يونيو ١٩٩٨ ص٨). ونشرت جريدة الشعب في الصفحة الثالثة منها (عدد ٢٣ يونيو ١٩٩٨) مقالاً

بعنوان (الشعب تكشف كذبة عمرها ٦٧ سنة كتاب ثالث يسئ إلى الإسلام في مكتبة الجامعة الأمريكية) . في بداية هذا المقال أورد الكاتب كلمة نشرتها الأهرام في عام ١٩٣١م تعليقا على إحدى «البذاءات» المتكررة التي وجهتها الجامعة الأمريكية بالقاهرة إلى الإسلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والكلمة هي : «هذه الجامعة التي تتظاهر بأنها مؤسسة علمية هي مجرد هيئة للمبشرين الذين لا عمل لهم إلا إهانة دين الدولة .. إلى حد إهانة كتاب الله ونبيه الذي نؤمن به». ويأخذ كاتب المقال على المسئولين بالجامعة الأمريكية احتفاظهم بكتاب يسئ للإسلام لمدة سبع وستين سنة مع عدم قدرتهم على تقديم أية توضيحات في تبرير وجود هذا الكتاب في مكتبة الجامعة منذ أن أثيرت المشكلة حوله للمرة الأولى في عام ١٩٣١م، مما يدل على إصرار الجامعة على الإساءة إلى الإسلام ، ويرى كاتب المقال أن المسئولين بالجامعة الأمريكية إنما يكتفون بالتبرير والمراوغة عند حدوث أي اعتراض من قبل المسلمين على ما يجري بجامعتهم ، وقد جاء رد الجامعة الأمريكية في عام ١٩٣١م على المعترضين على الكتاب سالف الذكر بأن كلامهم «تنقصه الدقة»، وأنه «متعصب وغير موضوعي» ، كما أورد صاحب المقال أن المسئولين بالجامعة الأمريكية يعرفون جيدًا أن احترام المقدسات الدينية ثابت وطني مصري لا يقبل التجاوز ، ويستشهد على ذلك بأن المسئولين في مكتب أمريكا والشرق الأوسط - أميديست - المسئول عما يسمى بمنح السلام الدراسية كانوا يوزعون على الطلبة القادمين من مصر وغيرها ورقة تسمى «ورقة التوجيه» تتضمن التعليمات الأساسية للتعامل داخل المجتمع الأمريكي ، وثاني بنود هذه التعليمات هو هذا البند «الأمريكي لا يحب المناقشة في الدين أو الهجوم عليه ، وعمومًا فهو يعتبر الجدل الديني تصرفًا عديم اللياقة» . يريد الكاتب أن يقول أن الجامعة الأمريكية لا تطبق مثل هذا الكلام في مصر قلعة العالم الإسلامي ، ويشير المقال إلى ما جاء في كتاب تاريخ الجامعة الأمريكية ص ٦٥ إزاء حادثة عام ١٩٣١م «اهتدى شاب مسلم إلى البروتستانتينية» ، يعني أنه اعتنق المسيحية دون إذن من عائلته، ولأنه درس يومًا ما في الجامعة الأمريكية ، فقد تعرضت الجامعة للمؤاخذة رغم أن طاقم الجامعة لم يتدخل في الجدل الدائر . ويذكر المقال أيضًا أن واطسون أول رئيس للجامعة الأمريكية وأرثر جيفري من كبار المستشرقين كانا قد هوجما في مقال الأهرام السابق الذكر بسبب تعمدهما الإساءة إلى الإسلام . ويشير كاتب نفس المقال بجريدة الشعب أن مكتبة الجامعة الأمريكية تضم أيضًا كتابًا عنوانه (محاورات من

الخيـال) لمؤلفه والترسافيج لاندور وهو أيضًا ككتـاب مكسيم رودينسـون موجه ضد الإسـلام والمسـلمين وبـالطبع فـإن أمثـال هذه الكتب كثـيرة يـأخذ بعضهـا عن بعض ويعـاون أصحابها بعضهم بعضًا في تتبع عورات المسـلمين ، ونقاط ضعفهم وفي حبك التهـم الباطلـة ضدهم وضـد دينهم وقـد عرضت لخمسـة كتب على الأقل مـن هذا الصنف بالدراسة والرد في كتابي الإسلام والغرب وهو تحت الطبع .

إنه من الواضح الآن أننا نعيش في عالم يمكن أن نسميه بعـالم العواصف، كل شيء فيه يتحـرك بسـرعة ، ولسـت أعني بالعواصف ـ العواصـف الطبيعية التي تعـبر القارات والمحيطات والبحـار لتصل إلى الأماكن البعيدة فتحدث فيها مـا شاء الله لها أن تحدث ـ بل إنـي أعني تلك العواصـف الهادرة والمدمـرة التي تضرب وبشـدة في القيـم والثقافات والحضارات المختلفـة للشعوب ، أعني عواصف الرأسمالية والتكنولوجية ، والاختراعات والاكتشـافات العلمية ، وثورة المعلومات والاتصـالات ، تلك العواصف التي لا تستثني أحدًا ولا بلدًا ولا دينًـا ولا ثقافات ولا قيمًـا ولا عـادات إلا وهي تحـاول زعزعتها أو طمسـها ، و من هذه العواصف المدمرة شبكة المعلومات وعملية الاستنساخ والتهجين، تهجين الأفكـار ،وتهجين الديانـات ،وتهجين الثقافـات ؛ وأيضًـا الشـركات العملاقـة متعـددة الجنسـيات وعـابرة القارات ، ومـا أطلق عليـه حديثًـا حكومة الفضـاء التي من شأنها السيطرة على سماوات كرتنـا الأرضية، وكذلك فكرة النوع أي المساواة الكاملة بين الرجـال والنسـاء بحيث لا يكون الرجل رجـلاً ولا المرأة امرأة ، كمـا يسـعى إليـه أصحـاب نظريـة النوع Gender وأصحـاب نظريـة الديكونستراكشـن Deconstruction وتعني هذه النظريـة هدم كل قديم وإقامة بناء جديد مكانـه . ونظرية الأسرة الصناعية والإباحيـة الجنسـية ، ومحاولـة التوصـل إليهـا عن طريـق إزالـة الحيـاء الجنسـي ، ولو بـالأقراص . وأيضا فـإن من هـذه العواصف المدمرة فكرة العولمـة أو الكوكبيـة يعني أن يكون العالم كله مثل الوطن الواحد يسود فيـه نظام السوق الواحد والنظام الاقتصادي الواحـد والثقافة الواحدة ، وخصخصـة الغلاف الجوي والبحار والمحيطـات وإزالة جميع الحدود الفاصلـة بين الدول وتحويلهـا إلى خيوط أو خطـوط وهميـة مثل خط الاسـتواء كل هذه العواصف تأتي للأسف من الغرب .

إن بعض الدول قد فطنت إلى خطـر شبكة المعلومات علـى قيم شعوبها وتقاليدهـم، وهي تحاول الآن إيجاد وسيلة لتصفية المعلومـات أو التحكم فيها لوضع حد لما تمثله من خطر على شئونها الداخلية ، تفعل ذلك الصيـن وسنغافورة على سـبيل المثال ، بل إن

أمريكا نفسها تحاول الآن عمل كود خاص أو شفرة خاصة تتحكم عن طريقها في المواد التي تقدمها الشبكة إلى الطلاب الأمريكيين . هذا بالرغم من أن أمريكا ترى أن شبكة المعلومات عبارة عن متجر ضخم للعقائد وأنه ينبغي من ثم أن تكون الشبكة حرة في نشاطها .

التعريف بالكاتب والكتاب :

مكسيم رودينسون كاتب فرنسي معني بعلم الاجتماع وتاريخ المجتمعات والصراعات السياسية . وهو يهودي الأصل ولد في باريس عام ١٩١٥م . وكان والده واحدًا من هؤلاء الذين أسسوا اتحاد العمال اليهودي في باريس . وقد تلقى رودينسون تعليمه في جامعة السوربون فدرس اللغات السامية ، وعلم الأجناس ، وتخصص في الدراسات الشرقية ، وفي الدراسات الاجتماعية منها على وجه الخصوص والصراعات السياسية . وخدم في الجيش الفرنسي في سوريا أثناء الحرب . وأقام سبع سنوات في لبنان كان يعمل خلالها مدرسًا بمدرسة ثانوية إسلامية ، ثم عمل موظفًا بقسم الآثار الفرنسي . التحق رودينسون بالحزب الشيوعي في عام ١٩٣٧م . وتنقل في عدة بلدان عربية أفاد منها بلا شك في معرفة عادات وتقاليد شعوبها. ثم عاد إلى فرنسا في عام ١٩٤٧م ليعمل مسئولاً عن المطبوعات في المكتبة الأهلية بها . وفي الفترة ١٩٥٠-١٩٥١م أصدر رودينسون مجلة سياسية عن الشرق الأوسط ؛ وألف إلى جانب هذا الكتاب الذي هو موضع البحث هنا ، كتابه الإسلام والرأسمالية Islam and Capitalism والذي نشرته له مؤسسة بينجوين العالمية للطباعة والنشر عام ١٩٦٦م ، والذي ترجم إلى اللغة الإنجليزية عام ١٩٧٤م .

يقول رودينسون في هذا الكتاب، وأثناء كلامه عن القرآن والسنة أن المؤرخين لا يعتبرون السنة دالة على نوع تفكير محمد إلا في حدود ضيقة جدًا ، ولكن المفكرين الأحرار من المسلمين بالاسم ، بل وحتى هؤلاء الملحدين الذين لهم مواقف عدائية تجاه الإسلام ؛ كثيرا ما يشيرون إلى الأحاديث على أنها وثائق تاريخية صحيحة (P12).

ثم يقول فيما يشبه الشكوى ، في الهامش رقم واحد في التعليق على كلامه السابق بشأن القرآن والسنة .. «إن الضغط الاجتماعي ، سواء كان هذا الضغط منتشرًا أو منحصرًا في نطاق المنظمات ، فإنه يجعل من المستحيل غالبًا نشر أي كتاب يقوم على النقد والتحليل باللغة العربية أو اللغة الفارسية أو اللغة التركية... إلخ . تستوي في

ذلك الدراسة العلميـة البحتة والدراسة العامة الـتي توجه للجماهير العريضة . ولهذا فإن الدراســات النقديـة التي قدمهـا البـاحثون الغربيون في الموضوعـات الشـرقية قد قوبلت بتوجـس حتى من قبل المفكرين الأحرار والتقدميين في المجتمع الإسـلامي ، وذلك لأنها تصطبغ من وجهة نظرهم بالعنصرية وبالهيمنة الاسـتعمارية ، وبالرغبة في تشويه صورة الديانـة القوميـة للبلاد ، يعني الإسـلام . ومن وجهـة نظر رودينسـون كمـا ذكرها في كتابه هذا ، الذي تحـت المجهر ، فإنه بناءً على هذه الذريعة قد أحاط المسلمون أنفسهم بسـياج صنـاعي أو وهمي ضـد النقد . ولا بـد أن نلفت النظر هنـا إلى نقطـة أخرى جديرة بالاعتبـار وهي أن الكـاتب الفرنسـي يعتمد في كتابـه هذا على دراسـات أو قراءات شـخت Schacht في السـنة النبوية ، ويتبنى بـالطبع نتائجه الظنيـة الواهية على أنهـا مسلمات لا تقبل الجدل أو المراجعـة . وقد اعتمد رودينسـون على كتابي شخت «أصـول الفقـه المحمدي» (أكسـفورد كلريندون ١٩٥٠م) « ومقدمـة في القانون الإسلامي (نفس دار النشر ١٩٦٤م). وكتاب «إسرائيل والعرب» (Rodinson Islam and Capitalism P249) Israel and the Arabs ترجمـه لـه إلى الإنجليزيـة مـايكل بـيرل وبرين بيرس ونشرته أيضا دار بينجوين العالمية طبعة أولى ١٩٦٨م وطبعة ثانية ١٩٨٢م كمـا ظهـرت ثـلاث طبعـات أخـرى لنفـس الكتـاب في الأعوام ١٩٦٩م و١٩٧٠م و١٩٧٣م. ووصف المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي هذا الكتاب بقوله :

"A Splendid Book: it gives a precise record of the facts; its judgements are discerning; there is in it a deep concern both for justice and for humaneness" - **Arnold Toynbee.**

« هذا كتاب رائع ، يقدم سـجلاً دقيقًا للحقائق ، أحكامه ثاقبة ، ويتضمن اهتمامًا عميقًا بالعدل والإنسانية كلاهما ».

وليس مـن غرضنـا أن نفحص هنـا هـذا الكتـاب الأخـير برغـم أهميتـه لنـا كعرب وكمسـلمين ، إلا أننا نلفـت النظر إلى نقطتين مهمتـين فيـه ، همـا : النزعـة الدعائيـة المغاليـة لصـالح إسـرائيل واليهود ، بالطبع علـى حسـاب العرب وهذا واضح بدايـة من غلاف الكتاب ، هـذا أولاً. وأما ثانيًـا : فإنـه في هذا الكتـاب يكرر مـا قالـه في كتابه محمـد من أن النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قد نسـج دينـه على منـوال اليهودية يقول رودينسون بحسب الترجمة الإنجليزية :

"Islam, (Is) a new religion born in the heart of the Arabian Peninsula, which drew its authority from their God, their laws and their prophets" (Page 8).

ومما يدل على اهتمام رودينسون بمتابعة حركة الإسلام في العالم أنه كتب مقدمة لكتاب الكاتب الفرنسي هيلن كاراري دينكوسي: «الإسلام والإمبراطورية الروسية».

Helene Carrere D'encausse: "***Islam & the Russian Empire Reform & Revolution in Central Asia.***" Introduction by Maxime Rodinson . Translated by Quintin Hoare. Comparative studies on Muslim societies: volume (8). Published (1989).

ومن الجدير بالإشارة إليه أن كتابات مكسيم رودينسون ، والإعلان عنها باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وبعض اللغات الأخرى تحتل مساحة واسعة على شبكة المعلومات وقد وجدنا لهذا الكاتب القسم الثالث من كتابه « محمد » عليها والذي عنوانه «ميلاد نبي» ويشغل الصفحات ٣٨-٦٨ بحسب النسخة التي اعتمدنا عليها .

كتاب رودينسون « محمد »:

نتناول الآن بالوصف والتحليل كتاب «محمد» لرودينسون . يقع هذا الكتاب في ثلاثمائة وإحدى وستين صفحة من القطع الصغير ، ويشتمل على ثلاثة تمهيدات ومقدمة وسبعة أبواب . نشر الكتاب أولاً باللغة الفرنسية في عام ١٩٦١م. ثم ظهرت الترجمة الإنجليزية له عام ١٩٧١م . طبعة أولى ، ثم ظهرت طبعته الثانية في عام ١٩٧٦م . وقد نشرته مؤسسة بينجوين العالمية التي تقوم بتقديم طبعات شعبية لمطبوعاتها حتى تكون في متناول عامة القراء ، وتوزع من ثم على أوسع نطاق.

مما لاحظناه أولاً على الكتاب : اعتراف الكاتب بأنه لا يقدم حقائق جديدة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما قراءة جديدة وتحليلاً جديدًا ، من وجهة نظره بالطبع . ومع اعترف الكاتب بجهود السابقين عليه من سلفه المستشرقين ، فإننا نراه يصنف الكتب الغربية التي تناولت حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى : كتب جديرة بالقراءة ، وإلى كتب ممتازة . وهو يعترف كذلك بأن الحقائق التاريخية الموجودة لا يمكن تغييرها ، ولكن يمكن لكل جيل ولكل كاتب أن ينظر إليها بمنظاره الخاص ، وأن يقدم لها التفسير الذي يراه (P. XI) والكاتب جد واع بأن كتابه لن يروق المسلمين، وهو يعتذر سلفًا عن ذلك بأنه لم ينظر إلى المصادر الإسلامية بنفس نظرة المسلم إليها ، ويقول أنه لا يقبل شيئًا من الإسلام إلا على أساس نقدي (P. XII)

ومن دفاع الأستاذ الفرنسي ديبييه - الذي كلف الطلاب بقراءة هذا الكتاب في

الجامعة الأمريكية - عن نفســه، أنه أخبر طلابه بأن هذا الكتاب قد يصيب المسلم بضيق أو غثيان ، وذلك لإمعان كاتبه الفرنسي في الطعن على محمد - صلى الله عليه وسلم - (الأهرام عدد ٢٩ مايو ١٩٩٨م) .

ومن العجيب حرص رودينسون على التنبيه على أنـه أضاف بعض كلمات إلى الترجمة الإنجليزية ، والتي لم تكن في الأصل الفرنسي ، ولكنه لم يتورع عن إضافة أو نقل أخطاء كثيرة ومغالطات شنيعة ضد دين تعتنقه قلوب أكثر من مليار مسلم في العالم ، وضد نبي تصلي عليه أمته وتسلم بعدد أنفاسها كل يوم . ولولاه - صلي الله عليه وسلم - لما صحت العقيدة ، ولما صححت تلك الأخطاء التي عششت في عقول البشر ، ولما عم نور الله وشع نور الضمير في أرجاء المعمورة ، ولما قام للدين دولة في قلوب العالمين إلى يوم الدين .

ومن العجيب أيضًا أن رودينسون في مقدمته يعترف بفضل صديقه الكولونيل برنارد فيرنير ويشكره لأنه صحح له معلومة عن طبيعة الجمل (P. X 1X) ولكنه للأسف لم يستطع أن يصحح موقفه من خير النبيين ، ولم يحاول كذلك أن يبحث عمن يصحح له أحكامه الخاطئة على الإسلام والمسلمين .

من أخطاء الكاتب الشنيعة بصفة عامة أنه يعتبر المعلومات التي جاءت بها الروايات الصحيحة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - خرافات ، ونسيج من الخيالات ، وأما الروايات الضعيفة ، والمعلومات المغلوطة فهي عنده روايات حقيقية وصحيحة . وهو إذ يقرر أنه بكتابه هذا كان يهدف إلى وضع رواية عن محمد تسهل قراءتها ، فإنه من المغامرة غير العلمية أن يحقق رودينسون هذا الهدف على حساب أعظم رجل في تاريخ الإنسانية ، رجل جاء بالحق وبه نادى ، وجاء بالحقيقة من عند الله وإليها دعا ، ووضع على أساسها قواعد أعظم أمة وحضارة في التاريخ . فحياة محمد - صلى الله عليه وسلم - من ثم إنما تقوم على الحقائق لا على الأساطير . ومن الملحوظات العامة أيضًا أن الكاتب يعتمد على كتب المستشرقين وترجماتهم للقرآن الكريم دون أن يفحصها فحصًا علميًّا أو يتوقف عندها مليًّا ، ولذلك فقد أمدته هذه الكتب وتلك الترجمات بلا شك بالمعلومات والأحكام غير الصحيحة بالمرة حول الإسلام ، فعلى سبيل المثال يشير رودينسون إلى كتاب تور أندري وهو بعنوان «محمد الرجل ودعوته» (لندن ١٩٣٠م) الذي ركز فيه المؤلف على التحليلات النفسية للمادة العلمية التي أساء في اختيارها من المصادر الإسلامية ، وذلك دون فحص أو تقويم ليقدم من

خلالها صورة مفصلة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما يراها هو ، لا كما هي في الواقع. ومن الجدير بالذكر أن رودينسون لم يخف إعجابه الشديد بترجمة ريتشارد بل لمعاني القرآن ، وبأعمال المستشرق الأيرلندي مونتجمري وات التي كتبها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي «محمد في مكة» (أكسفورد ١٩٥٣م) . «محمد في المدينة» (أكسفورد ١٩٥٦م) ، «محمد كنبي ورجل دولة» (أكسفورد ١٩٦١م) . وهذا الكتاب الأخير يعتبر اختصارًا للكتابين الأولين . ولا يخفي رودينسون إعجابه الشديد كذلك بمنهج وتحليلات وات في الكتابة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الإسلام، ولهذا فقد ذكر هذه الكتب في المقدمة ، ثم في قائمة المصادر مع التمجيد الزائد لها . وقد تصدينا لكتاب المستشرق وات الأخير بالنقد والتحليل ، ولفتنا النظر إلى ما فيه من مغالطات ومخالفات . وعلى أي حال فإن كلا الكاتبين ، وات ورودينسون ، متفقان بشكل عام في تناولهما للإسلام ، وفي رؤيتهما الخاصة بالرسول - صلى الله عليه وسلم -وبالقرآن الكريم .

الباب الثاني

مصادر مكسيم رودينسون

إذا أردنا أن نجمل المصادر العامة للفكر الغربي المعادي للإسلام عمومًا وجدنا أنها ترجع جميعًا إلى المنابع التالية :

١- إلى الكُتّابِ النصارى واليهود العرب الذين عاشوا مع المسلمين في وطن واحد، واختلطوا بهم وعرفوا دينهم ، عن كثب.

٢- إلى النصارى واليهود الأسبان الذين تعايشوا مع المسلمين في الأندلس وتعلموا لغتهم وتحدثوا بها ومهروا فيها ، وتزيوا بزي المسلمين ، وتقلدوا آدابهم كما تعلموا علومهم. وكانوا يدخلون مع المسلمين في حوار هادئ أحيانًا ، أو في جدل حاد ، يصل إلى حد الطعن في القرآن والنبي عليه السلام أحيانًا أخرى . كما يتضح من خلال كتابي ابن حزم ، «الرد على ابن النغريلة اليهودي» ، وكتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ، وكتاب «مقامع هامات الصلبان للقرطبي»، على سبيل المثال .

٣- الرهبان اللاتين الذين تعلموا اللغة العربية وتعرفوا على بعض التعاليم والعقائد الإسلامية ، إما عن طريق الترجمة كما في حالة رهبان دير كلوني في فرنسا الذي كان يضم مجموعة من المترجمين الغربيين لدراسة وترجمة بعض الكتب العربية للتعرف على الإسلام ، وبالذات تلك الكتب التي ألفها يهود متنصرون ، أو نصارى مستعربون ، والتي كانت تتميز بالميل الشديد إلى الخرافة والإثارة ضد الإسلام والمسلمين ؛ ومن الجدير بالذكر أن دير كلوني قد تأسس عام ٩١٠م ميلادية في مقاطعة بورجاندي ، واستمر عمله حتى عام ١٧٩١م تقريبًا ، وكان مؤسسه هو بطرس المحترم (١٠٩٤م-١١٥٦م) . عني هذا الدير أكثر من غيره بترجمة القرآن الكريم ترجمات مغرضة ومشوشة ، كما قام بترجمة بعض الكتب العربية في الموضوعات العلمية المختلفة ، وقد كان لهذه الترجمات بلا شك أثرها السيئ في تشكيل العقلية الغربية والموقف الغربي تجاه الإسلام والمسلمين ، واستمر تأثيرها كذلك حتى الوقت الحاضر كما سنبينه بالتفصيل.

٤- هناك مصدر آخر مهم من هذه المصادر لا ينبغي إغفاله وهو يتجلى في تلك الكتابات التي أنتجتها الحروب الصليبية والتي أفادت أيضًا من كتابات النصارى

واليهود العرب في المنطقة ، ككتابات يوحنا الدمشقي (ت حوالي ٧٤٩م) ، الذي عاش في ظل الدولة الأموية ، وخليفته ثيودور أبو قره ،حيث كتب الأول مناظرة متخيلة بين نصراني ومسلم ، انتصر فيها للنصرانية في كل شيء ، وإن كنا نشك في نسبة هذا الكتاب إلى يوحنا الدمشقي ونرى أنه وضع بعد قرابة القرن من وفاته ، وفي هذه القرينة نذكر أن يوحنا ألف كتاب ينبوع المعرفة Fount of knowledge الذي يدور الجزء الثالث منه حول العقيدة الأرثوذكسية كما شرحها الآباء الإغريق ، والذي كان له تأثير كبير على نصارى الغرب[1] .

ومما يلفت النظر في هذه القضية هو أن الطعون التي كتبها أصحابها ضد الإسلام ترجع إلى الكُتّاب النصارى واليهود ، ولا غرابة في هذا ، إذ أن المعركة الجدلية بين المسلمين وغير المسلمين كان يتزعمها رجال الدين المسيحي أو اليهودي ، بل إن الغرابة كل الغرابة في أن يتصدى العلمانيون للإسلام وأن يتجه الغرب في عصر سيادة الروح العلمانية إلى الحط من شأن الإسلام والمسلمين وتصعيد المواقف السياسية والدينية ، وإثارة الرأي العام الغربي ضدهم بهذا الشكل . وسوف نتناول هنا بعض المصادر التي تكمن وراء كتاب محمد صلى الله عليه وسلم لمؤلفه مكسيم رودينسون ، ووراء الكتابات المماثلة التي تظهر في الغرب بين الفينة والفينة بحيث شكلت تيارًا مستمرًا من العصبية والحساسية ضد المسلمين .ولأن الكاتب الذي نناقش كتابه هنا فرنسي الثقافة فإننا سوف نركز كلامنا على الفكر الفرنسي بوجه عام ، وعلى الجانب المعني منه بدراسة وعرض الإسلام بوجه خاص .

الإسلام في الفكر الفرنسي :

ترجع الحركة الفكرية الفرنسية التي كان لها تأثير كبير على مسرح الأحداث الثقافية في أوروبا إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لقد برهن المثقف الفرنسي في هذه الحقبة من التاريخ على أنه صار كاتبًا ، بمجرد كاتب ، لا باحث أو عالم مدقق كما ينبغي . صحيح أنه استطاع أن يبرهن على حريته الفكرية وعلى عدم خضوعه لسلطة الدولة ، وعلى قدرته على إبداع النقد الاجتماعي الحر الذي أثبت من خلاله أنه حد مدرك لمسئوليته الفكرية . وبالإضافة إلى ذلك ، وكما يقول برنانوس -Bern

(1) Donald Attwater - A Dictionary of Saints - (Great Britain-Penguin Books-1965) P.194.

anos فإنه قد اصطبغ عقله بالاعتقاد بتفوقه العقلي والروحي على غيره ، ولكنه في الوقت نفسه كانت تعوزه وسائل التعمق الفكري الذي تميزت به العقلية الألمانية على سبيل المثال . إلا أنه مما ينبغي ملاحظته أن المثقف الفرنسي كان يمتلك قدرات خاصة في فن الاتصال بداية من فولتير وحتى سارتر الفيلسوف الوجودي . لقد تميز المفكر الفرنسي بروح المحارب العنيف على طول الخط . وإذا ما نظرنا مع الكاتب الفرنسي هيتشم دجيت Djait Hichem إلى عصر التنوير فإننا نجد على الجانب الفلسفي أن فولتير Voltaire وفولني Volney من بين الفلاسفة الفرنسيين ، قد اهتما بشكل عام بالإسلام فاطلعا عليه عن قرب إلى حد ما ، وبخاصة على الجوانب العقائدية منه ، ومن دراستنا نلاحظ أن كل ما كان يفهمه فولتير للأسف عن الإسلام واتخذه من ثم أساسًا في الحكم عليه ، هو أنه ربط خطأ بين العنف وبين الإسلام بل إنه أرجع تاريخ العنف في الإسلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، فمحمد كان في نظر فولتير إرهابيًّا بالمصطلح الحديث. ونشير هنا إلى مسرحية فولتير التي كتبها ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتي هي بعنوان التعصب أو محمد النبي، والتي عرضت لأول مرة في مدينة ليل بفرنسا عام ١٧٤١م ، وهذه المسرحية قد اشتملت على كل ألوان الطعن والتجريح في شخص النبي صلى الله عليه وسلم والدين الذي جاء به .

لقد توجه فولتير أول ما توجه بالطعن إلى الجوانب الدينية في الإسلام ، كما فعل ذلك مع المسيحية كديانة رسمية للدولة ، وهنا لا بد أن نلفت النظر إلى أن فولتير قد راق له أن يتهم الإسلام بالتعصب وأن يحصره في إطار هذه التهمة الباطلة . إنه جعل الإسلام رمزًا للتعصب والكراهية للإنسانية وعلامة على مدى التعطش للوصول إلى القوة a symbol of fanaticism and anti humanism .

والعجيب أن فولتير وهو يمثل عصرًا كاملاً للحركة الفكرية في فرنسا يزعم بالإضافة إلى ما سبق أن الإسلام كان قد انتشر بسبب الإباحية الجنسية التي اتسم بها نظامه. ومع هذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل بالنسبة لفولتير رجلاً انتهازيًّا توقف نجاحه على استغلال سذاجة أتباعه وفرض دعوته على الناس بالقوة الغاشمة ، وأنه كان كذابًا وذا نزعة عدوانية وشريرة ، وقد عقد فولتير مقارنة ظالمة بين النبي محمد وبين نبي الله عيسى عليهما السلام ، الغرض منها التقليل من شأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وقبل أن نرد على مزاعم فولتير وعلى الاتجاه الذي كان يمثله هذا الفيلسوف ينبغي أن يكون واضحًا لدينا أن الأدب الفرنسي قد اتسم في هذه

الفـترة بالكراهية الشديدة للإسلام والمسلمين ، وبالطعن الحاد في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أصاب نابليون حقًا عندما قال«لقد أساء فولتير إلى التاريخ وإلى القلب الإنســـاني «Here Voltaire had done disservice to history and to the[1] human heart وذلك لشدة هجومه على الدين. لقد خلط الفيلسوف الفرنسي بين الإسلام كقوة سياسية مسيطرة، وبين الإسلام كدين ، والذي كان فولتير يحط من شأنه ويحقره disparaging it بشكل يصل إلى حد العداء السافر والتجرد من الروح العلمية . وإن كان قد لوحظ أن الحدّة في النقد عند فولتير ضد القرآن وضد الرسول صلى الله عليه وسلم قد قلت بدرجة ما فيما بعد «the tone became more restrain-ed and nuanced» إلا أن أحكامه على الإسلام ظلت قاسية ومجحفة لوقت طويل ، وبالرغم من ظهور بعض الكتابات الأخرى في فرنسا ، والتي ألقت بعض الضوء على الإسلام ، وصححت بعض المفاهيم الخاطئة للغربيين عنه واطلع عليها بلا شك فولتير فإن حكمه على الإسلام ظل جافيًا بشكل عام ، إلا أنه تراجع عن موقفه المتشدد من الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث عاد فوصفه بأجمل الأوصاف وأبدى إعجابه الشديد به ، مما جعل نقده السابق ينحسر إلى حد كبير . لقد استطاع فولتير بعد هذه العداوة الشديدة أن يرى في الإسلام الوضوح وعدم الغموض والتعقيد ، وأنه هو الدين القادر على الوفاء بحاجات البشرية، ورأى كذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً عظيمًا أدخل الناس في دين الله دون إكراه. وأنه هوالذي وضع خطة العمل التي تحددت على أساسها معالم الشخصية الإسلامية.

ويعتبر نورمان دانيال ظهور هذا الأدب الفرنسي المعادي للإسلام هو بداية ظهور روح التحيز والعنصرية ضد المسلمين ، تلك الروح التي اتسمت بها العصور الوسطى بشكل عام . ولكن هيتشم دجيت ، يرى بخلاف دانيال أن هذه الظاهرة إنما كانت تقويمًا جديدًا للإسلام كقوة دينية أو كرؤيا بعيدة المدى والتأثير تميز بها هذا الدين واستلهم منها مبادئه وتعاليمه. ولكنني أرى أن كلا الرأيين لا تعارض بينهما ، إذ قد استمر الموقف الغربي العدائي ضد الإسلام حتى اليوم ، ولم يتغير إلا قليلاً مما يؤكد صحة رأي دانيال، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن سبل الاتصالات والمعلومات قد زادت بين الوطن الإسلامي والبلدان الغربية في العصر الحديث مما أفسح المجال أمام

(1) See Norman Daniel, Islam, Europe and Empire, Edinburgh, 1966, P.29 & Hichem Djait, Europe and Islam, University of California Press, 1985, P.176.

كثير من الأوربيين نحو فهم أفضل للإسلام ، مهما تكن درجة هذا الفهم. وهذا على أية حال يدعم من جهة أخرى وجهة نظر هيتشم في أن المطاعن التي وجهها فولتير في البداية ضد الإسلام قد فتحت الطريق أمام الغربيين لكي يتعرفوا أكثر على هذا الدين، وأن يكونوا أكثر عقلانية في تناولهم له ، بعبارة أوضح فإن ما فعله فولتير ومن نهج نهجه في الهجوم على الإسلام ، قد أضر من وجه بالعلاقة الغربية الإسلامية، ولكنه قد أفاد من وجه آخر في تقديم الإسلام للغربيين على نطاق أوسع.

وهنا لابد أن نشير إلى كتابات بولينفيللرز Boulainvilliers وعنوانها The Essai Sur les moeurs والتي حاول من خلالها أن يحلل السمات الرئيسة للإسلام ، وذلك في إطار دراسته لتاريخ الأديان ، وقد ساعدت كتابات بولينفيللرز، فولتير على أن يميز عند حكمه على الإسلام بين القرآن وما عمله الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين ما وصل إليه المسلمون فيما بعد وعبر القرون من علوم أو آراء بفعل الاجتهاد والتطور.

For Voltaire, Muhammad remains a man who played upon the credulity of his fellows and imposed his message by brute force.(١)

إنه باستعراض ما كتب عن الإسلام في المصادر الفرنسية فيما بعد نلاحظ أن نزعة العداء والحكم الجائر على الإسلام بدأت تتغير بدرجة طفيفة ، فقد لوحظ أن بعض الكتاب الفرنسيين كان يرى في الإسلام درجة من التسامح والعقلانية ، هذا في الوقت الذي كان فيه الغربيون لا يزالون منغلقين ومتعصبين .

وهكذا فإننا نلاحظ ظهور بعض النزعات الإيجابية في الكتابات الفرنسية حول الإسلام ، إلا أن السلبيات الكثيرة في هذا المجال تكاد تغطي عليها ، مما جعل صورة الإسلام في الغرب لا تزال معتمة ومشوهة فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مثل الإنسانية الأعلى في الطهر والعفاف يقدم إلى القارئ الفرنسي على أنه مؤسس الديانة الإسلامية ، وأنه - معاذ الله - كان كذابًا ودعيًّا غويًّا، وأن المسلمين مسلمون بالاسم فقط وأما جوهرهم ففارغ من كل حقيقة .

وكتعليق على كلام فولتير السابق ينبغي أن ننبه على أن الإسلام لا يقر الإباحية الجنسية مطلقًا ، بل إنه على العكس من ذلك قد جعل الزنا جريمة يعاقب عليها بالرجم في حالة الإحصان ، وبالجلد والتغريب في حالة الزاني غير المحصن . يقول تعالى على سبيل المثال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء ٣٢) .

---

(1) Ibid, P. 22.

والمراجع للآية السابقة والآية اللاحقة لهذه الآية يتبين له أن الله قد أورد النهي عن الزنى بين نهيين عن جرمين عظيمين، النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر (آية رقم٣١) وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا لسبب شرعي ردعي لوقاية المجتمع وحماية حياة الأفراد (آية رقم٣٣) . وفي سورة الفرقان (آية ٦٨) ذكر الله أن من صفات عباد الرحمن أنهم ﴿....لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبايع النساء المؤمنات .... (الممتحنة ١٢) ﴿... عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ...﴾ كما حرم الإسلام اللواط وعاقب عليه بقتل الفاعل والمفعول به ، بل وعاقب عليه أمة كاملة . يقول تعالى في القرآن على لسان النبي لوط : ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء ١٦٥- ١٧٤) وقد أرجع القرآن هذه الفاحشة إلى مجرمي قوم لوط ، يقول تعالى : ﴿... لَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ (الأعراف ٨٠- ٨١) وحرم الإسلام كذلك السحاق ، وهو استمتاع المرأة بامرأة مثلها على أي نحو كان ، وأمر بالتفريق بين الأولاد في المضاجع ، كما نهى عن كل ما يخل بالعرض أو ينال من الشرف أو يساعد على اختلاط الأنساب وإشاعة الفاحشة والفساد في المجتمع، وجعل الإسلام الزنا خروجًا على الفطرة ، وعلى قوانين الصحة البدنية والنفسية والعقلية والاجتماعية ، ولتحصين المجتمع ضد هذه الموبقات المهلكات أمر الله تعالى بغض البصر ، والتحفظ في إبداء الزينة ، وحرم في هذا الاتجاه كل ما يؤدي إلى ارتكاب الفاحشة أو يعين عليها أو يرغب فيها ويزينها للنفس كالنظر الممعن ، أو الخلوة بالمرأة الأجنبية . وفي سبيل تحقيق هذه المُثل الطيبة أمر الإسلام بالزواج وحض على التيسير في المهور وتوطئة الطريق للراغبين فيه كما أباح الزواج بأكثر من امرأة ،

إذا كـان الاقتصـار على واحدة يخشـى معـه الوقوع في المحرمـات ، والاستمتاع خارج الإطار الشرعي . وبالرغم من أن تعدد الزوجات كان شـائعًا في كل المجتمعات القديمة ولم يبتدعه الإسـلام ، فإنـه قد وضع لـه حدودًا وقيودًا وصانه بضوابـط وشروط لا بد من توفرهـا أولاً ، على أن تعـدد الزوجـات قد يكون ضرورة تمليهـا ظروف مجتمـع ما وتحتمهـا بعض الحـالات الطارئـة ، كحـالات الحروب التي تزيـد فيها عـدد الفتيات في المجتمع على عدد الرجـال ، فـالحلول الإسـلامية للعلاقـة بـين الرجل والمرأة ليس فيها تسيب وإباحية أو مراعاة لإشباع الغرائز قط وإنما فيها وقاية وراحة ، للفرد والمجتمع .

وأما زعم فولتير بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استغل سذاجة أتباعه ففرض عليهـم دعوتـه بالقوة فهذا تشـويه للتاريخ نفســه ، فلم يكن الرسـول صلـى الله عليه وسـلم قط بالمستغل أو المكـره للغير على اعتنـاق دين الله ، ولم يكن أصحابـه كذلك بالسذج ، وإنما كانوا عقلاء علماء ، وكانوا نوابغ في كل علم ، كما كان منهـم القادة العظام والذين تعلموا من رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم الحقيقي ، وتعلموا منه احـترام العقـل ، وتعلموا من كتـاب الله تعـالى ضرورة البحث والنظـر والحفـاظ على حرمة التكـاليف الشرعية والعقلية ، وعلموا كذلـك غيرهم من الأجيـال المتعاقبة حتى أفادت منهم الإنسانية كلها على مدار التاريخ .

أمـا زعمه بأنـه صلى الله عليـه وسـلم كان يكره النـاس على اعتناق دين الله فرأي خاطئ وحكم بالهوى في مسـألة حكم الله تعالى والرسول صلـى الله عليه وسلم فيها، وسجل التـاريخ أنه على العكس من زعم فولتير كـان الكفار هم الذين يكرهون الناس على الكفر ، ويمنعونهـم من الدخول في الإسـلام ، أو يجبرونهم على الخروج منـه إذا دخلـوا فيـه ، لكنهم لم يفلحوا أن يزحزحوا مسـلمًا عن دينـه ، حتى هـؤلاء الضعاف الذين لم تكن لهم قـوة تحميهم ، أو درع بشـري يقيهم ، اعتصمـوا با لله واستمسـكوا بحبل الله المتـين ، وبقوا مسـلمين برغم العنت والاضطهـاد والتعذيب الواقع بهم ، وقد فر بعضهم بدينه إلى الحبشة ثم هاجروا إلى المدينة ليبنوا أمتهم وحياتهم على الإسلام .

وفي هـذه القرينــة نشـــير إلى المـؤرخ إدوارد جيبـون صــاحب كتـاب انحطـاط الإمبراطورية الرومانيـة وسقوطها ، « Decline and fall of the Roman Empire » فقد مزج هذا المـؤرخ في كتابته عن محمـد صلى الله عليه وسـلم بين الحقيقـة والافتراء ، إذ زعم مثل سلفه من الكتاب بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان كذابًا ولكنه كان في نفـس الوقت متحمسًـا لدعوتــه ، ولذلك لم يسـتطع جيبـون أن يصل إلى نتيجـة

حاسمة، أو رأي قاطع بالنسبة للإسلام ، إذ جاءت معلوماته وآراؤه عنه غير دقيقة ، إلا أن الشيء الذي يبرز ظاهرًا للعيان في هذا الكتاب هو وصفه للإسلام على أنه دين العنف والإكراه . يتجلى هذا واضحًا من خلال تصويره للمسلم بصورة بدوي يركب حصانًا وهو يحمل في إحدى يديه سيفًا وفي الأخرى كتابًا هو القرآن مخيرًا ضحاياه بين الإثنين[1] يعني الإسلام أو القتل بحد السيف. وهذا شيء يستحيل وقوعه عقلاً وهو مصادم للواقع ، إذ كيف يمكن أن يخرج بدوي من الصحراء ويجبر هذا الخلق العظيم على اعتناق الإسلام وقبول القرآن الكريم ، ومن بين هذا الخلق أهل السابقة في الحضارة والعلوم ، كالفرس والروم وغيرهم ؛ وكيف إذا حدث هذا الإكراه مرة أن يتكرر مرات ومرات وأن يظل الناس هكذا راضخين للقوة راضين بالقهر والإذلال . بل كيف يفسر هذا المؤرخ دخول الإسلام وغلبته في مناطق لم تصل إليها أية جيوش إسلامية . كما أوضحه سير أرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية The preaching of Islam" . بل وكما لاحظه هذا المؤرخ المنصف فإن الإسلام قد انتشر بقوته الذاتية وليس بهيئة منظمة كالكنيسة ، ولا عنّ طريق العملاء المأجورين والمؤسسات والجمعيات الكثيرة التي تنظمها وتنفق عليها ببزخ الكنائس الغربية ، وبخاصة في العصر الحديث[2].

يتفق مونتسيكيو وفولتير وفولني في دعوى أن تأخر المسلمين كان سببه إخفاق حكوماتهم سياسيًا وعجز الإسلام كذلك عن الوفاء بمتطلبات الحياة[3].

هذه الأفكار غير الصحيحة صارت كالأعشاب الشائكة التي تمنع ضوء الشمس والهواء أن يصلا إلى التربة فينقيها ويقويها وإلى العقول فيصححها وينقحها . وكتعليق على وجهة النظر هذه نقول إن سقوط الدول ، وإخفاق الحكومات قد لا يكون سببه تهافت الدستور أو ضعف العقيدة أو عجز الشريعة عن الوفاء بمتطلبات البقاء وعن الإمداد بأسباب المنعة والعزة ، وبخاصة إذا كانت هذه الشريعة وافية وكافية بذاتها وسبق أن طبقت بنجاح في أماكن مختلفة وفي أزمنة مختلفة ، فالدواء وبخاصة الذي ثبتت يقينًا صلاحيته لا يمكن أن يكون سببًا لموت المريض إذا مات ، أو لزيادة مرضه

---

(1) Edward Gibbon { Decline and Fall of the Roman Empire ed. by J.B. Bury (London, 1909-1914) vol. 5 P. 332}.

(2) T.W, Arnold, The preaching of Islam, (Pakistan, 1976) pp413ff.

(3) Rw. Southern, Western Views of Islam in the middle ages (Cambridge, Missl Harvard University press 1962 P19).

إذا ما اشتدت علته إذ قد تكون هذه العوارض قد حدثت لأسباب أخرى ، قد تكون في عين الخروج عن المنهج . والإسلام دين صحيح، شامل وكامل وصالح لإقامة دولة وإحاطتها ، وبناء حضارة ورعايتها . أما ما حدث من سقوط وانهيار للمسلمين فيما بعد فإنما كان سببه الخروج عن التعاليم الإلهية والاكتفاء بإدارة شئونهم ظاهرًا بالإسلام، وباطنًا بالهوى والعسف والهوان. فلقد ساس الحكام العثمانيون مثلاً الشعوب الإسلامية بنظام الحكم المطلق ، وأهملوا ركنًا رئيسًا في السياسة الشرعية وهو مبدأ الشورى ، هذا بالإضافة إلى الفساد السياسي والاجتماعي الذي كان سائدًا في المجتمعات التي يفترض فيها أنها إسلامية ، أضف إلى ذلك ما حدث بسبب استعمار العالم الإسلامي وتمزيق أرضه وتفريق أهله . ومن الجدير بالذكر أيضًا أن نشير إلى أن فولتير لم يستبعد حدوث صحوة بين المسلمين المقهورين ، إلا أنه لم يرد هذه الصحوة إلى أسباب أو مقاصد دينية وإنما إلى أسباب مادية واقعية تتصل بالإنسان نفسه وذلك كدافع النداء الفطري العميق ، والكامن في وعي كل إنسان ، والذي يحثه على الوصول إلى وضع أفضل ، ومستوى أحسن في الحياة ، والوصول به إلى درجة أعلى في العلم والثقافة ، هذا إذا حاولت الشعوب أن تنصب حكومات أفضل تسوس أمورها ، وتضع لنفسها القوانين العادلة والأكثر عقلانية [1]. وهذا التفسير بالطبع يتسق تمامًا مع الاتجاه العام للنزعة العلمانية التي اتسمت بها حركة التنوير في أوروبا ، والتي كان من مبادئها الثورة على الدين ، وعلى القيم الراسخة ، والدعوة إلى الاعتماد الكلي على العقل وتحكيمه في كل شيء وعدم الاعتراف بأي شيء يحد من نشاطه أو سلطته.

من المصادر التي رجع إليها مكسيم رودينسون كتابات فولني Volney (١٧٥٧ - ١٨٢٠) الذي قام برحلة إلى الشرق عشية قيام الثورة الفرنسية وكنتيجة لهذه الزيارة كتب كتابه المهم «وصف مصر وسوريا» description of Egypt and Syria وقد ساعدته خبرته في الشرق أن يؤلف كتابه الثاني les ruins في هذا الكتاب الأخير قدم فولني بعض التقويمات الشاملة للإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم .

ومن أهم ما قرره هذا الكاتب الفرنسي بالنسبة لنبي الإسلام زعمه هو الآخر أن محمدًا قد نجح في تشييد إمبراطورية سياسية ودينية على حساب كهان أو ممثلي موسى وعيسى(عليهما السلام)[2] .

---

(1) Hichem, p.23f.

(2) Ibid.

وهو يسمي القرآن «قانون محمد» the law of Muhammad ، ومن مفتريات فولني أيضًا أن الله نصب محمدًا نائبًا عنه، أو راعيًا باسمه على الأرض ، وألقى بين يديه بمطلق السلطان على العالم، وأجاز له أن يخضع كل من يرفض دعوته بحد السيف .

ويقول فولني أنه يرفض «نبي الله الرحيم» الذي لم ينشر في العالم سوى عمليات القتل والاغتيال والتعصب والعنصرية والتي هي مصادمة لكل معاني العدل .

ولقد صور علماء اللاهوت المسيحي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه كان رجلاً متطلعًا وأنه لكي يحقق آماله وأهدافه الدنيوية قد سخر كل شيء في سبيل الوصول إليها ، وأهمها الوصول إلى السلطة[1] .

إن فولني يتحدث عن شخصية غريبة لا تنطبق صفاتها على شخصية النبي صلى الله عليه وسلم فإنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم قد جاء إلى العالم رحمة وسلامًا وأمنًا وعدلاً ، ولذلك فقد حقق ما عجز عنه القياصرة والأباطرة وأهل السطوة والاقتدار من الحكام ، إن هذه الأوصاف التي أطلقها فولني تنطبق على الغرب والغربيين ، سواء قبل عصر التنوير أو بعده ، أكثر ما تنطبق على الإسلام والمسلمين . وبغض النظر عن الأسباب والمقدمات التي ساعدت على ظهور وغلبة العنف والاضطهاد في العالم فإن من قتلوا في عصر النبوة لا يعدون إلا بالعشرات ، وأنه لا يمكن بحال أن يقارنوا مثلاً بمن قتلوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية بالأسلحة الحديثة والذين يربو عددهم على المائة والسبعين مليونًا أي ما يعادل سكان إيطاليا وانجلترا وفرنسا ، أو ثلثا سكان أمريكا[2] .

والقرآن عند فولني عبارة عن «نسيج غامض» و«خطب متناقضة» و«مفاهيم مضحكة وخطيرة» . لقد هاجم فولني على سبيل المقارنة ، الديانة المسيحية كذلك لعدم عقلانية عقائدها ، ولكنه من ناحية أخرى بجد الجوانب الخلقية فيها واعتبرها ديانة الرحمة والعواطف الإنسانية الراقية والأعمال الروحية الجميلة . أما الإسلام فإنه من العجيب أن يصفه بأنه ديانة تحتقر العلم ، وتحط من قدره ، ولا تقيم للأخلاق والقيم أي وزن . إن الإسلام من وجهة نظره يجر إلى المطامع ويشجع على ارتكاب الرذائل الخسيسة واتباع الغرائز الدنيا فإنه ، أي الإسلام من أجل هذا يمني الشجعان

---

(١) أنظر بحثنا – مشكلة الجمود وقضية الاجتهاد – ندوة رابطة الجامعات الإسلامية ، ١٩٩٩م .

(2) Ibid.

بجنة الخلد ويتهدد الجبناء بالنار الأبدية .

يقول نفس الكاتب : «والإسلام في كلمة هو ديانة بربرية تقوم على الأخلاق المنحطة والقيم الرخيصة»(١). ينبغي هنا أن ننبه على أن فولني لم يكن كاثوليكيًا صادقًا بل كان ناقدًا عنيفًا للكاثوليكية ، ولكنه على الأقل مع شدة نقده للعقائد النصرانية فإنه قد اعترف بسمو الأخلاق النصرانية . وهذا ما لم يفعله بالنسبة للإسلام فإنه للأسف لم ير نقطة نور في هذه الديانة بالرغم من صحة بصره وثقابة ذهنه.

إنه من الواضح أن فولني قد أعوزه السند التاريخي الأصيل والمصدر العلمي الصحيح لمعلوماته عن الإسلام ، وهو في هذا الأمر يتفق مع مكسيم رودينسون .

ويطلعنا هيتشم على نص ورد في كتاب الرحلة إلى مصر وسوريا لفولني ، وبينما هو يعبر عن انطباعاته عن الوضع السياسي في كلا البلدين ، قال فيه عن الإسلام أنه هو المسئول عن تأخر الشعبين السوري والمصري، والشعوب الإسلامية بوجه عام . وهو يزعم أن من يقرأ القرآن سوف يلاحظ خلوه من إقرار أي واجبات على الإنسان يكون مطالبًا بأدائها أو وجود أي مبدأ لنظام سياسي محدد ، أو أي فن في إدارة شئون الحكم ، إنه لم يقدم شيئًا يذكر حول الدستور أو القوانين المنظمة لحياة الناس ، وكل ما جاء في القرآن يمكن أن يلخص في أربعة أو خمسة قوانين ، هي من وجهة نظر هذا الكاتب تعدد الزوجات ، الطلاق ، الرق ، وحق الإرث لقرابات المتوفى .

ويمضي فولني في طعنه في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم حتى يقول «إن القرآن كتاب ليس فيه جمال ولا نظام ، وإن محمدًا قد استعمل فيه أسلوبًا عنيفًا عنف الداء العضال ، وملأه بعبارات التعصب المتقد». وعن محمد صلى الله عليه وسلم يقول فولني أيضا :«إن محمدًا لم يهدف إلى تنوير أحد بل إلى استعباد الآخرين، إنه لم يسع إلى تكوين أصحاب ، بل رعايا يسخرهم لتحقيق أهدافه ومآربه وهكذا... وهذا هو نص كلام فولني(٢).

Upon reflection it seems that the nature of the land has a real influence on behavior. It appears that in society, as in the wild, a country where the means of subsistence are somewhat hard to come by will have more active and industrious inhabitants than a country where nature is lavish with her gifts-there the people will be inactive and sluggish...... This would suggest the principle that people have a tendency to indolence not insofar as they live in warm countries

(1) Hichem, p.24. (2) Ibid, p27.

but we must acknowledge that there are more inclusive and significant factors here than the nature of the land, namely those social institutions called government and religion. These are what actually determine the activity or inertia of individuals and nations; and, depending upon whether they broaden or narrow the range of human needs (whether natural or redundant), extend or contract the scope of man's activities.

لقد نقد نفس الكاتب القرآن والإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والمسلمين بشكل عام ، وتناول الشخصية الإسلامية بالتحقير والحط والازدراء ، إذ وصف المسلمين بالتجرد من مشاعر الحب تجاه المرأة ، وبالاستغراق في المتعة الحسية ، وهو نفس الكلام الذي ردده مكسيم رودينسون كما سنراه في موضعه من هذا الكتاب .

وفي موضع آخر يذكر فولني أن الأرض لها تأثير شديد على سلوك الإنسان ، وهي ضمن عوامل أخرى تشكل شخصيته ومواقفه في الحياة ، وبهذا يضيف فولني عنصرًا آخر لتأخر المسلمين في منظومته النقدية العنصرية ، وهو طبيعة الأرض (القاسية) والحكومة (الظالمة) والقرآن الذي يعتبره كتابًا خطابيًّا متناقضًا[1] . مثل هذا الكلام إنما يصلح في تشخيص المرض النفسي الذي كان يعاني منه فولني نفسه، وليس في رسم معالم شخصية النبي صلى الله عليه وسلم التي تفوق في عظمتها كل حدود العظمة الإنسانية .

ولكننا لسنا هنا بصدد دراسة علاقة هذا الكلام بعلم النفس الاجتماعي ، أو العلوم السياسية ، ولكن الذي يهمنا إبرازه في هذا السياق هو أن فولني يوظف كل شيء تقع عليه عينه أو يتصوره في ذهنه أو يتخيله في وهمه للحط من شأن الإسلام ونبيه (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين ، والذي يدعو للعجب أنه صور الإسلام وكأنه عدو لدود للعلم كما سبقت الإشارة إليه ، مع أنه من الحقائق المقررة والمشتهرة أن الإسلام هو أول دين يشجع على العلم ، العلم الذي يوصل إلى معرفة الله ، وإلى معرفة أسرار الكون الذي خلقه الله وسخره للإنسان، وإلى معرفة أسرار النفس البشرية .

إن القرآن نفسه هو كتاب علم ، ومعجزة الإسلام الأولى هي العلم ، والعلم في الإسلام لا حدود له ولا حجر عليه ، وإن آيات تكريم العقل والعلم والعلماء كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم ، ولقد كان الإسلام سَبّاقًا في الدعوة إلى البحث والنظر والحض على تحليل الظواهر الكونية ،ومعرفة القواعد الثابتة والمضطردة التي تحكم النظام

(١) Ibid, p27.

الكوني ، وإلى التعرف على آثار رحمة الله في الأرض وفي الخلق ، للتوصل إلى الذخائر والأسـرار التي أودعهـا الله سـبحانه وتعـالى في باطن الأرض وفي الأنفس والآفاق .
والعلم في الإسـلام فريضـة على كل مسـلم ومسـلمة ، ووقت طلب العلم في الإسـلام يقدر بعمر الإنسـان كلـه، يقول صلى الله عليـه وسـلم «العلم فريضة علـى كل مسـلم ومسلمة».

ويقول صلى الله عليه وسـلم «اطلبوا العلم مـن المهد إلى اللحد» ويقول: «اطلبوا العلـم ولو بـالصين»[1] ، وأورده ابـن عبد الـبر القرطبي (٤٦٣ هجريـة) بهذه الزيـادة «اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» ، ويقول النبي صلى الله عليـه وسـلم : «يـوزن مداد العلماء بـدم الشـهداء يوم القيامـة»[2] ، وعن الحسـن بزيادة «فيرجح مداد العلماء» .

وعن عمـرو بن العـاص أن رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم مر بمجلسـين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه ، والآخر يتعلم أهله الفقه ويعلمونه ، فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم ،: «كلا المجلسـين على خير أحدهما أفضل من الآخر صاحبه ، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلمًا ثم أقبل فجلس معهم . وعن معاذ بن جبـل قال رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم : «العالم أمين ا لله في الأرض». وعنه أيضـا أنه قال : «تعلمـوا العلم فإن تعليمـه لله خشية ، وطلبـه عبادة ، ومذاكرته تسـبيح ، والبحث عنه جهـاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقـة ، وبذله لأهلـه قربة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة .....» [3].

فالرسول بهذا يلفت أنظـار المسلمين إلى وجوب تعلم علـوم كل الشعوب ، فالعلم يخدم الدين ، والمعرفة مـن الله وهي ترجع إليـه ، لذلك فإن من واجـب المسلمين أن يصلوا إليها وينالوها أيًا كان مصدرها البشري ، حتى لو نطق بها مخالف لهم في الدين. «فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها». «تقول المستشرقة الألمانية Sigrid Hunke زيغريد هونكة في كتابها Allahs Sonne Uber Dem Abendland Unser Arabisches) Erb شمس العرب تسطع على الغـرب)» وعلى النقيض (من هذا) تمامًـا يتساءل بولس

---

(١) انظر الإمـام أبو حـامد الغزالي، إحياء علوم الدين. (بيروت، دار الكتب العلميـة، ١٤١٢هـ - ١٩١٢م) ص١ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر وأيضًا ابن عبد البر ، جامع بيـان العلم وفضله . (القاهرة ، المكتبـة الإسلامية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م) ص ٢٦ و٦١ وما بعدها .

(٣) ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله، ص ٢٦ و٨٨ وما بعدها .

.. الرسول مقرًّا «ألم يصف الرب المعـارف الدنيوية بالغباوة ؟» ثم تقول بعده «هذان مفهومان مختلفان بل عالمان منفصلان تمامًا ، حددا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب . وبهذا اتسعت الهوّة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية المعـاصرة في أوروبـا حيث لا قيمـة لمعرفـة الدنيـا كلهـا». ثم تذكـر تعريف القديس أوغسـطينوس لمحور المعرفـة وهـو على النحو التـالي : «أمـا الـرب والروح فـإني أبغي معرفتهما . فـالبحث عـن الحقيقـة هو البحـث عن الله وهذا لا يسـتدعي معونـة من الخارج». (يعني من خارج الكتاب المقدس). وقـد نفى أوغسطينوس بشدة أن يكون هناك سـكان من البشـر على الوجـه الآخر من الأرض وذلك بحجـة أن : «الكتاب المقـدس لم يذكر مثل هذا الجنـس في سـلالة آدم» . واعتـبرت الكنيسـة القول بكرويـة الأرض كفرًا وضلالاً ، حتى أن معلم الكنيسـة لاكتـانتيوس (Lactantius (240c - 320c وهو المعلم الخـاص لكريسـبوس ابن الإمبراطور قسـطنطين أيضًـا ، يتسـاءل مستنكرًا : «هل هـذا من المعقـول ؟ أيعقـل أن يجن النـاس إلى هـذا الحد ، فيدخـل في عقولهم أن البلدان والأشـــجار تتـدلى مـن الجـــانب الآخر مـن الأرض ، وأن أقـدام النـــاس تعلو رءوسـهم؟». كانت الأرض بالنسبة لبعـض الناس في هذا الوقت عبـارة عن تل تدور حوله الشمس ما بين الشـروق والغروب ، وبالنسبة لآخرين مسطحًا تحيط به المحيطات وكانت لعنـة الكنيسة تحـل بكل من يحاول أن يفهـم أسرار الظواهر الطبيعيـة أو يحاول تفسيرها تفسيرًا علميًّـا ، حتى أن أسقف قيصرية ، واسمه أوزيبوس قد انتقد حوالي عام (٣٠٠م) مسـلك علماء الطبيعة بالأسـكندرية معللاً تخلف بلاده في هذا الصدد بقوله : «إن موقفنا هذا ليس جهلاً بالأشـياء التي تعطونها أنتم هذه القيمة ، إنما لاحتقارنا لهذه الأعمـال التي لا فائدة منها . لهذا فإننـا نشغل أنفسـنا بالتفكير فيما هو أجدى وأنفع». وقد اسـتمر مثل هذا التفكـير مسـيطرًا على العقليـة المسيحية ، فهـا هو توما الأكويني يصف المعرفـة الدنيوية بـأن موضوعاتها حقيرة . وفي عـام ١٢٠٦ م حذر مجمع رؤساء الكنائس المنعقد في باريس ، رجال الدين بشدة من قراءة كتب العلوم الطبيعية ، واعتبر ذلك خطيئـة لا تغتفر . وبرغم من أن الفرصـة كانت متاحـة للغربيين أن يترجموا تراث اليونان إلى لغتهم وقبل أن يقوم العرب بترجمته ، وبخاصة أنه في القرن السادس الميلادي كـان يوجد في الغرب كثـيرون ممن يجيدون اللغـة اليونانيـة ويسـتطيعون من ثـم الترجمة منها إلى اللغـات الأخرى ، ولكنهم لم يفعلوا وذلك لأن الفكـر الإغريقي ، كما تقول زيغريـد هونكه: «مثل للمسيحيين شبحًا ملعونـًا فلم يقتربوا منه بل حطموا جزءًا كبيرًا من تراثه وحرموا منـه البشرية . حتى أن الغـرب اضطر بعد صحوته أن يبدأ من جديد

برغم أن الحضارات القديمة الهللينية على الخصوص كانت قد وصلت في سالف أيامها إلى درجة كبيرة من الرقي»(١).

ومن الجدير بالذكر أن نقول أنه لو لم يكن العرب على المستوى العقلي والعلمي الذي يؤهلهم لنقل علوم اليونان وفهمها وتطويرها لما التفتوا إليها أصلاً ، ولما شغلوا أنفسهم بدراستها ، فقد طور العرب التراث اليوناني وحولوه من مجرد علوم نظرية ، مقصورة على مجالس الفلاسفة والحكماء وتلامذتهم إلى علوم عملية تجريبية سخرت لمصلحة المجتمعات البشرية .

وليس يقل عن هذا أهمية أن نعرف أن العرب كانوا بفضل الإسلام شعبًا مبدعًا محبا للعلم والعمران ، فلقد نشر المسلمون العلم والحضارة في بلدان لم تكن فيها أصلاً علوم ولا حضارة كأسبانيا وصقلية على سبيل المثال . كانت أسبانيا عندما دخلها المسلمون بلدًا فقيرًا ومتخلفًا من جميع الوجوه فتحولت أسبانيا بفضل الإسلام والمسلمين إلى منارة ومركز حضارة وإشعاع في العالم كله .

نظرة الرحالة الفرنسيين إلى الإسلام :

إذا ما تركنا فولني جانبًا ونظرنا في أقوال بعض الرحالة الفرنسيين من أصحاب المدرسة الرومانسية وجدنا أن تشاتو برايند chateau briand ولمرتين lamertine لوجدناهما برغم الاختلاف بينهما في وجهات النظر يتفقان مع أسلافهما في الحط من الإسلام ، فالإسلام بالنسبة للأول : «دين الوحشية ، والحكم المطلق (الدكتاتورية) والقسوة والتعصب ، وسائر الأخلاق الذميمة والتي نراها كلها مجتمعة في الشعوب الإسلامية ، والتي يبدو واضحًا من خلال نظام حياتها وتاريخها أنها أسيرة السيف ، وأن تاريخ هذه الشعوب كله مبني على البربرية والوحشية ، بل لقد هدم الإسلام الحضارة الإنسانية»(٢) .

إن تشاتو يعتبر العصر الوسيط هو قلب التراث العظيم للمسيحية ، وأنه يمثل لحظة

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوق، راجعه ووي (بيروت، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ١٤١٣ـ ١٩٩٣) ص٣٦٩ وما بعدها. وانظر أيضًا F L Cross (ed.) The Oxford Dictionary Of The Christian Church. (London. Oxford university press. 1961)pp. 777 f.

(2) Hichem P. 29.

صدق وحقيقة في التاريخ الإنساني كله[1].

أما لمرتين فقد كان أقرب إلى روح الإسلام ، وأقدر على الاعتراف بفضائله كما رآها ، فإنه يعتبر الإسلام ديانة عظيمة ويقرر أن في الإسلام نظامًا خلقيًا كاملاً ، وأن القرآن فيه ما هو عام وما هو خاص ، وهو يرى أن للإسلام دعوة عالمية صالحة لإسعاد البشرية. لقد تعاطف لمرتين مع الإسلام من موقع المفكر الحر ، ولكنه مع هذا لم يصل إلى حد اعتناق الإسلام ، لأنه كان لا يزال يوقن بتفوق النصرانية على الإسلام في جانب القيم الخلقية وبالأخص خلق الرحمة والتراحم وغير ذلك مما نظر إليه بعين واحدة إلى النصرانية ولكنه ليس من غرضنا في هذا البحث أن نتوسع في هذا الموضوع، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى قوله تعالى في وصف رسول الله بالرحمة : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧)، ويقول تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُم وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ .....﴾ (آل عمران ١٥٩) .

والذي يهمنا أن نلفت نظر القارئ إليه هنا هو أن الكتاب الفرنسيين قد طوروا نظرتهم بعض الشيء . وبخاصة بعد استقرار الدراسات الاستشراقية ، واطلاع المستشرقين على المخطوطات العربية والإسلامية المختلفة ، مما قرب المسافة ولو بعض الشيء بين موقفهم القديم والجامد ، وموقفهم الحديث والحركي من الإسلام .

هذه الكتابات التي سقنا أمثلة كافية منها ، كانت هي المصدر الذي أخذ منه رودينسون بلا شك كثيرا من آرائه ومعلوماته عن الإسلام ونبي الله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما سنبينه للقارئ في هذا الكتاب ، ونحن على يقين تام أنه لن يفوت القارئ أن يلاحظ ما بين آراء مكسيم رودينسون ، وآراء سلفه من علاقات واتفاقات.

يضاف إلى هذه المصادر الفرنسية المشار إليها الكتب اليهودية سواء المقدسة أو شبه المقدسة، ككتب العهد القديم والتلمود والأساطير اليهودية والأفكار الصهيونية .

الإسلام والمسلمون في الكتب المدرسية الفرنسية :

لو تصفحنا الكتب التي تدرس في الغرب عن الإسلام أو التي تتضمن معلومات

---

(1) Ibid.

عنه، فإننا نجدها في معظمها متحيزة بصفة عامة ، فالكتب المدرسية الفرنسية على سبيل المثال تصور الحملات الصليبية في القرن الحادي عشر على أنها كانت سبب منع المسلمين للحجاج الأوربيين عن الحج إلى بيت المقدس ، وقتلهم إياهم . وزعمهم أيضًا أن هذه الحروب إنما كانت «لتخليص قبر المسيح من أيدي المسلمين بالقوة » . لقد تجاهل أصحاب هذه التفسيرات الزائفة الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية ، والتي اعترفت بها على محمل بعض الكتب الأخرى التي كانت تدرس أيضا للطلاب الفرنسيين ، إذ صورتها هذه الكتب على أنها إنما وقعت بسبب حب المغامرة ، واكتشاف أسرار الشرق ، وأهم من ذلك كله رغبة الصليبيين في استلاب ثروات الشرق نتيجة لتفشي الجوع والفقر والظلم الاجتماعي الذي سببه الإقطاعيون في البلدان الأوربية(١).

في هذه الكتب المدرسية يُلَقّن الطلاب الفرنسيين كل شيء إيجابي عن الاستعمار ، ويُصَوَّر لهم الشعوب المستعمرة ـ بفتح الراء ـ على أنها شعوب متخلفة وسلبية ، وعلى أن الاستعمار الغربي لبلدان هذه الشعوب كان له ما يبرره . وفي نفس الوقت فقد أهمل واضعو هذه الكتب ذكر ما كان يفعله الاستعمار من إخماد حركة السكان المحليين ، ومن توطين الأجانب واستغلال الأرض والموارد والأيدي العاملة المحلية لصالح الشعوب الغربية .

وقد جاء في بعض الكتب المدرسية الفرنسية ، كتبرير للاستعمار الفرنسي ما ننقله هنا عن الكاتبة مارلين نصر : «لقد شاعت عندئذ بين الأمم حركة كبيرة نحو الاستعمار ،فالبواخر كانت في حاجة إلى قواعد في جميع القارات لتموينها ، ورجال الصناعة كانوا يبحثون عن المواد الأولية ، وكان التجار يجرون وراء العملاء ، كما أن الإرساليات كانت تسعى إلى تنصير شعوب الأرض»(٢).

وفي كتاب آخر من كتب هذه الفترة يعللّ كاتبه أو كاتبوه الاستعمار الفرنسي للجزائر على أنه كان رد فعل للقرصنة التي كان يقوم بها الجزائريون ضد التجار الفرنسيين . وينبغي أن ننبه على أن لهجة الخطاب في هذه الكتب غير لائقة عندما يذكر فيها العرب والمسلمون .

---

(١) انظر مارلين نصر : صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية. مركز الدراسات الوحدة الفرنسية ١٩٩٥) ج١ ، ص٨٤، وما عبدها .

(٢) نفس المصدر ص٩٣ .

إننا نجد الكتب التي تعرض لتاريخ فرنسا في حقبة الحروب الصليبية تعرض أسماء كثيرة من الأبطال الفرنسيين وبالمقابل فإنها تعرض ، إن عرضت أسماء عربية وإسلامية قليلة جدًا . فلقد جاء ذكر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال مرة واحدة في أحد هذه الكتب المدرسية ، التي تدرس في المرحلة الابتدائية ، «على أنه صاحب دين جديد هو الإسلام» هذه هي الإشارة الوحيدة في مثل هذا الكتاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى دعوته وفي نفس الوقت فإننا لا نجد أي إشارة إلى القائد العادل ، والبطل الشجاع صلاح الدين . وأما عبد القادر الجزائري فلم يظهر اسمه ، مجرد ظهور ، إلا مرة واحدة[1].

وفي عمل علمي له أهميته نشره مانيولا سميدي Manuela Simidei حول الاستعمار في الكتب المدرسية خلال المرحلة الاستعمارية (١٩١٩ - ١٩٦٦) انتهى المؤلف إلى أن الإسلام (دين مسخ ابتكره محمد "mohomet" الذي ادعى أنه نبي)[2].

وبالرغم من أن بعض الكتب اللاحقة قد عدلت بعض الشيء من نبرتها وتحاملها عندما اعتبرت الإسلام دين توحيد ودين عالمي ، إلا أن هذه الكتب (كتب المرحلة الثانوية) كانت متحفظة جدًا في عرض الإسلام ، بل إنها اتفقت مع كتب الجمهورية الفرنسية الثالثة على تصوير الإسلام كدين يسعى إلى تحقيق الفتوحات العسكرية . وتتفق كتب الفترتين كذلك على إبراز دور البطل الفرنسي تشارلز مارتن Charles Marten الذي وضع حدًا لتزايد انتشار الإسلام في الغرب على حساب الإسلام.[3] ويلاحظ ميجيونيو Maigueneau أن الكتب المدرسية للجمهورية الثالثة كانت تعرض الحروب الصليبية على أنها رد فعل معاكس للفتوحات الإسلامية وهذا الرأي الأخير يتسم بالعمومية وتجاهل الواقع الحقيقي والدافع الأول والأهم للحروب الصليبية كما يتبين بوضوح من سياق البحث بشكل عام.

وقد أشار بريسويرك وبيرو في دراسة لهما إلى وجود ثلاثة قوالب كبرى تنسب دائما إلى العرب والمسلمين في نص الكتب التي تناولت الحضارة الإسلامية وهي : «التعصب» «والعدوان والتوسع» «والنهب والسلب» . وفي بعض الكتب الأخرى من هذا النوع نقرأ أن العرب ذهبوا إلى الهند كغزاة وانطلقوا هناك ينهبون ويسلبون

---

(١) نفس المصدر ص٩٣ .
(٢) نفس المصدر ص٩٣ .
(٣) نفس الموضع.

السكان في مرح .

وأن الإسلام ، وبالرغم من تأخر العالم الإسلامي في مصر ، وفي شمال إفريقيا وفي الشرق الأوسط ، قد انتشر في كل مكان مستغلا ركود الشعوب الموجودة على شواطئ هذه البلدان [1] .

وقد انتقد التقرير الذي أجرته جمعية «الإسلام والغرب» والتي كانت أكثر إنصافًا من غيرها ، الطريقة النفسية التي تبناها الكتاب المدرسي الفرنسي في رسم معالم شخصية النبي صلى الله عليه وسلم حيث جاء فيه أن محمدًا «شخصية غريبة ، وطفولة تعيسة» . كما انتقد واضعو هذا التقرير في نفس الوقت سكوت الكتب المدرسية عن تفسير السرعة المذهلة التي تم بها الفتح العربي الإسلامي، الذي تحقق بسبب ظروف مناسبة ، وهذه هي عبارة التقرير «لقد فرض العرب في كل مكان ديانتهم ولغتهم على أهل البلدان التي فتحوها ، وكانت الحريات المتروكة للمسيحيين تهدف إلى تحقيق مكاسب مالية للعرب الفاتحين[2]» .

هذه الافتراءات التي حاولت تشويه الحقائق التاريخية الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم باسم علم النفس والتحليل النفسي، كانت هي المواد التي حقنت بها عقليات التلاميذ الفرنسيين ضد الإسلام والمسلمين . إن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ليست هي بالصورة التي صورها واضعو هذه الكتب ، بل هي النموذج الأمثل للإنسانية لإنها اشتملت على كل جوانب الكمال والعظمة ، في نفسها وفي الآثار والأعمال التي حققها صاحبها . إنه لا يمكن لإنسان بمفرده في هذا الوجود أن يحدث في التاريخ ، وفي الخلق ما أحدثه محمد ولا يزال يحدثه بدعوته وسيرته إلى يوم الدين.

يشير كاتب التقرير في النقطة الأخيرة منه إلى موضوع الجزية الذي فسره تفسيرًا جد خاطئ يتنافى مع مفهومها ومقصدها في الشريعة الإسلامية ، فإنه فوق أن الجزية تعتبر حلاً خلقيًا وحضاريًا عادلاً، فإنها كانت قد فرضت كمقابل للحرية وللأمان اللذين منحهما المسلمون لهؤلاء الذين فضلوا البقاء على دينهم ، هذا فضلاً عن أنها كانت تفرض بمقادير مناسبة لدخول وقدرات أهل الذمة ، وفي نفس الوقت فقد كان يعفى من أدائها رجال الدين ، وغير القادرين من أهل الذمة بصفة عامة ، هذا مع ملاحظة أن المسلمين كان يفرض عليهم على الجانب الآخر الزكاة بمختلف أنواعها

---

(١) نفس المصدر ص١١٨ .

(٢) نفس الموضع.

ومقاديرها . لم تكن الجزية إلا تنظيمًا اجتماعيًا لمجتمع متعدد الأديان لم تعرفه أوروبا إلا منذ عهد قريب . إن الإسلام لم يكره أحدًا على الدخول فيه ، ولو أن سياسة الإسلام كانت تقوم على الإكراه لما قبل المسلمون أساسًا مبدأ الجزية ولأجبروا الجميع على الدخول فيه بالقوة ، واستولوا على أموالهم وممتلكاتهم عنوة ، ولسخروهم لصالح المجتمع الجديد ، إلا أن شيئًا من ذلك لم يحدث قط ، فقد سمح المسلمون لأهل الذمة بالحرية الدينية وأبقوا على معابدهم وكنائسهم . يضاف إلى ذلك أن العرب لم يفرضوا لغتهم على الشعوب التي دخلت في الإسلام ، بل هم الذين أقبلوا عليها وتنافسوا في تعلمها لأنها لغة القرآن الذي آمنوا به وحفظوه واتبعوا ما جاء فيه ، ولو أن اللغة العربية كانت تفرض بالقوة لما تبناها أيضًا هؤلاء الذين لم يقبلوا الدخول في الإسلام وبقوا على دينهم .كالمستعربين واليهود وكثير من الغربيين .

إن الحضارة الإسلامية، تعرض كالإسلام نفسه، في هذه الكتب المدرسية على أنها تقليد للحضارات القديمة وليست ابتكارًا ولا إبداعًا . فقد جاء في بعض هذه الكتب العبارات التالية : «إن العرب وإن لم يكونوا من كبار المبتكرين إلا أنهم عرفوا كيف يستفيدون من تراث العصور القديمة وكيف يستوعبون تقاليد البلدان المختلفة ثم ينقلونها إلينا »[1] وفي فقرة من هذه الكتب نقرأ «لقد حافظ المسلمون أولاً على العلوم اليونانية القديمة » .

وقد سبق أن ذكرنا بالمثال من قبل أن العرب قد طوروا التراث اليوناني وغربلوه وأضافوا إليه الكثير من علومهم وخبراتهم ، وحولوه من مجرد نظريات وآراء إلى تجارب وعلوم تطبيقية ، ولم يكونوا فقط مجرد نقلة أو حفظة له ومع هذا لم يمنعهم اهتمامهم بالعلوم العملية وبالبحوث من حفظ القرآن والأحاديث والتعمق في العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية المختلفة .

ولقد لاحظ واضعو هذا التقرير المهم محاولة واضعي الكتب المدرسية الفرنسية إخفاء معالم الحضارة الإسلامية ، الزمانية والمكانية ، بمعنى أنهم لم يحددوا بداية مسار تلك الحضارة مما يجعلها تبدو ساكنة ، لا تأثير لها في الزمن ، وبالتالي تصبح غير جديرة بالدراسة لأنها غير متطورة ، وغير مؤثرة . وهكذا ينحى التربويون الفرنسيون حضارتنا الإسلامية الأصيلة عن محيط التاريخ الإنساني العام[2].

---

(١) نفس المصدر ص١١٩ .

(٢) نفس الموضع.

يعلق تقرير لجنة الإسلام والغرب على هذه الفقرة بقوله :« إن مثل هذا القول يقلل من شأن الفكر العربي الذي كان فكرًا حيًّا ومبدعًا». وبالإضافة إلى هذا التعليق نؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن فلاسفة المسلمين هم الذين استنقذوا الفلسفة اليونانية وحفظوها من الضياع ، وأزاحوا العداوة بينها وبين الدين ، وقدموها في ثوبها الجديد إلى العالم ،كالفارابي وابن سينا والفيلسوف الأندلسي ابن رشد وأبو بكر الرازي وغيرهم[1] .

انتهى معدو التقرير المشار إليه بخصوص الكتب المدرسية الفرنسية إلى النتائج التالية:

١- التركيز من جهة واضعي هذه الكتب على مظاهر الرفاهية والبذخ والجمال السحري في حدائق وقصور بغداد ، دون الاهتمام بالجوانب الحضارية الأصيلة أو النظام المالي الذي أمكن بواسطته توفير جانب كبير من هذه الموارد لصالح المجالات الحضرية في الدولة .

٢- النظرة التبسيطية للإسلام والتحقير لكل ما هو عربي أو إسلامي وهذا هو نفس المنهج الذي سارت عليه الكتب المدرسية الفرنسية لوقت طويل ، إن كتب هذه الفترة تتعمد محو العلاقات بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبين أهل الكتاب اليهود والنصارى .

٣- الإسلام يعني تبرير الفقر . و«ديكتاتورية الفقراء في القرآن».

٤- تصور هذه الكتب الحضارة العربية الإسلامية على أنها حضارة ميتة ، وتصور الثقافة الإسلامية كذلك على أنها ماضوية لا يوجد منها الآن إلا بعض صروح الماضي وآثاره الجميلة .

وبعد دراسة متعمقة لكتب السنتين الثانية والخامسة والتي أبدى كتابها ومصنفوها اهتمامًا خاصًا بالإسلام ، تقرر الباحثة مارلين نصر بحق أن تقديم هذه الكتب للإسلام لا يتجاوز الشكل ، فهو لا يبرز مثلا علاقة الإسلام بالديانات التوحيدية الأخرى ، ولا نظرته الفريدة إلى الله وإلى العالم .

وتعرض هذه الكتب كذلك موضوع التوسع الإسلامي والفتوحات العربية ، بمعزل عن السياق التاريخي والجيوبوليتكال العالمي الذي يفسر هذا التوسع ويضعه في إطاره

---

(١) انظر كتابنا «نصوص إسلامية في الفلسفة والأخلاق . ترجمة ودراسة» باللغة الإنجليزي (القاهرة. الفلاح. تحت الطبع).

الصحيح . أضف إلى ذلك أن أحدا من مؤلفي أو ناشري هذه الكتب لم يهتم بدراسة التطور التاريخي الفاعل للحضارة الإسلامية وعلاقتها بالحضارة الأوربية الحديثة ، ومن الملاحظ أن هذه الكتب لم تهتم بعملية الإنتاج والعمران أو الزراعة والصناعة في العالم الإسلامي المترامي الأطراف ، بل إننا نراها قد ركزت على المجتمع الحضري وتطور المدن وكأن الحضارة الإسلامية كانت فقط حضارة تبادل واستهلاك لا حضارة إنتاج وبناء (١).

وإنه لمن جمال الاعتراف بالحق أن نلفت النظر إلى أن ناشرًا فرنسيًّا مثل هاشيت يعترف بوضوح تام «بالإسهامات العلمية والثقافية للحضارة الإسلامية ، وبالنشاط الفكري للمسلمين» وبضخامة أعمال الترجمة التي قام بها المسلمون كذلك . كما أبرز هاشيت الاهتمام الكبير بالحضارة الإسلامية في أوربا في العصور الوسطى وذلك من خلال مثل هذا العنوان اللافت للنظر حقًّا ، والرائع يقينًا «أوروبا في مدرسة العرب» وتؤكد عناوين هذا الناشر المُنْصِف على أن الإسهام العربي الإسلامي في الحضارة الحديثة لم يكن مستعارًا ، أو موروثًا فقط بل كان تطويرًا وإضافة واكتشافات جديدة. وتخبرنا مارلين نصر أن النصوص والصور والوثائق في أعمال هشيت جاءت متوازنة .

أما الناشر ناثان فهو بخلاف هاشيت قد قلل من درجة الإضاءة التي سلطها على إسهامات المسلمين إلى درجة التعتيم والتحجيم (٢) وهذا الناشر نفسه يعرض موضوع التفتيت السياسي للعالم الإسلامي إلى دول مستقلة وكأنه انقسام في الدين نفسه ، فهو في مقرر السنة الثانية يعطي على سبيل المثال هذه العناوين المضللة :

١. إسلام واحد أو أكثر من إسلام .
٢. الشيعة والسنة تمديد لوحدة الإسلام .
٣. غير المسلمين .
٤. الجماعة الإسلامية وحدة وتنوع .
٥. الانقسامات الدينية (الخوارج والسنة والشيعة).
٦. مجتمع بلا مساواة . المحميون من اليهود والنصارى (يقصد أهل الذمة) المسمون في الغرب بـ the protected minorities

(١) انظر نفس المصدر ص٣٤ : ٣٧، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٢) نفس المصدر ص١٢٦ .

ولا يفوتنا أن نضيف إلى ما قلناه عن دار نشر هاشيت على سبيل المقارنة أنها اهتمت بتقديم الإسلام بطريقة إيجابية ففي مقرر السنة الثانية . تأتي هذه العناوين على سبيل المقارنة الإيجابية :

« إسهامات الحضارة الإسلامية».

« جسر بين العصور القديمة والعالم الحديث »

«إنجاز فائق في الترجمة»

«العربية لغة عالمية»

«إسهامات علمية ذات شأن في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والفلسفة والجغرافيا والتاريخ»

«فن أصيل» (يعني الفن الإسلامي)

الإسلام دين غير جبري

فريدريك الثاني حاكم صقلية أمير مسيحي مؤيد للإسلام

نبي مسموع الكلمة

السمات الأصلية للحضارة الإسلامية

غزاة بارعون

النهضة الأدبية

نحو إسلام حديث

ضد إذلال المرأة

ضد الجهل .

وقد سبق عرض بعض هذه العناوين ، وهي كلها تؤكد تغييرًا واضحًا في الاتجاه والأسلوب والنظرة إلى الحضارة الإسلامية ، ومحاولة إبراز قيمتها وتأثيرها على الطلاب والمثقفين الفرنسيين ، واستبعاد القوالب الجاهزة ووجهات النظر العشوائية عند الحكم على الإسلام والتي اتسمت بها الكتب الأخرى التي تدرس في مدارس فرنسا .

ولأن هاشيت قد أشار إلى القيصر فريدريك كمؤيد للإسلام فإنه من الضروري أن نعرف به على سبيل الاختصار . توج فريدريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠) في بالرمو وهو في الرابعة من عمره ، في نفس العام الذي توفي فيه ابن رشد في بلاط ملك مراكش (١١٩٨)، وعلى مدار حياة هذا القيصر التي دامت ستة وخمسون عامًا كان الطابع العربي غالبا على دولته ، وكان فريدريك الثاني محبًا للغة العربية وللعلماء العرب ، وممن تتلمذ عليهم من غير العرب من العلماء أمثال ميخائيل سكوتوس

الاسكتلندي Michael Scotus الذي كانت أعظم مؤهلاته أنه درس بطليطلة بأسبانيا الإسلامية على أساتذة مسلمين . فقد ساهم مايكل في ترجمة بعض الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية ، كما ترجم كتاب الحيوان لابن سينا ، وشروح ابن رشد لفلسفة أرسطو .

وكان لشروح ابن رشد تأثير بالغ على أساتذة وطلاب جامعة باريس ، كما كانت العلوم العربية تدرس في جامعات أوروبا كلها بفضل ترجمات سكوتوس ومؤلفات ليوناردو البيزي صديقه والتي قامت على أساس المعرفة العربية الإسلامية . كان فريدريك شغوفًا بالعلوم العربية ، وكان كثيرًا ما يستقبل وفود العلماء العرب في بلاطه حتى أنه عندما استقبل وفدًا من علماء دمشق ، والذين أهدوا إليه جهازًا قيمًا لرصد الكواكب وحركاتها ، أبقاهم في ضيافته لعدة شهور بغرض إكرامهم وفي نفس الوقت لكي يدربوا بعض رجاله على استعمال هذا الجهاز ، وقبل عودة الوفد إلى دمشق احتفل معهم فريدريك الثاني بعيد رأس السنة الهجرية ، وأقام لهم بهذه المناسبة وليمة ضخمة لم يعرف الغرب لها مثيلاً ، وكان فريديك الثاني يرسل بالأسئلة العلمية والفلسفية إلى علماء المسلمين في مصر وسوريا والعراق واليمن ومراكش والموصل بطلب الإجابة عليها ، وكان هذا الأسلوب غير معروف في أوروبا . وكان فريدريك الثاني يقوم بمراجعة الترجمات بنفسه حتى في أوقات الحروب (١).

وفي هذه القرينة ينبغي ألا نهمل الإشارة إلى الملك النورماندي روجر الثاني فقد كان هو الآخر يحب العرب ويقدر لهم تفوقهم العلمي ويفيد من علومهم ومعارفهم ومناهجهم ، وقد طلب هذا الملك من العلامة الإدريسي - أعظم جغرافي عربي - والذي تلقى دراسته في جامعات قرطبة الإسلامية أن يؤلف له موسوعة جغرافية شاملة عن مملكته والبلاد المجاورة لها ، مما استدعى الإدريسي أن يقيم في بالرمو خمسة عشر عامًا حتى أتم كتابه الرائع والرائد في وصف الأرض ، وهو كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » .

ويحدثنا ابن الأثير أن الملك روجر الثاني كان يكرم المسلمين ويقربهم ويمنع عنهم الإفرنج فأحبوه لدرجة أنه عندما مات ابنه الأكبر والأنبه أظهر العرب حزنهم الشديد عليه ورثاه شعراؤهم ولبست السيدات العربيات الحداد عليه لدرجة أنهن خرجن فالتففن حول القصر ومعهن خادماتهن ينشدن الرثاء في الفقيد .(٢)

---

(١) هونكه . شمس العرب تسطع على الغرب. ص٤٤٨ - ٤٥٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (بيروت - دار صادر ١٩٦٦) ج ١٠ ص١٩٨. وهونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤١٥-٤١٦.

يضاف إلى هذه الاعترافات بقيمة الحضارة الإسلامية ودورها في خدمة البشرية على تنوعها واتساعها ما قدمه بورداس ، وإن كان أقل إيجابية مما قدمه هاشيت فإنه على الأقل لم يتحامل على الإسلام ، إذ أنه لم يرد في مجموعة كتبه المدرسية أي عنوان معاد للإسلام أو المسلمين ، وللتدليل على ذلك نستعرض هذه العناوين من كتبه : «فائدة القرآن» «توسع سريع ودائم» ، «علوم على قدر كبير من التطور» ، «صناعات دقيقة» ، «يقظة الإسلام» هذه العناوين وغيرها كثير لا يتسع المقام لاستعراضها ، وكلها على أي حال تعتبر بمثابة المصابيح المضيئة في سماء العلاقات الغربية الإسلامية ، وهي من المبشرات بعلاقات أقوى وثقة أعمق بين الشعوب الإسلامية وفرنسا والغرب بصفة عامة ، وعلينا نحن أن ننميها ونطورها ، وإن كان عدد هذه المصابيح وقوتها وديمومتها للأسف لا يقوى بعد على تبديد ظلمات التعصب والانحياز ضد الإسلام والمسلمين .

وإذا كنا قد عرضنا بعض الأمثلة من عناوين الكتب المدرسية في فرنسا ، والدالة على التسامح والإنصاف نعرض بعد ذلك بعض العناوين التي تتسم بالتعصب والعداء ، والأمثلة نأخذها من كتابين صادرين عن ناثان للسنتين الخامسة والثانية والعناوين هي :

الأقليات اليهودية والمسيحية وضع دوني واضطهاد

نحو انقسام جديد للمجتمع

عالم مجزأ وما زال قويًا

تعلق مارلين نصر بوعي على مثل هذه الدعاوى بقولها : «رؤية باردة تصبح أحيانا عدائية ، تبرز عناوينها تعارضًا مزدوجًا بين الغرب والعالم الإسلامي من ناحية ، وبين الأديان التوحيدية الثلاثة من ناحية أخرى»[1]. وتضيف نفس الكاتبة قائلة : «بل وتعمل بعض العناوين الحمقاء على التشكيك في صدق الممارسة الدينية ، وفي حقيقة الوحي الإسلامي ، ولننقل هذه العناوين من ناثان لندلل على أن دعوى الصراع بين الإسلام والغرب لها تاريخ سابق على كتاب صمويل هانجنتون «*صراع الحضارات*» يقول ناثان « الصيام ممارسة دينية أم تأكيد ثقافي للذات» «محمد يقابل قسيسًا مسيحيًا شمال بلاد العرب» «محمد يضع الحجر الأسود في عباءته» «نظرة الغرب إلى العالم الإسلامي» «سوء معرفة الإسلام والخوف منه حتى القرن الخامس عشر» «تقهقر

---

(١) صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، ص١٢٩ .

الإسلام في القرن التاسع عشر» «الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية : ثلاث ديانات توحيدية لا تستطيع الوصول إلى تفاهم»(١).

وكما لاحظت مارلين نصر أن ٧٠ ٪ من عناوين هذا الناشر لها مدلولات حيادية ولكنه من اللافت للنظر خلو عناوينه من أي نبرة إيجابية تتسم بالود والثقة تجاه الإسلام والمسلمين. ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى نقطة مهمة وهي أن ناثان لا يعتمد في معلوماته عن الإسلام والمسلمين على القرآن والمصادر العربية الأصيلة ، بل على الدراسات الاستشراقية ، والوثائق الغربية بصفة عامة .

ومن ناحية أخرى ينكر ناثان على الإسلام خلق التسامح، ويصف المسلمين بالتعصب لدينهم ولغتهم وتقويمهم . ويزعم بأنهم عمدوا إلى أسلمة المسيحيين في البلدان المجاورة بالقوة . ويصرح بأن «القرآن يرفض أي دين آخر غير الإسلام» ويسعى إلى : «فرض الإسلام على غير المؤمنين بالقوة»(٢).

أما الناشر هاشيت والذي سبقت الإشارة إلى تسامحه بالمقارنة إلى معاصريه : فيقدم من وجهة نظر علمانية بالطبع حلاً لمشكلة التعصب والتسامح ، في الإسلام ، إذ قد لاحظ بحق الاختلاف في موقف الإسلام من المشركين ، وأهل الكتاب ، فقد أعطيت الشعوب المؤمنة بالمسيحية و اليهودية والزرادشتية بل والهندوسية (قياسًا) حرية البقاء على دينهم ، أما الكافرون فقد أجبرهم المسلمون على الدخول في الإسلام .

إلا أن تحليل هؤلاء المؤلفين الفرنسيين لهذه الظاهرة -أي ظاهرة انتشار الإسلام- لم يصل إلى الصواب في هذه المسألة ، إذ أنهم يقولون ، انطلاقًا من موقفهم كعلمانيين ، أن إجبار الكفار على الإيمان بالإسلام كان بغرض إقامة السلطة الدينية. يقول أحدهم «قام العرب بتخيير الكافرين بين الدخول في الإسلام أو الموت ضربًا بالسيف ، ولكنهم احترموا اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وكذلك الهندوس . فهم لم يكن همهم تحويل الناس عن دينهم ولكن فرض السلطة الإسلامية»(٣).

وقد استنكرت جمعية «الإسلام والغرب» في تقريرها ما اعتبرته توجهات ضارة مدسوسة في كتب التاريخ المدرسية في فرنسا ، هذه التوجهات تتجه نحو الدعوة إلى تمحور أوروبي حول الذات Europeocetrisme، كما ورد في هذا التقرير ما نسوقه

(١) نفس المصدر ص١٣ .
(٢) نفس المصدر ص١٣٦.
(٣) نفس المصدر ٢٥ ، ١٢٧ . ٢٩٤ .

كشــاهد على التحامل على العقلية العربيــة الإســلامية «إن العرب وإن لم يكونوا مبتكرين ذوي شـأن قد عرفوا كيف يحصلون على تركـة العالم القديم ، ويستوعبون تقاليد البلاد التي كانوا يحتلونها ثم ينقلونها ويتقلدونها». وجاء فيه كذلك «لقد كان المســلمون قبل كل شــيء هم الذين حـافظوا على العلـم الإغريقي القديم» . وقبل أن نعرض تعليق الجمعية على مثل هذا الكلام ينبغي أن نوضح أولاً : أن الإسلام لا يسعى إلى فـرض سلطة دينية وإنما إلى تعريف الناس بـالحق وفتح الطريق بينهم وبينه ، وينبغي أن يكـون واضحًـا أيضًـا أن الســلطة الإســلامية لا تفـرض إلا حيث يوجد المجتمع الإسلامي الذي ربمـا يكون من بين عناصره رعايا غير مسلمين ممن قد أقرهم الإسلام على أديانهم . أما عن تعليق الجمعية الذي أشـرنا إليـه ، فهو كما ورد بالتقرير «إن مثل هذه الأقوال تقلل من شأن الفكر العربي الذي كان فكرًا حيًا مجددًا ، وتوحي بأن الإسلام لم يكن إلا مقلدًا دون خيال خلاق»(١).

وعلى العكس من ذلك فإن العقلية العربية الإسـلامية عقلية مبدعة في جميع المجالات العلمية بـل لقد كان من فلاسـفة وعلماء المسـلمين مَنْ صفـى الفلسفة اليونانيـة ونخلها وقدمها في الزي العربي وباللسـان العربي ، وقرب بينها وبين الإسـلام وأزاح التعارض الظـاهري بينهما . وكان مـن العرب علماء في الفقـه والتاريخ والأدب والفلك والطب والهندسـة والجـبر والجغرافيا والجيولوجيـا والزراعة وكـان منهم الرحالـة ، وغير ذلك . وكـان علماء العرب هـم المتفردون بكراسـي العلوم المختلفـة في العالم ، وعنهم انتقلت العلوم العربية والإسـلامية إلى أوروبـا ، وإن أسماء الفارابي وابـن سينا وابـن رشد وابن الهيثم وابـن خلدون والغزالي وابن ماجة والإدريسـي و المقدسي وابن بطوطة واليعقوبي وابن حزم والغزالي وغيرهم من مشـاهير علماء المسلمين ليست بغريبة على الأوروبيين، لقد عرفتهم أوروبا بأسمائهم وبعلومهم ، وأفادت منهم وتتلمذت لهم لعدة قرون .

ونواصل كلامنـا عن الكتـب المدرسية الفرنسية ، فنقـول إن الإسـلام في مثل هذه الكتب ، التي تتشـكل بمقتضاهـا عقليـة الطفل الفرنسـي الذي هـو عـالم أو سياسـي المستقبل ، يصور دائمًا بطريقة سـلبية ، فهو بحسـب ما جاء في هذه الكتب دين يحض على التسـليم الأعمى ، والخضـوع القهري للإلـه . ويستعين واضعو هذه الكتب على تأكيد هذا المعنى بتفسـير كلمة «عبد» العربيـة بـ slave الإنجليزيـة و sclave الفرنسية

---

(١) نفس المصدر ص١٤٥ .

التي تفيد معنى الرق ، أما كلمة «عبد» في الاستعمال القرآني ، والتي أطلقت على الأنبياء والملائكة أيضًا كما أطلقت على عموم البشر فإنها تعني شيئًا آخر غير ما تعنيه كلمة عبد بمعنى رقيق ، ولذلك فإنها جمعت في القرآن والسنة على عباد وليس على عبيد أو رقيق ، وكلمة عباد من العبادة والتعبيد : أي تذليل طبيعة الإنسان ، كما يذلل الطريق ، ليكون صالحًا للسير عليه ، كذلك يذلل الإنسان ليكون قابلاً للهداية الربانية والمنهج الإلهي ، فكلمة عبد في الاستعمال الإسلامي ، القرآني ، والنبوي لها مدلول تربوي، ونفسي واجتماعي لا يوجد في كلمة عبد التي تجمع على عبيد .

وننتقل إلى نقطة أخرى وردت في هذه الكتب ، إنها تصف الفتوحات الإسلامية بأنها كانت غزوًا قصد به الجباية لا الهداية ، وأن المسلمين كما أشار مكسيم رودينسون نفسه قد صوروا على أنهم همج نهابون ، وأنهم يعتبرون آفة بالنسبة لأعدائهم (١) .

وقد أساءت هذه الكتب المدرسية كذلك في تفسير ظاهرة انتشار الإسلام إذ تعزى بعض هذه الكتب بالإضافة إلى ما ذكرناه من قبل ، أن سببه هو ضعف الدول التي انتشر فيها الإسلام ،وتحلل أنظمتها، وإلى شيوع البدع بين نصارى الكنائس الشرقية . ويزعمون كذلك أن الفتوحات الإسلامية كانت بمثابة الهجرة إلى وادي الهلال الخصيب طلبًا للنعيم أو الغنائم .

على أن من هذه الكتب ما تذكر أن الإسلام قد انتشر بسرعة غير معتادة لأنه كان يحترم الخصوصيات الدينية والثقافية للشعوب غير الإسلامية التي فتحها المسلمون (٢).

والملاحظ هنا أن كتّابَ هذه المقررات الدراسية قد لجأوا إلى تفسير ظاهرة انتشار الإسلام إلى عوامل سلبية خارجية وغير واقعية ، ولم يرجعها أحد منهم إلى ما في الإسلام نفسه من قوة وحيوية وواقعية .

وفي سبيل تعميق ذلك جاء في كتاب السنة الثانية (ص ٣٠٩) أن المجتمع الإسلامي لا مساواة فيه بين اليهود والنصارى والمسلمين ، وأن الأولين يعيشون في نظام أدنى من الأخيرين وأن الطوائف اليهودية والمسيحية (الأقباط في مصر) و(الموارنة في لبنان وفي أرمينيا) استطاعوا أن يحافظوا على أنفسهم بالرغم من الاضطهادات الدورية التي كان يوقعها بهم المسلمون (بورداس للسنة الثانية ٣٢٤)

(١) انظر رودينسون في ناثان ت ٢٣ للسنة الثانية ص٣٧٦، وانظر نفس المصدر السابق ص١٤٧.
(٢) نفس المصدر ص٤٩ ، ١٤٨ .

وإلى هؤلاء الكتاب الفرنسيين ترجع مثل هذه التسميات «إسلامات»، «إسلام عربي»، «وإسلام تركي»[1] .

بقيت هناك ملحوظة مهمة علقتها مارلين نصر وهي أن العملية السيميائية (الصور والخرائط) لم تكن معبرة أبدًا عن روح الإسلام أو حضارته ، كما أن نسبتها إلى الموضوعات التي في هذه الكتب عن الإسلام كانت ضئيلة للغاية وذلك بالمقارنة إلى النصرانية واليهودية أو الحضارة الغربية والاستعمار الغربي مثلاً .

وقد بينا فيما سبق خطأ مثل هذه الأحكام الجزافية على الإسلام مما يغنينا عن تكرارها هنا .

وقبل أن نختم هذا القسم من الكتاب ينبغي أن نلفت النظر إلى أنه توجد كتابات أخرى كثيرة في الهجوم المباشر على الإسلام ، وكتب أخرى تدرسه بدرجات متفاوتة من الموضوعية أو التحيز ، منها كتابات رينان وهانوتو . وقد ناقشنا وفندنا مزاعم هذين الكاتبين في بحثنا «مشكلة الجمود وقضية الاجتهاد» التي سبقت الإشارة إليه في هذا الكتاب .

---

(١) نفس المصدر ص١٥٣ .

القسم الثاني
(١)
مقدمــة رودينسون

نتنـاول في هذا القسـم كتاب محمد لمؤلفه مكسيم رودينسـون بالدراسة والتحليل . وتـتركز خطتنا هنا في ترجمة آراء الكاتب إلى اللغة العربيـة كما هي دون تدخل منا في النص ثم مناقشتها بحسـب الأصول المنهجية ، واعتمادًا علـى الحقائق التاريخية المأخوذة من مصادرهـا الأصلية المعتمدة من جمهور علماء المسـلمين ، والتي لم يستطع أن يتعامل معها رودينسون أو يدور في فلكها مما جعل كتابـه أشبه بقصة خيالية مبتورة ومبتسرة. وكمـا أشرنا إليه من قبـل فإننا سنتتبع موضوعات الكتـاب بحسب ترتيبها الذي اختاره رودينسون .

تدور مقدمة الكتاب بإيجاز حول حالة العالم قبل الإسلام . فقد صور الكاتب العالم وبالذات فـارس والروم ، أو الحضارة الرومانيـة والحضارة الفارسـية تصويرًا أدبيًا بليغًا مركزًا على وضع الإمبراطورية الرومانيـة قبل محمد صلى الله عليه وسلم وأثناء حياته ، وعلى انتشار المسيحية في أرجاء المعمورة وعلى ظهور الكنائس والأديرة في كل مكان. ويرجع الكاتب خطأ قوة الدولة الرومانيـة وعظمتها إلى شـدة تمسكها بدين المسيح ، ويقول أنهـا بفضل تمسـكها بهذه الديانـة قد تغلبت على كل ديانـات العالم القديم إلى درجـة أن تـاجرًا مصريًـا كان قـد انتهى بـه الحـال إلى أن أصبح راهبًـا نصرانيًا في آخر عمـره ، وقد عـبر هـذا الرجل عـن دهشـته العظيمـة مـن قوة الإمبراطوريـة الرومانيـة وأُبَّهتِهَاحتى أنه قال: «إن مملكة الرب يسوع المسيح قد علت على كل الممالك ، وإنني أراها وهي في وضعهـا هذا قد فاقت كل قوة عرفها العالم ، وأنها سوف تظل هكذا لا تقهر ولا تسقط أبدًا... » .

ومضى الكـاتب في وصـف الإمبراطوريـة الرومانيـة وعظمتها ، وانتشـار المسـيحية بواسطتها . حتى ختم هذا الجزء من مقدمته بكلام اقتبسه من وصف للراهبة أثيريا التي تجولت في المنطقة التي يطلق عليها الآن الشرق الأوسط ، والتي كانت واقعة تحت نفوذ الإمبراطوريـة الرومانيـة قبل أن يعتنق أهلهـا الإسـلام . تقـول الراهبـة : « إن أرض

السراسين [1](يعني المسلمين) هذا الشعب البربري المزعج الذي تعامل معه ولا بد بعض رهباننا بحكم الواقع ... »(ص٩) . ثم ينقل نفس الكاتب عن بروكوبيس أن جستين قد بنى كنيسة لأم المسيح عليهما السلام ، وقلعة ضخمة محصنة بعدة معسكرات أقيمت حولها بحيث لا يستطيع السراسين (المسلمون) أن يفكروا في بناء قاعدة في هذا المكان يمكن أن ينطلقوا منها لغزو البلاد ، وذلك لأن هذه المنطقة لم تكن في هذا الوقت آهلة بالسكان (ص ٩-١٠) إن رودينسون ينهي كلامه في هذا الجزء من مقدمته بهذه الطريقة متعمدا إثارة الرأي العام الغربي النصراني والعالمي ضد المسلمين ، الذين يصفهم بالبربرية والعنف والميل إلى التخريب والتدمير ، وبأنهم لا أيمان لهم ولا عهد ولا ذمة . وهو يحمل المسلمين مسئولية سقوط الإمبراطورية الرومانية والاستيلاء على أراضيها بالقوة ، واستلاب آثارها وذخائرها وثرواتها بالإكراه . ويزعم رودينسون أن المسلمين هم الذين اغتالوا الديانة النصرانية وأعاقوا مسيرتها ، وبالتالي فعلى الغرب النصراني أن يسترد منهم كل ما أخذوه بالقوة . هذه هي فحوى كلام الكاتب الفرنسي الماركسي إن لم تكن هي نص عباراته بالتحديد .

إنه ينفخ في رماد وينبش عن رفات في ظلمات التاريخ ليشعل نار العداوة ويؤجج أوار الصدام والنزاع بين الشعوب الإسلامية وبين الشعوب النصرانية وريثة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، كما كان يطلق عليها ؛ ويتجاهل رودينسون العوامل الطبيعية والبشرية الذاتية لسقوط الإمبراطوريات والدول والتي كتبت فيها مجلدات عديدة. إن غلبة الظلم والتعسف ، وشيوع الفساد والانحلال ، والاستبداد وقهر الشعوب بالقوة ، والإرهاب والتطرف ، والجمود الفكري والنزعة العنصرية ، والاعتماد على القوة وحدها في سياسة الشعوب والتي كانت كلها سائدة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية هي أكبر الأسباب التي عجلت بسقوطها ، سواء في وطنها الأم ، أو في مستعمراتها . لقد سقطت هذه الإمبراطورية بشكل مأساوي مثير للعجب والتأمل وليس لسقوطها تأويل مقبول أو تفسير سائغ غير ما ذكرناه ، وأنه كان لذلك عقابًا من الله تعالى ، وتمهيدا لإصلاح العالم مع ظهور دولة الإسلام وانتشار نور الله والسلام في الآفاق .

لقد تجاهل رودينسون عداوته التاريخية والتقليدية كيهودي للمسيحية ،

---

(١) كلمة سراسين Saracens هي الكلمة الإنجليزية الحديثة التي أطلقت على المسلمين ، وهي مأخوذة من الكلمة الإغريقية Saraceni والكلمة اللاتينية Sarakenoi.

وللإمبراطورية الرومانية التي كانت تمثلها ، عندما راح يثني عليها ويمجدها من حيث يحط على الإسلام والمسلمين ، ويصور النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أشبه بمجرمي الحرب ، وبالنازي .

وتجاهل رودينسون كذلك ماركسيته المعادية للأديان والتي تعتبر الدين أفيون الشعوب وسر تأخرها عندما مجد الديانة المسيحية واعتبرها هي سر بقاء ورقي الإمبراطورية الرومانية .

هذا مع أن الغرب لم يتقدم ، و لم يتحضر إلا بعد أن أدار ظهره للنصرانية ، وفصل الدين عن الدولة ، وحدد للدين ولرجال الدين منطقة محدودة لا يسمح لهم بتعديها أو تجاوزها ، إن رودينسون بدافع من صهيونيته مستعد دائما أن يقول أي شيء يراه ضارًا بالإسلام والمسلمين، دون مراعاة لمبدأ أو منطق أو حقيقة تاريخية. وهذا ما فعله هذا الكاتب العنصري في كتابه عن أطهر الطاهرين ورحمة الله للعالمين محمد صلى ا لله عليه وسلم الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن العبودية إلى الحرية، ومن الاستبداد إلى العدالة والإنصاف.

وما أشد حاجة العالم كله ، غربه وشرقه إلى الانتفاع من أخلاق هذا النبي العظيم والتشريعات التي جاء بها من عند الله ، آمن به من آمن وكفر به من كفر . إن أحدًا من علماء الغرب أو الشرق المنصفين لا ينكر أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أعظم شخصية أثرت ولا تزال تؤثر في تاريخ الإنسانية وإلى يوم الدين .

القسم الثاني
(٢)
ميــــلاد نــبي

وتحت هذا العنوان بالذات يفرغ رودينسون كثيرًا من سمومه ، ويكثف كثيرًا من طعونه وافتراءاته ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو كما سنرى لا يرعوي عن اتخاذ أي وسيلة ، يراها فعالة لينال من شخصية النبي العظيم ، فهو يطبق بعنف علم النفس المادي الإلحادي ليصل إلى تقرير فريته بأن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كانت غير سوية ، لذلك فقد كان محمد ميالاً إلى العدوان وإلى الانتقام من أعدائه ، كما كان في نفس الوقت ميالاً إلى إشباع رغباته الجنسية ، ساعياً بشتى الوسائل إلى تحقيق أبعد طموحاته عن طريق الدين من جانب ،والقوة من جانب آخر.

بعد أن ذكرنا مصادر رودينسون التي غزت اتجاهه وساعدته على نسج كتابه هذا الذي بين أيدينا على هذا النحو غير العلمي ، والمتطرف في نظرته للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام. ، وبعد أن تكلمنا عن مقدمة كتابه نتناول هنا آراء رودينسون في صاحب الدعوة عليه السلام

اختار رودينسون هذا العنوان بمكر بليغ ، إذ أن عنوانه هذا يعني أن محمداً إنما كان نبيًا مثل هؤلاء الأنبياء الكذبة الذين ظهروا في أماكن كثيرة من العالم وفي عصور مختلفة من الزمان. فمحمد هو نبي وليس النبي . إنه يشكك في صحة الأحاديث والروايات الخاصة بطفولة محمد صلى الله عليه وسلم ونشأته المبكرة ويعتبرها أساطير موضوعة وموضونة بغرض إظهار محمد صلى الله عليه وسلم في صورة المسيح عليه السلام ، وإعطائه نفس الوضع الذي كان لعيسى بن مريم (P. 48).

ولكي يؤكد رودينسون تأثير البيئة في تكوين محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وأن القرآن والإسلام إنما كانا صدى لتلك المؤثرات المادية والبشرية ، تكلم عن البيئة

التي نشأ فيها محمد صلى الله عليه وسلم في الفصل السابق (ص١-٣٧) وهو هنا يمهد لهذا الموضوع ، «ميلاد نبي» ، بنفس الفكرة . فيقول أن نوع التربية التي نشأ عليها محمد ، ونوع البيئة التي درج فيها لا يمكن بحال أن تجعله بمعزل عن ممارسة الوثنية والتأثر بها. ولتأكيد هذا المعنى الذي تخيله الكاتب فإنه يشير إلى بعض الروايات الضعيفة التي أوردها بعض المؤرخين المسلمين ، دون تمحيص ، من أنه صلى الله عليه وسلم كان قد قدم قربانًا للعزى ، أحد أصنام قريش ، ويسوق رودينسون كلامًا عزاه جولوم Guillaume إلى ابن إسحاق والذي جاء فيه أنه صلى الله عليه وسلم قد قدم لحمًا ذبح لصنم لأحد الرهبان العرب فوبخه هذا الراهب العربي الموحد ، ولم يأكل منه[1]. هذا مع أنه من المقطوع به بين المسلمين ، ومن المجمع عليه بين المؤرخين أيضًا أنه صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم قط ، ولم يقدم قربانًا لصنم البتة. ومن دراسة سيرته ونفسيته ، وتوجهاته صلى الله عليه وسلم يتبين لكل ذي لب ، أو مسكة من عقل أن النبي كان حربًا على الأصنام ، والآلهة المزعومة بكل أشكالها وصورها . فلم يحضر محمد قط محفلاً ولا مجمعًا يعظم فيه غير الله ، سواء قبل البعثة ، أو في بدايتها يعني في الوقت الذي كان يتلمس فيه الرسول صلى الله عليه وسلم كل الطرق لهداية قريش ، لقد ساومه الكفار وأغروه بكل ما تصبو إليه نفوس الطامعين ، والطامحين من زهرة الدنيا وزينتها ، ومتاعها وعَرَضِهَا ، فلم يحفل بعروضهم ولم يقبل منهم إلا أن يشهدوا بوحدانية رب العالمين وأن يعبدوه ويذروا ما هم عليه من الشرك والوثنية .

ومن حديث بحيرى الراهب ، الذي يعتبره الغربيون من قبيل الخرافات أن بحيرى لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وأدرك أنه هو نبي الزمان ، وكل زمان ، قال له فيما قال : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى - إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما فرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً: « لا تسألني باللات والعزى شيئًا فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما» . فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال له صلى الله عليه وسلم: «سلني ما بدا لك» . فجعل يسأله عن أشياء من حاله ومن نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته [2].

وعن عمار بن ياسر أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل أتيت في

---

(١) سيرة ابن هشام (بيروت، دار الجيل) ج١ص٦٦، ابن الأثير، النهايد (بيروت ـ المعارف)ج٣ ص٢٨٥.
(٢) ابن هشام سيرة، ج١ ص١٦٦، وابن الأثير ، النهاية ج٢ ص٢٨٥.

الجاهلية شيئًا حرامًا ؟ قال : لا ! وعن ابن عباس قال : «حدثتني أم أيمن قالت : كان بوانة صنمًا تحضره قريش تعظمه وتنسك له النساك ، ويحلقون رءوسهم عنده ويعكفون عنده يومًا في السنة ، وكان أبو طالب يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب ، ورأيت عماته غضبن يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن « إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا» . فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبًا فقلن «ما دهاك؟» قال: «إني أخشى أن يكون بي لمم» ، فقلن «ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك . فما الذي رأيت ؟» قال «إني كلما دنوت من صنم منها يَمَثَّلُ - يتمثل - لي رجل أبيض طويل يصيح ، وراءك وراءك يا محمد . لا تمسه ، قالت « فما عاد إلى عيد لهم حتى نبئ » . وفي رواية قال «زيد عن محمد بن عمرو فوالله ما استلم أي (محمد) صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أنزل عليه» . ومن حديث جبير ابن مطعم قال : «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على دين قومه . وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم توفيقًا من الله عز وجل له» قال البيهقي معنى قوله : «دين قومه» أي ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام و لم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائمًا »[1].

لم يتأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هو واضح من هذه الأدلة ، وغيرها كثير ، بعبادات العرب الوثنية وعاداتهم الجاهلية أما ما كان عندهم من مكارم الأخلاق ، ومبادئ دين إبراهيم ، فقد بجده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به ودعا الناس إليه . وكانت عناية الله تكلؤه وتحفظه وتصونه من أوضار وأقذار الجاهلية لما أراد الله به من كرامته ورسالته . وعندما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ الرجال كان أيضًا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقًا ، وأكرمهم حسبًا ، وألينهم عريكة ، وأبرهم جوارًا ، وأعظمهم حلمًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأعظمهم أمانًا ، وأبعدهم من الفحش والفجر وذميم الأخلاق التي تدنس الرجال ، تنزهًا وتكرمًا حتى أنه لم يعرف بين أهله إلا بالأمين وذلك لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة [2].

---

(١) ابن هشام، سيرة ج١ ص١٦٦ وما بعدها وابن الأثير النهاية، ج٢ ص٢٨٩، وشمس الدين الذهبي تاريخ الإسلام (مكتبة القدسي ١٣٦٧) ج١ ص٥٠ - ٥١) .

(٢) نفس المصادر .

دعوى المستشرق أن محمدًا كان من الحمس وأنه كان قارئًا كاتبًا :

ويزعم مكسيم رودينسون كذلك أن محمدًا كان من الحمس ، وأنه كان يشاركهم في احتفالاتهم وأنه ـ عكس ما يدعي المسلمون ـ كان يعرف القراءة والكتابة ويزعم رودينسون أن المسلمين قد بنوا وهمهم في عدم معرفة محمد بالقراءة والكتابة على تفسير خاطئ لكلمة قرآنية، يعني «النبي الأمي» (الأعراف ١٥٧ ، ١٥٨) وقبل أن نرد على هذه الفرية لا بد أن نبين أولاً : معنى الحمس ، الحمس يعني الأشداء الأقوياء ، أو المتطرفين بلغة العصر ، والحمس لهم معتقدات خاصة بهم ابتدعتها قريش إما في عام الفيل أو بعده ، إذ أنه ليس لدينا ما يرجح أحد التاريخين على الآخر . وتقوم عقيدة الحمس على أنهم ما داموا هم أولاد إبراهيم ، وأهل الحرم ، وولاة البيت ، وسكان مكة فليس لأحد من العرب من الحق مثل ما لهم ولا له مثل منزلتهم ، وعليه فقد اتفقت قريش على أنهم لا يعظمون شيئًا من الحل كما يعظمون الحرم ، لأنهم رأوا أن في هذا العمل مدعاة لاستخفاف العرب بحرمتهم إذا عظموا من الحل مثل ما يعظمون من الحرم ومن ثم تركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها . ولكنهم لا ينازعون في أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم عليه السلام . ولم يمنع الحمس غيرهم من العرب من تعظيم هذه المشاعر بل إنهم حرموها على أنفسهم فقط [1]. وقد أضاف الحمس إلى معتقداتهم أنهم استحدثوا لهم طريقة خاصة بهم في الطواف حول الكعبة إذ أوجبوا الطواف في ثياب خاصة ، وفي حالة طواف أحدهم بثياب الحل فإنه ينبغي أن يلقي الطائف بثيابه تلك ، ولا يلبسها بعد ذلك . وكانت هذه الثياب تسمى باللقى . كما أجازوا الطواف للرجال عراة [2]. هذا هو باختصار معنى الحمس وهذا هو ما كانت تفعله قريش بدافع من هذه العقيدة ، ولم يرد قط أنه صلى الله عليه وسلم شاركهم في شيء ، أو تأثر بمعتقداتهم من قريب أو من بعيد . بل إن الحمس ظلوا على حالتهم تلك حتى بعث محمد صلى الله عليه وسلم فأحكم الله له الدين وأبان له معالم الشريعة ، وشرع له سنن الحج بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ١٩٩) . الخطاب لقريش ، والناس في الآية هم العرب ، رفعهم صلى الله عليه وسلم في سنة الحج إلى عرفات والوقوف

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص١٨٤ .

(٢) نفس المصدر .

عليها والإفاضة منها . ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة» (الحديث رواه الخمسة) ومعنى الحج عرفة أي الحج الصحيح هو حج من أدرك يوم عرفة ، وأحل الله للناس ما حرمته الحمس عليهم بقوله تعالى ﴿يَابَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾ (الأعراف ٣١) .

فوضع الله تعالى بالإسلام أمر الحمس ، وما كانت قريش قد ابتدعت منه للناس .

ومما يكذب الرواية التي اعتمد عليها رودينسون واهتبل بها ما أورده ابن هشام في السيرة تحت عنوان « الرسول صلى الله عليه وسلم يخالف الحمس قبل الرسالة» وروى أنه صلى الله عليه وسلم رؤي وهو واقف على بعير له بعرفات مع الناس (يعني من غير الحمس) من بين قومه حتى يدفع معهم منها (أي ينزل من عرفات) توفيقًا من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم . وجاء في رواية أخرى أن جبير بن مطعم قال حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم واقفًا بعرفة مع الناس ، « هذا رجل أحمسي فما باله لا يقف مع الحمس ؟». ومعنى قوله رجل أحمسي يعني أنه من سكان الحرم فقط ، وليس معناه في كلام جبير أنه صلى الله عليه وسلم كان على مذهب أو عقيدة الحمس[١] . وإذا كنا قد أثبتنا بالأدلة القوية أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن من الحمس عقيدة ، ولا طريقة ، فإنه في نفس الوقت لم يتأثر قط بالجوانب السلبية لبيئته ، كما يزعم رودينسون. أما عن دعواه أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف القراءة والكتابة ، وأنه تأثر بالحركة العلمية للبيئة التي كان يعيش فيها ، فإنه لم يكن يوجد في مكة بيئة علمية يتأثر بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن معرفة القراءة والكتابة بالرائجة بين العرب حتى يمكن أن يتعلمها الرسول صلى ا لله عليه وسلم بسهولة كما يخيل الكاتب الفرنسي . ولو تعلم الرسول لكان ا لله ورسوله قد أخبرانا بذلك فالعلم والتعلم شرف وكمال ، وهو من مقتضيات العظمة في البشر ، كما أنه في نفس الوقت لا يتعارض مع الوحي فكل الأنبياء تقريبًا بعثوا قارئين كاتبين و لم يقدح ذلك في نبوتهم ، أو يخدش عصمتهم . ثم إن الله تعالى لما نفى أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد تعلم الخط قيده بقوله ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

---

(١) نفس المصدر ١٨٧ وانظر أيضًا الشوكاني ، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار (القاهرة -المكتبة التوفيقية) ج٥ ص٥٩.

الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى ٥٢). ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(العنكبوت ٤٨) . فهذا ينفي بالكلية وجود بيئة علمية ، أو دور للتعليم بمكة كما يزعم المستشرقون ، بل أن المبطل فقط هو الذي كان يشك في أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد أتى بالقرآن تأليفًا لا توقيفًا ، إبداعًا لا وحيًا . أما المنصفون فلم يقولوا بهذا لأنهم أدركوا أن كلام الله لا يشبه كلام البشر، لا علماءهم ولا عوامهم ممن تعلموا بالخبرة والاحتكاك ، القرآن كما هو واضح هو النور الذي انبثق من عين الوجود الإلهي وسار مسار النور الطبيعي إلى قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم فهو كنور الشمس ونور القمر والنجوم لا فضل لأحد في إنشائها وتسييرها ، وكالروح لا يدري أحد كيف تدب في الأجساد وتسري في الأنحاء ، ولكنه يرى آثارها شاهدة ومشهودة في الخلق وفي السيرة . وفي قرينة أمية النبي صلى الله عليه وسلم ألفت النظر إلى كتاب « محمد نبي الديانة الإسلامية » ، لكاتبه رويستون بايك Roysten Pike (لندن ١٩٦٢) والذي كان يدرس لطلبة وطالبات المدارس الإنجليزية، حيث جاء الكاتب بصورة لكتاب في قرية كتب تحتها هذه العبارة « صورة لمدرسة في القرية تشبه تلك التي كان محمد يتعلم فيه»[١] وهذا الكتاب الأخير في مجمله يحمل نفس الجراثيم التي يحملها كتاب رودينسون وكتب كثير من المستشرقين ،وتحمله كذلك مقدمات وتعليقات المترجمين الغربيين لمعاني القرآن الكريم.

وقد ذكرنا فيما سبق أن من الغربيين من أنصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلم بعظمته الفذة وحكمته الفريدة ، واعتبره النموذج الأمثل للإنسانية الذي استطاع برغم الظروف القاسية ، والقلوب المتحجرة أن يجمع العرب على التوحيد ، وأن يجعل منهم أمة تحمل دين الله إلى جميع أرجاء العالم،وأن يربط العرب بسائر شعوب العالم بصلات إنسانية وحضارية ومعرفية وثيقة بعد أن كانوا يعيشون في عزلة يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم .

رودينسون وحديث رعي الغنم :

يشير هذا الكاتب إلى حديث جابر الذي جاء فيه ؛ « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران نجتني الكباث»[٢]. فقال : «عليكم بالأسود منه فإنه أطيب»،

---

(١) انظر ص١٣ .

(٢) الكبث والكباث ، وهو الناضج من ثمر الأراك واحدته كباثة.

قلنا وكنت ترعى الغنم يا رسول الله قال : «نعم وهل من نبي إلا قد رعاها» (الحديث متفق عليه)

قال العلماء في شرح الحديث أن رعي الغنم يستلزم الحلم والشفقة والسياسة في تجميعها والسيطرة عليها ، ورعاية مصالحها وهذا في حد ذاته يعلم الصبر على سياسة الناس . قاله الكرماني وغيره في شرح الحديث(١) . لكن رودينسون يشكك في صحة هذه الرواية ويقول أنها ملفقة وموضوعة بقصد إثبات أن محمدًا كان مؤهلاً لقيادة أمة، وأنه كان يتحلى بصفات الراعي الصالح ، وغيرها من الصفات التي يراها الكاتب غير منسجمة مع شخصية النبي صلى الله عليه وسلم . فانظر إلى هذه الجراءة والتعدي على الفضيلة ، والطعن في أعظم شخصية عرفها التاريخ الإنساني منذ بداية التاريخ وحتى نهايته . إن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أول نبي وأول قائد يبني أمة عظيمة ، ويرسي قواعد إيمانية وعلمية لحضارة مزدهرة ومثمرة تتجدد مع الزمان ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . ولكن رودينسون يريد أن يشوه التاريخ ويغتال بوهمه كل قياداته التي لا تروقه في سبيل ذلك المثل المشوه الذي يحتفظ به لنفسه ، وفي سبيل ذلك القمقم الذي يعيش فيه هو ومن على شاكلته من المحتقنين بالعداوة للإسلام ونبي الإسلام .

لقد أعلن الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل أن محمدًا هو بطل التاريخ الإنساني كله وصرح برنارد شو في بني قومه بأنه لو كان محمد بيننا اليوم لاستطاع أن يحل جميع مشكلات العالم بينما هو يشرب فنجانًا من القهوة . وحديثًا وضع الكاتب الأمريكي هارت رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس أعظم مائة شخصية في تاريخ العالم وذلك لسعة وعمق وشمول تأثيره على المجتمع الإنساني بأسره في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد مماته وإلى قيام الساعة . إن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أول شخصية تبني أمة وتؤسس دينًا عالميًا لا يزال حيًا في نفوس الملايين من البشر ولايزال ينتشر بين الناس في كل مكان.

خطبة محمد المزعومة لأم هانئ وزواجه -صلى الله عليه وسلم- من السيدة خديجة ومزاعم المستشرق:

زعم رودينسون دون أي دليل أن محمدًا لم يتزوج في فترة مبكرة من عمره مثل

---

(١) الذهبي ، تاريخ الإسلام . ج١ ص٣٧.

سائر شباب العرب نظرًا لفقره الشديد ، وأنه صلى الله عليه وسلم قد طلب يد أم هانئ، بنت عمه أبي طالب كزوجة من أبيها ، ولكنه قد رفض بسبب فقره ولأن الأب كان يأمل في شاب غني لابنته .وبعد أن تزوجت أم هانئ من شخص آخر بقيت معه مدة طويلة ثم مات عنها فترملت ، وعندئذ كانت أم هانئ تتمنى أن لو عاد ابن عمها محمد فخطبها من أبيها .إلا أن محمدًا لم يبد ميلاً نحو هذا الأمر، ولكنهما وعلى أية حال قد ظلا على علاقة طيبة ، حتى أنه كان نائمًا في بيت أم هانئ في تلك الليلة التي قام فيها برحلته الليلية ، إشارة إلى حادثة الإسراء والمعراج .

"Muhammad seems to have remained a bachelor for longer than was usual among his people. The reason for this was probably poverty. He asked, It is said, Abu Talib for the hand of his cousin Umm Hani. Marriages between cousins were approved of in Beduin society ; but the suitor was rejected probably in favour of a more illustrious rival. Long afterwards Umm Hani, then widowed, would have been glad to have her cousin renew his offer, but Muhammad was no longer inclined; they remained, however on a good terms. He was sleeping in Umm Hani's the night he made his nocturnal voyage to heaven".(p49)

إن كلام رودينسون فضلاً عن أنه لا يستند إلى دليل ، حيث إن ابن إسحاق وهو أخبر بتفاصيل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لم يورد هذه الحادثة في سيرته ، فإنه يتعارض تمامًا مع ما عرف عن النبي صلى الله عليه وسلم من طهارة نفس وعفة قلب ونقاء عِرْض ، ومن بعد تام عن مواطن الشبهات . وإننا لا نعرف قط أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تقدم لخطبة أحد من النساء ورفض بسبب فقره . بل إن المعروف من السيرة النبوية أن أبا طالب كان يحب محمدًا حبًّا شديدًا ويقدمه على أولاده . هذا ولم يكن أبو طالب بالذي يفضل علي ابن أخيه أحدًا لو طلب ابن أخيه منه يد ابنته ، كما أن موازين أبي طالب في الحياة لم تكن مادية قط ، ولابد أن تكون ابنته أم هانئ كذلك ، فكيف يرفضا محمدًا لفقره ؟. جاء في السيرة النبوية ما ينبئ عن عظم نفس أبي طالب، فقد ورد أنه قد حضر ، ومعه بنو مضر عقد زواج محمد من خديجة ، فقال محدثًا عنه :

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضئضئي معد ، وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته ، وسُوَّاسَ حرمه ، وجعل لنا بيتًا محجوجًا ، وحرمًا آمنًا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به ، فإن كان في المال قل ، فإن المال ظل زائل وأمر حائل . ومحمد مَنْ قد

عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالي . وهو بعد هذا والله له نبأ عظيم وخطر جليل [1] » .

فهل كان يعجز مثل أبي طالب أن يقول مثل هذا الكلام لابنته عن محمد ؟ في حالة ما إذا كان قد تقدم ليخطبها منه ؟ وهل كانت ابنته لا تعرف قدر محمد ، ولا تستطيع أن تزنه بميزانه الراجح ؟ هذا ما لا يظنه عاقل . لقد كان محمد حريًا أن يتزوج من أعلى بيوتات العرب إلا أن الله تعالى كان قد قدر هذا الشرف العظيم ، شرف الزواج من محمد لخديجة رضي الله عنها .

وهنا ننتقل لمناقشة مزاعم رودينسون حول زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة ، فإنه يقصر زواجه صلى الله عليه وسلم منها لأسباب مادية بحتة ، فيزعم أن هذا الزواج كان بغرض الحصول على أسباب السعادة الدنيوية من الغنى والجاه والزعامة ، قائلاً إن هذا الرجل الفقير الذي كان يعمل عند الناس بالأجرة ليكسب قوت يومه بالكاد أصبح غنيًا ، وذا أهمية ، بعد زواجه من السيدة خديجة . وكأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شخصًا مهمًا قبل هذا الزواج المبارك . لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتمي إلى أعرق الأصول العربية وأعظم البيوتات القرشية التي كانت تطأطئ لهم الرءوس من هيبتهم ، وتتحدث بمكارم أخلاقهم وحسن فعالهم المجامع والركبان ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم معروفًا مشهورًا بين قومه بالصدق والأمانة والرجحان والفطانة ، في الرأي والحكم مما أهله للفصل في أكبر نزاع حدث بين زعماء كبرى القبائل العربية حول إعادة وضع الحجر الأسود في مكانه . وإن زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة في حد ذاته يعتبر دليلاً على نباهته وعلو مكانته إذ أنها ـ رضي الله عنها ـ قد رفضت من تقدموا للزواج منها من نبهاء ووجهاء العرب ، وخطبته هي نفسها لنفسها على غير ما كانت تجري عليه عادة العرب وتجري إلى اليوم . لقد كان هذا الزواج المبارك والأول ، بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بترتيب إلهي بحت ، وتقدير رباني صرف، كما كان فاتحة خير على الدنيا كلها ، لا على محمد بمفرده . هذا ولم يكن لمحمد من غنى السيدة خديجة غير ما اعتاد عليه طوال حياته من زاد قليل ، وملبس متواضع ، وأهم من ذلك ، وقبل كل ذلك ، فإن حياته صلى الله عليه وسلم لم تختلف من حيث مظاهر العيش ووجوه الإنفاق قبل الزواج ، عنها بعد الزواج . يقول رودينسون بقسوة غير لائقة بإنسان

---

(١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة، ج١ ص٢٥ - ٢٦ .

يدعي التحضر ويزعم التميز على جميع البشر أن محمدًا لم تكن لـه ميول عاطفيـة نحو السـيدة خديجـة لتقدم سـنها ، وذلك لأنه كـان يسـعى فقط للحصول على مالها ، والاستعانة بثروتهـا لا للاستمتاع بهـا ولا لحبها. ولكنـه اسـتطاع أن يمارس شـهوته الجنسية فيما بعد وهو كبير في السن ، مع نساء حريمه الكثيرات . هكذا وبهذا البهت والإطلاق اللامسـئول يجعل هذا الكـاتب محمدًا انتهازيًـا وشـهوانيًا !! . ونتسـاءل أي حريم يـا ترى كان لرسـول الله صلى الله عليـه وسـلم ؟ وهو الذي لم يخرج عن إطار أدب دعوتـه قط ، و لم يوجد لعمري هنـاك ثمة أي فـارق بين دينه ودنيـاه ، وبين قوله وعملـه . لقد كـان المسـجد هو مصلاه ومـأواه في نفس الوقـت ، ولم يكن في بيوتـه المتواضعة أي مظهر مـن مظاهر الرفاهية أو الأبهـة ، و لم يبد عليه شـيء من تلك الآثار المادية الـتي تبدو على الأغنيـاء وعشـاق الدنيا وعبيدهـا ، و لم يقل أحد قـط بأن محمدًا كان منغمسًا في الشهوات غير أعدائـه الحانقين من أمثال رودينسون الذين تجاهلوا آثار النبي صلى الله عليـه وسـلم العظيمة التي تركهـا والتي لا يمكن لإنسـان بل ولا لمجموعة عظيمـة أو أمـة كبيرة من البشـر أن تقـوم بها . لقد كـانت حياة محمـد صلى الله عليه وسـلم ومماته لله رب العالمين ، وكان وقتـه كله موجه لتأسـيس الملة والأمة ، و لم يكن لديـه فراغ حتى يملأه بما يملأ به أصحاب اللذات الحيوانية والشـهوات المستعرة أوقاتهم. لقد كان الرسـول صلى الله عليـه وسـلم يحب السيدة خديجة من كل قلبه ، أحبها وهي معـه ، وظل يحبها ويذكرها دائمًا بعد أن اختـارت جوار ربها ، وكان يحب من كانت خديجـة تحبـه ، ويـبر بمواضع قراباتهـا وبرهـا. ولقد أنجبت لـه رضي الله عنهـا البنات والبنـين وهذا في حد ذاته يدل على أنها لم تكن طاعنـة في السن ، أو عاجزة عن الوفاء بمطـالب الزوج . لكن مـا بالنـا وأمثـال رودينسـون يتطـاولون على عظمـاء البشـرية ، ويقولون فيهـم بـالإثم مـا ليس فيهـم . إن الحنق لا يـزال يشـوي أكبـادهم ، ويلفح قلوبهم. ينقـل رودينسـون بعد ذلك عن أحد المحللين النفسـيين في الغـرب قوله إن النبي صلى الله عليـه وسـلم كان قـد عُوِّض بزواجـه من السـيدة خديجـة عن حنان الأم التي فقدها صغـيرًا وتأثر بفقدها كثـيرًا في كل مراحل حياتـه وهذا هو السـبب ، من وجهة نظر هذا المحلل، الذي جعله يقبل الزواج من هذه العجوز، ويتعلق بها أشد التعلق حتى بعد موتها . رأيان متعارضـان، الأول يقول إنه صلى الله عليه وسـلم تزوج خديجة من أجل المـال والجاه . والآخر يقول إنه تزوجها من أجل أن تعوضه عن الحنان الذي فقده صغـيرًا بفقد أمه . وعلى أي حال فإن هذا التحليل الأخير وإن كان مقبولاً في ظاهره ،

إلا أنـه ينبغي أن يقيد ، ولا يطلق هكذا لأن النبي صلى الله عليـه وسـلم كـان زوجًا مثاليًـا يقوم بواجبـات الزوج كاملـة ، وكـانت حياتـه مع السيدة خديجـة رضوان الله عليهـا أبعد وأعمق من أن تكون مجـرد مصدر سلوى وعوض عن الأمومـة التي حُرِمَهَا صلى الله عليه وسلم في باكورة حياته . لقد اتخذ صلى الله عليه وسلم خديجة كزوجة لا كأم ، ولقـد كان النبي صلى الله عليـه وسـلم مثالاً للكمـال في كل مراحل حياته ، وفي أوصافه المختلفـة ، كشاب ، وكزوج ، وكـأب ، وكجد ، وكصاحب وكقائد ، وهكذا.

هذا ولم تظهر عليـه قـط أي أعراض أمراضٍ نفسـية، بل لقد كـان صلى الله عليـه وسـلم هو المثال الكامل للإنسـان سواء في طفولتـه أو في شبابه أو في شيخوخته ، ولا تزال سيرته هـي منبع الأخلاق السـليمة. والخلائق القويمـة للمسـلمين ولكل من يبتغي الفضيلة ويتمسك بالقيم النبيلة من بني الإنسان .

ونختم مناقشتنا لمزاعم مكسيم رودينسـون حول زواج رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، بنقطـة غايـة في الأهميـة وهي خاصـة بطريقتـه في الكتابـة وبمعيـاره الذي استخدمه، واختلال المعيـار دليل على اختلال الرؤى والأفكار . إن أخطاء رودينسون في هذا الكتـاب ترجع في معظمهـا وفي جوهرهـا إلى أحكامـه الماديـة المتعسـفة ، وإلى محاولـة تطبيقـه نظريـات علم النفس الماديـة والقـاصرة على « مثـال » فرد وفذ لم ولن يتكرر ، وليس على حالة أو حالات تعـامل معها علماء النفس . إن الرسول صلى الله عليه وسلم نموذج لا يتكرر في تاريخ الإنسانية ولا يمكن أن يصنف ضمن حالة أو عينة من عينات علم النفس . إن التغوير في أعمـاق القلوب لمعرفة أسرارها لابد أن يكون له سـند واضح من الواقع ودليل ظـاهر من الأفعـال والأقوال والسـلوك ، وإلا صار الأمر ضربا من الظن ، ونوعًا من التخـرص والتحايل الرخيص لتحقيق رغائب نفسية تضغط على صاحبهـا وتلح عليـه حتى تجعلـه يتنكب الطريـق وينتكس ، وحتى يكون كلامـه ضربًـا من الهذيـان والبهتـان ، مهما كـانت وسـائل تجميلـه وتزويقـه ، وهـذا هو حال مكسيم رودينسون وكتابه الذي بين أيدينا .

زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش

لم يكن ليفوت مكسيم رودينسـون أن يتناول بطريقتـه الخاصة موضوع زواج النبي

صلى الله عليه وسلم من ابنة عمته، ومطلقة مولاه زيد بن حارثة زينب بنت جحش.

وتمشيًا مع خطته العامة في تناول السيرة الطاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ومع التيار الغربي العام الذي استقى منه معلوماته .

فإنه يصور هذا الزواج بصورة تتنافى مع العصمة النبوية ، إذ يزعم أنه قد تم نتيجة خطة وضعها محمد ، وأن الآيات القرآنية التي نزلت بشأنه إنما كتبها بالتالي محمد نفسه ليبرر بها فعلته . هذا الفهم الخاطئ للسيرة النبوية إنما يدين كاتبه ويظهر سوء نيته تجاه أعظم عظماء التاريخ محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان نموذجا للعفة ومثلا أعلى للفضيلة .(ص ٢٠٥ - ٢٠٨)(١) .

إن الآيات الخاصة بهذا الزواج الإلهي المبارك كما جاءت في سورة الأحزاب قد وردت في سياق قرآني يتحدث عن الفضيلة والعفة . ولكي نوضح هذه النقطة نعرض أولا الفقرة القرآنية التي تتحدث عن الموضوع الذي بين أيدينا .

يقول تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا(٣٦)وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً(٣٧)مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾(الأحزاب ٣٦-٣٨) .

وقبل أن نعلق على هذه الآيات ننظر أولاً في الآية السابقة عليها، وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. والآية اللاحقة وهي: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ .

---

(1) See also Thomas Patrick Hughes, (New Delhi, Cosmo publication, 1978) pp.378f.

علما بأن الآيات التي تلي هـذه الآية الأخيرة تتحدث كذلـك عن رسول ا لله صلى الله عليه وسلم من ناحية عصمته ونبوته وخاتميته للأنبياء .

وفي نفس السياق يصف الله تعالى محمدًا بالأوصاف الخلقية الجميلة بقوله تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٤٥)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(٤٦)وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا(٤٧)وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (الآيات ٤٥ : ٤٨).

وهذا السياق القرآني في حد ذاته يبين بجلاء أن الآيات الخاصة بزواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب مطلقة زيد بن حارثـة ، تأخذ وضعها الطبيعي في مجموع آيات السورة ، كما أنها في نفس الوقت تبين بوضوح تام أنه صلى ا لله عليه وسلم لم يتزوج بدافع الشهوة ، وإنما امتثالاً للأمر الإلهي ، وإنه من ثم لم يخرج بهذا الزواج عن إطار الشرع الذي جاء بـه ، أو يعدل بنفسه عن حدود المثل الأعلى الذي جسده ، وتمسك به كل التمسك ، في كل أقواله وأفعاله .ولم يعرف عن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قط في حياته كلها بأنه وقف موقفًا فيه شبهة بالنسبة للنساء ، لا قبل ولا بعد زواجه .

والموضوع الذي يطعن فيه رودينسون يتلخص في أن النبي صلى ا لله عليه وسلم زوج بنت عمته زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة ، بعد أن أنعم عليه بالعتق من الرق ، وقد كان زيد سيدًا كبير الشأن عظيم القدر محببًا إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم، إلى درجة أنه صلى الله عليه وسلم كان يسميه «الحِب» ويسمي ابنه أسامة «الحِب بن الحِب »ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة في الزواج منها لتزوجها بكرًا قبل أن يزوجها لزيد ، ولكن الله تعالى أراد لهذا الأمر أن يتم على هذا النحو لغاية تشريعية ، وذلك لإبطال عادة التبني ولإثبات حكم شرعي هو جواز زواج مطلقة متبني الرجل دون حرج .

لم يمض على زواج زيد من زينب إلا نحو عام ، حتى دب الخلاف بينهما فجاء زيد يشكو زوجته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ ، مع أن الله تعالى كان قد أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بطلاق زينب من زيد ، وبأنه تعالى سيزوجها له صلى الله عليه وسلم ، قضاء من الله تعالى . ولذلك يقول الله بعد العبارة السابقة مباشرة

﴿..وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّـهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ..﴾(٣٧) خشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبر بخبر السماء بشأن زواجه من زينب مخافة طعن الأعداء ، حتى عاتبه الله تعالى وأنزل عليه في ذلك قرآنًا بلغه النبي صلى الله عليه وسلم للناس لأنه صار متأكدًا بعد ذلك أن هذا كان أمرًا من الله تعالى له .

روى ابن جرير عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « لو كتم محمد صلى الله عليه وسلم شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ » .

لقد عرف زيد رضي الله عنه الحكمة في زواجه من بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن طلاقه منها ثم من زواجها، بعد انقضاء عدتها ، من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان زيد هو الذي أخبر زينب بنبأ زواج النبي صلى الله عليه وسلم منها ، وذلك بتكليف من النبي صلى الله عليه وسلم له .

لقد كان هذا الزواج إذن زواجًا لا دخل فيه لشهوة أو لرغبة شخصية وإنما كان زواجًا إلهيًا قد تم لغاية تشريعية وبالتالي فإنه ينبغي علينا ، عند تناولنا له ، أن نضعه في سياقه الصحيح ، وأن نفهمه في إطار السيرة الكلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقوال أصحابه وأتباعه لا أعدائه وبالذات فيما يخص هذا الجانب من حياته صلى الله عليه وسلم.

دراسة نفسية تحليلية خاطئة لشخصية الرسول :

يزعم رودينسون بالإضافة إلى ما سبق أن محمدًا لم يرض بنوع تلك الحياة الرتيبة المملة التي كان يعيشها ، وأنه بالرغم من غناه وتحسن حالته المادية بعد الزواج من خديجة ، كان لا يزال قلقًا ومتوترًا ، ولا يكاد يستقر على حال ، وذلك لأنه كان يسعى دائمًا للوصول إلي شيء أهم وأسمى مما كان عليه ، وهو الصعود إلى رتبة تجعله فوق الجميع . ويستعمل رودينسون علم النفس الغربي اللا ديني ليرسم لمحمد صلى الله عليه وسلم صورة تحتوي على جميع الألوان والأصباغ الخداعة التي أعدت سلفًا لتخدم غرضه . يقول :

«إن محمدًا كان يجمع في يده كل أسباب السعادة، ولكنه بالرغم من هذا كان كئيبًا وغير سعيد . وذلك لأن السعادة بحدودها المعروفة كانت بعيدة عنه لأنه كان

يعـاني من القلق والتوتر باستمرار ، وإن شخصية كشـخصية محمد لم تكن لتتقبل هذه السعادة بهدوء أو تتخلى عن الأشياء التي اعتـادت عليها بسهولة ؛ وذلك لأن السعادة المعروفـة لدينا لم تخلـق لهؤلاء الذين ينظرون إلى أبعـد مما هـم عليـه بالفعل ، أو مـا هو بأيديهـم في الواقـع ونفس الأمر. إن نفوس مثل هـذا الصنف من البشـر لا تكاد تسـتقر على حال، ومهما أوتيت من أسباب السعادة فإنها تظل كئيبة وغير سعيدة» (ص٥٣-٥٤).

هذا التحليل بالطبع يرمي إلى القول بأن شـخصية النبي صلى ا لله عليه وسلم كانت قلقة ومتوترة وغـير سـعيدة ، يعني بتعبير علمـاء النفس شـخصية غير سـوية . ويضيف رودينسون إلى هذه الافتراءات قوله :

«وإذا كـانت أسباب الكآبـة والاضطـراب اللتان أحاطتا بحياة محمد مجهولة لدينا (يعني لدى الغربيـين) فإنه يمكننـا أن نتلمس الطريق إلى معرفتهـا ، إذ أنـه بالإضافة إلى انهماكه التام في التفـكير في المستقبل فإنه كـان يعـاني نفسيًا بشدة وذلك بسبب فقد الولد ، وقد مثلت له هذه المشـكلة النفسية عقدة في حياتـه ، فقد كان أعداؤه يسمونه بالمقطوع أو الأبتر».

أسـاء الكاتب الأدب مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم حين استعمل هذا التعبير «محمد الأبـتر» وبخاصة أنـه ترجم كلمـة «أبتر» العربيـة بالكلمـة الإنجليزية Mutilated، والتي تفيد تمزيق الجسم أو قطع عضو منه لتشويهه وتفيد الكلمة كذلك التمثيل بالجثة، وهـذا بعيد كل البعد عـن المعنى المقصود من اللفظـة . فقد ترجمـت كلمـة «أبتر» على سـبيل المثـال إلى childless في ترجمـة سـيل وداود ، وإلى without posterity في ترجمـة بيكثـال، على أن عبد الله يوسف علي وأربري وآخرين قد ترجموا كلمة «الأبـتر» بـ cut off، ومما ينبغـي ملاحظتـه أن القرآن لم يذكر مقالـة هـذا المبغض يعني وصفـه للنبي بالأبـتر ، أي مقطوع الذكر بانقطـاع النسـل ، وإنما ضمنهـا الله في رده عليـه بقوله : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر ٣) ولكي يتضح خطـأ مكسيم رودينسـون ، نورد كلام ابن كثير في تفسـير هذه الآيـة ، يقول في معنـى قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي إن مبغضك يـامحمد ، ومبغض مـا جئـت بـه من الهدى والحـق ، والبرهان الساطع ، والنور المبين هو «الأبتر» الأقل الأذل المنقطع ذكره ، قال ابن عباس ومجاهد: « نزلت في العـاص بن وائل الـذي كـان يقول ، إذا ذكر رسـول ا لله صلى ا لله عليـه وسـلم : دعوه فإنـه رجل أبـتر لا عقب لـه ، فإذا هلك انقطـع ذكره ، فأنزل ا لله هذه

السورة ،وقيل نزلت في عقبة ابن أبي معيط ، وقيل في أبي لهب ، وذلك حين مات ابن لرسول الله ، فذهب أبو لهب إلى المشركين ، فقال بتر محمد الليلة ، وقال ابن عباس نزلت في أبي جهل . والقول يعم جميع من اتصف بالشنائة لرسول الله من الذين قالوا حين مات أبناء رسول الله بتر محمد إذ توهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، على جاري عادتهم «وحاشا وكلا»، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرًا على دوام الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد...»[1] .

وفي سبب نزول سورة الكوثر قال ابن إسحاق : «وكان العاص بن وائل السهمي - فيما بلغني - إذا ذكر رسول الله قال دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه فأنزل الله في ذلك ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (أي) ما هو خير لك من الدنيا وما فيها . و«الكوثر» «الشيء العظيم »[2]. ورد القرآن على هذا الشانئ بقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ والكوثر هنا بمعنى الأمة الكثيرة والشعوب المتعاظمة التي لا تقاس بها الأسرة أو العائلة أو القبيلة أو الشعب. وقد يعني الكوثر الحوض أو النهر العظيم الذي سيعطاه رسول الله يوم القيامة. والذي سيرد عليه كل المحظوظين ليشربوا منه ويرووا ، وقد يعني الكوثر النبوة والقرآن وثواب الآخرة والخير الكثير .

ويسيئ رودينسون الأدب مرة أخرى مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع القرآن ومع جبريل عليه السلام ، بل ومع الله تبارك وتعالى إذ يقول :«بينما كان محمد يمشي في الطريق سمع صوتًا من السماء يعلن على سمعه هذه السطور الانتقامية الحاقدة» إنا أعطيناك الكوثر .. إلخ . «ثم يزعم أن عجز السيدة خديجة عن إنجاب الأولاد لمحمد قد سبب له كراهية شديدة لهذه الزوجة الذكية التي لم يستطع أن يتزوج عليها في حياتها وذلك لأنها كانت قد اشترطت عليه هذا الشيئ ولا بد ، حيث إنها كانت في وضع أقوى يؤهلها لإملاء مثل هذا الشرط على محمد . وفي قرينة زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضي الله عنها ينقل رودينسون عن أميانس والذي نقل هو بدوره عن الحبر ناثان قوله إنه :

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ج٣، ص٦٨٤.
(٢) نفس المصدر وسيرة ابن هشام ج١، ص١٩٠.

«لا يوجد مكـان في العالم تتغلب فيـه النزعة الطبيعيـة إلى ممارسـة أعمال الزنا على كل النوازع إلا بين العرب ، وكما أنه لم يكن هناك إمبراطورية أقوى من فارس ، أو دولـة أغنى من روما ، أو بلـدا أكثر مهارة في السـحر من مصر ، فإنـه لا توجد أمة كذلك أشد ميلاً إلى ممارسة الزنا من العرب» .

ثم يضيف قائلاً:

«إنـه إذا كانت نسبة عمليـات الزنا في العالم من عشـرة فإن العرب يختصون منها بتسع ثم يقسم الواحد المتبقي على جميع أمم العالم» (P.54)

أرأيت أبعد من هذا غورًا في الفحش والهجر . لقـد كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم ولا يزال هـو المثل الأعلى للإنسـانية فقد سمـاه الله تعـالى في القـرآن بالرحمـة وبالسراج المنير وقال تعالى عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم ٤) أورد البخاري في بـاب المناقب قال عـن قتيبة بن سـعيد عن يعقـوب عن عبد الرحمن عن عمرو ، عن سعيد المقبري عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا حتى كنت من القرن الذي كنت منه» .

وعن عبد الله بـن عمرو رضي الله عنهما قال « لم يكن النبي صلـى الله عليه وسلم فاحشـا ولا متفحشًا وكـان يقول : « إن من خيـاركم أحسـنكم أخلاقًا »» البخاري مناقب .

ولقد كان حياؤه صلى الله عليه وسلم يمنعه من مثل ما يزعمه رودينسون وأشياعه. فعن أبي سـعيد الخدري رضي الله عنه قـال : «كان رسول الله صلـى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء في خدرها » البخاري مناقب .

ومن دعائه صلى الله عليه وسـلم ما رواه قطبـة بن مالك رضـي الله عنه ، قال : كـان النبي صلى الله عليه وسـلم يقول : «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال والأهواء» الترمذي وقال حديث حسن .

وعن شَـكَلْ بن حميد رضي الله عنه قال : (قلت يـا رسول الله علمني دعاء قال : قل : « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ، ومن شر بصري ، ومن شر لساني ، ومن شر قلبي ، ومن شر منهي عنه».) أبو داود ، والترمذي وقال حديث حسن .

ونحـن نعف هنـا عن ذكـر أخبـار الزنـا وارتكاب الفواحـش الظـاهرة والباطنـة التي وضعتهـا أيدي الآثمين في كتب التـوراة وكتب الأنبيـاء التي يبـاهى بهـا ويروج لهـا

رودينسون وأمثاله . يستمر هذا الكاتب في الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الإطار غير الخلقي الذي يتنافى تمامًا مع شخصيته صلى الله عليه وسلم، إذ يتحدث عنه مرة أخرى وبإسهاب، في قرينة واحدة مع تجار مكة ومياسيرها الذين انغمسوا في الشهوات والملذات ، ليوحي بذلك للقارئ بأنه كان من الطبيعي جدًّا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يعمل بمثل عمل أهل مكة ، لأنه كان تاجرًا وموسرًا مثلهم . ولأن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لم تسجل قط أي تهمة أو شبهة في هذا المجال ، ولأن حياته صلى الله عليه وسلم مع السيدة خديجة قد اتسمت بالحب الوافر ، والود الغامر ، والوفاء النادر ، فإن الكاتب يزعم أن محمدًا كان يزني على الأقل بعينه لأن السيدة خديجة لم تستطع أن تشبع غرائزه الجنسية يقول: «لقد قاوم محمد الإغراءات الجنسية ، ولكننا لا نعرف إلى أي مدى كانت مقاومته ، وهل كان من السهل عليه أن يقاوم أم لا ؟ إلا أننا الآن نعرف بيقين مدى ما تكبده محمد من معاناة وإحباط في سبيل مقاومة الشهوات» . هذا هو السبب الثاني الذي يذكره المؤلف ليدلل به على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان تعيسًا وبئيسًا . إنه وبدون حياء قد أخضع حياة أطهر الخلق وأجل الناس لتحليلات سيجموند فرويد النفساني اليهودي المادي الملحد ، الذي جعل الحياة، كل الحياة، مجرد لذة وشهوة ، وجعل الجنس هو الغاية العليا من وراء الخلق ، وصور الجنس على أنه هو مصدر العبقرية والإبداع ، وأنه هو المحرك الأول والحاسم لجميع أنشطة الإنسان ، حتى الأم وهي ترضع طفلها تسيطر عليها تلك اللذة الجنسية العارمة[1]. إن كل مشكلة عند هؤلاء الغربيين الماديين مردها إلى الجنس ، وكل عقدة عندهم لا تحل إلا عن طريق ممارسة الجنس ، والانطلاق والحرية الفوضوية. وهذا التفسير لنعمة الجنس تفسير شاذ مبني على رؤى وإحساسات شخصية ، وأحكام وإسقاطات عندية ، ليست موضوعية ولا علمية بحال . إن الغرب بشكل عام يعاني من الكبت والعقد النفسية والشذوذ الجنسي بأنواعه المختلفة أكثر من غيره من الشعوب الأخرى ، هذا بالرغم من أن الحرية الجنسية لا حدود لها ، ولا قيود عليها عندهم، ولو أنصف علماء النفس الغربيين لأعلنوا بشجاعة أن الجنس غير المنضبط والمنفلت من زمام القيم والأخلاق هو سبب الكارثة ، وهو مجلبة الكبت ،

---

(1) The status of Women From the Islamic Perspective with a Critical study of the Draft Platform for Action for the fourth World Conference on Women (Beijing, China, 1995) Cairo, al Matbaa al - Islamiyya al Haditha, 1416-1996, pp.9ff.

وهو السبب الكامن من وراء العقد والأمراض النفسية والبدنية الخطيرة كذلك . وهو أيضًا من أكبر أسباب الكوارث الاجتماعية التي يعاني منها أهل العصر .

إن العفة هي مصدر العبقرية والإبداع ، والسواء والاعتدال النفسي وليس الجنس كما يزعم علماء النفس الماديين الغربيين . وإن التاريخ الإنساني والحضارة الإنسانية والقيم الفاضلة لم تشيدها إلا أيدي فضلاء البشر . ولو أنصف علم النفس الغربي لعدل من سيرته وطريقته واتجه الوجهة الصحيحة وعدل من منهجه ومنطلقاته وغاياته ليثبت عكس ما زعمه رودينسون وأشياعه ؛ أن محمدًا بالتحليل النفسي هو أعظم شخصية إنسانية عرفها التاريخ ، وأنه نموذج للشخصية السوية ، وللإنسان الكامل بكل المعايير. ولا ضير فقد وجد من بين علماء الغرب من قرر ذلك بشجاعة وإخلاص مثل توماس كارلايل وبيرنارد شو وهارت وغيرهم كما أشرنا إليه من قبل .

ذكرنا فيما سبق أن مكسيم رودينسون قد طعن في زواج النبي من السيدة زينب بنت جحش الأسدية بنت عمته أميمة التي تزوجها صلى الله عليه وسلم بأمر ا لله بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة .

وذكرنا أيضًا أنه اعتمد في طعنه على روايات ضعيفة بنى عليها آراء تقدح في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتصوره بصورة الرجل الشهواني الذي لا يتورع عن تطليق زوجة مولاه ليتزوجها هو من بعده ، ثم يدعي بعد ذلك أن القرآن نزل عليه يأمره بهذا الزواج، بل إنه ليزعم أكثر من ذلك أن ا لله قد عاتبه لأنه كان قد أخفى أمر زواجه من زينب، فمحمد إذن رجل شهواني وهو في نفس الوقت يزعم أن الله قد أنزل عليه قرآنًا يبرر به تصرفه هذا.

حاول مكسيم أن يخفف من حدة الهجوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله إنه يشك في أن محمدًا قد لفق هذا الموقف، ولكنه على أي حال ظل يعاني منه نفسيًّا.

التفسير الأسطوري لحادثة شق الصدر :

بعد أن قدم الكاتب هذا التحليل النفسي المبني على محض توهمات ، ومجرد تخمينات ينتقل ليتعامل مع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى بمعاييره الغربية ، وفي إطار البيئة التي عاش فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر بناءً على تفريعه

السابق، السبب الثالث في عدم شعور محمد بالسعادة ، يعني السعادة التي يفهمها رودينسون وحده، يقول :

« إن محمدًا قد لجأ إلى الاهتمام بالمسألة الدينية لأنه لم يكن لديه القدرة على العمل في غيرها ، في هذه المرحلة من حياته ، إذ أن كفار قريش قد جمعوا كل أسباب القوة في أيديهم وكان محمد على الجانب الآخر يعتقد أنه أفضل رجل في مكة ، وأنه لا يوجد فيها من الرجال من يتفوق عليه ؛ وأنه من أجل إظهار محمد في أحسن صورة قد لفقت له أسطورة شق الصدر التي جاءت في كتب السيرة . إن محمدًا كان يعتقد في طفولته ما كان يعتقده السحرة والكهنة في شمال ووسط آسيا ، وسحرة استراليا أيضا، من أنهم أثناء تلقيهم التنزلات أو أثناء تأديتهم للشعائر والصلوات المخصوصة ، كانوا يشعرون أن روحًا قد أخذت أعضاءهم الداخلية منهم ، ووضعت مكانها أعضاء أخرى أحسن منها . وربما كان هذا هو السبب الذي جعل محمدًا بالتأكيد يعاني من بعض الأزمات من هذا النوع في سن المراهقة ، وهذا الشيء نفسه هو الذي جعل أعداء محمد من النصارى يزعمون أنه كان مصابًا بداء الصرع ، وإذا صح هذا الزعم فإن صرع محمد كان معتدلاً فلم يمثل خطورة عليه» (P56) .

ويقرر رودينسون أن حالة محمد العضوية والنفسية إنما هي من نوع ما كان عليه كثير من المتصوفة الباطنية، وهذا تشخيص مغلوط جملة وتفصيلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ساحراً ولا كاهنًا ولا صوفيًا من أهل الباطن ، بل كان رجلاً ربانيًا زاهدًا مقبلاً على الله تعالى سواء قبل الرسالة أو بعدها ، وقد عصمه الله من آفات السحرة والكهنة والمشعوذة ، ومن رعونات أهل الباطن والمتصوفة . ثم إن حياته صلى الله عليه وسلم وما تركه من عظيم الآثار المادية والمعنوية ، والتي غيرت وجه ونظام العالم كله ، والتي لا تزال باقية ومؤثرة ، وقوية قوة الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء . وكل هذا ما كان له أن يتحقق لو لم يكن محمد رسول الله حقا وخاتم الأنبياء والمرسلين صدقًا ، فلسنا نعرف ساحرًا أو كاهنًا ، أو رجلاً مصروعًا قد وعي التاريخ ووعاه التاريخ كما هو الحال بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولسنا نجد كذلك رجلاً قد تبوأ مقعد القيادة العامة للبشرية كمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجد قبل محمد رجلاً ، نبيًا كان أو عالمًا أو قائدًا قد بنى حضارة على الإيمان بالله وعلى الدين ، وأنشأ أمة دينية ومدنية قوية ومستمرة من بعده كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم .

إن رودينسون يـأبى إلا أن يطبق محفوظاته من علـم النفس الغربي المادي على محمد عندما يصفـه خطأ بالتمرد على بيئتـه ، المتحدي لها ، وأنه انتصـر عليها في النهاية لغاية في نفسـه. فالمسـألة من وجهـة نظر هذا الكاتب الماركسـي كـانت مجرد تحد مادي بين محمد والبيئـة ، ومحض صراع جدلي بين محمد والظروف التي عاشها ، وبالتالي فلا مجال للديـن ولا للوحي ، ولا للعصمـة فيما فعلـه النبي صلـى الله عليه وسـلم . وهذا افتراء وتشـويه متعمد لحقـائق التاريخ وواقع الدعوة الإسـلامية والسـيرة النبوية المطهرة في آن واحد .

اتهام محمد بالشذوذ النفسي وبالانتحال من كتب اليهود والنصارى وعقائد الوثنيين والرهبان :

يصنف الكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجرأة عجيبة ضمن :

«هـؤلاء الأشـخاص غـير الأسـوياء ، الذين يعيشـون في وهـم الاتصـال بالآلهـة والأرواح، وبالتـالي يعيشـون شبه منفصلين عن الواقـع العام للنـاس فهم يتخيلون أنهم يسـمعون أصواتًا أو يرون كائنات ليس للآخرين طريق إلى معرفتها. لقد عرفت العرب هذا الصنف من الناس وذلك النوع من الخبرة في صورة الكهان العرب ، الذين يشترك محمد في كثير من السمات والعوارض كما لاحظه عليه معاصروه دون مشقة ؛ وإنه بلا شـك ينتمي عضويًّا ونفسـيًّا إلى طائفة الكهنـة . فلقد كان محمد مثلهم يتعرض لنوبات من الاهتياج العصبي ، مع الشـعور بأنه يسمع ويرى أشياء بعيدة عن مدارك الآخرين ، وربمـا كان شـعوره الدائم بعـدم الرضا ، ذلك الشـعور الـذي تركز في أعماق نفسـه ، والذي كان السـبب والمؤثر على مزاجه حتى بلوغه سـن الأربعين ، وكان هذا الشعور أيضًا هو الذي ساعده كذلك على تقوية ميله أو نزوعه لادعاء الوحي وتأسيس دين .
ونظراً لأن محمدًا كان يتميز على سـائر الكهان بقـوة شخصيته ، بالإضافـة إلى شعوره الدائم بـالقلق وعدم الرضـا فإنه تميز عليهم أيضًـا بطريقـة التفكير العميق في الأشـياء ، أضف إلى ذلك أنـه اسـتخدم مزاجـه الخـاص الميـال إلى التمرد على المـألوف والمعهود للوصول إلى أهدافـه ، وبناء على هذا كلـه فقـد اسـتطاع محمـد أن يطور بنـاء عقليًّا كاملاً ، هذا البناء العقلي كان شيئًا نادرًا (P57).

وطبقا لغرضه المسبق ، وبناء على تحليلاته الخاصـة توصل رودينسون إلى أن القرآن

كله إنما هو: «بناء عقلي . ابتدأه محمد وطوره حتى وصل إلى هذه الدرجة العالية من الإتقان ، وأن القرآن إنما جاء استجابة أو تحديا لمعطيات البيئة التي نشأ فيها (محمد صلى الله عليه وسلم). هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فإن القرآن إنما هو نتاج عقلية محمد او هو حديث صادر من منطقة اللاوعي عنده ..!!».

بالطبع لا يستطيع رودينسون أن ينكر أو يتجاهل قوة وعظمة شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده عن سفاسف الأمور ، ولكنه للأسف يوظف القوى والقدرات الممتازة التي حبا الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم لأغراض غير ملائمة لما أعد الله لها رسوله ، ولما عرف عنه صلى الله عليه وسلم من خلائق عالية وصفات مثلى. يقول الكاتب: «إن محمدًا لم يكن مثل سائر الكهنة يشغل نفسه بالتنبؤ للناس أو بتفسير أحلامهم . بل إنه على العكس لم يتخذ الكهانة مهنة ، أو مصدر ارتزاق أو وجاهة كما كان يفعل الكهان في مكة ، ولكنه جعل يتعلم ويفكر طوال الوقت ، وبالتدريج كانت روحه تتقدم على الطريق حتى وصل إلى المكان الذي تجاوز به حدود زمان ومكان أهل بلده» (ص٥٨).

بهذه اللغة السيالة والبطالة يتكلم رودينسون عن محمد صلى الله عليه وسلم ككاهن متميز ، وليس كنبي معصوم ومبرز ، وصاحب ديانة وحضارة . لقد نفى القرآن في عدة مواضع منه أن يكون محمد كاهنًا أو ساحرًا يقول الله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾ (الطور ٢٩) ، ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحاقة٤٢).

وقد اعترض النبي صلى الله عليه وسلم على الكلام المسجوع كسجع الكهان كما ذكرناه في موضع آخر من هذا الكتاب . وللأسف فإن الكاتب الأيرلاندي ماليس روثفين Malise Ruthven قد تأثر بالتحليلات النفسية الخاطئة التي حاول رودينسون تطبيقها علي شخصية الرسول صلي الله عليه وسلم فزعم هو الآخر أن القرآن إنما صدر من أعماق محمد، وليس هو بوحي أنزله الله على محمد [1] .

مناقشة مزاعم الكاتب حول مفهومي الكهانة والعرافة والنبوة :

خلط الكاتب بين مفهومى الكهانة والعرافة وبين النبوة من جانب ، وبين النبي

(1) Islam in The World Peguin Books, 1991, P.62f.

والكـاهن مـن جـانب آخر ، لذا وجـب أن نعرف هنـا الكهانــة والعرافة ، ومـا هي الحدود الفارقة بينهما وبين النبوة .

الكهانـة مـأخوذة من كهن لـه يكهن كهانــة، وتكهن تكهنًـا قضى لــه بالغيب. والكاهن هو الذي يخبر بالأشياء الماضية الخفيـة بضرب من الظن . والعراف هو الذي يخبر بالأخبـار المستقبلة على نحو ذلك ، يقول الراغـب الأصفهاني : «ولكـون هاتين الصناعتين مبنيتين على الظن الذي يخطئ ويصيب» قـال عليه السلام : «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما قال فقـد كفر بما أنزل على محمد». رواه أبو هريرة عن رسول ا لله صلـى الله عليه وسـلم وأخرجـه أحمد في المسند ٢/٤٢٩ وأبو داود في كتاب الطب ، كما جـاء الحديث بالنهي عن أكل حلـوان الكاهن[١]. أما بالنسـبة للنبوة والنبي فالنبوة صفة في النـبي ، ذهب البعض إلي أنهـا صفة ثبوتيـة فى النـبي ، وذهـب آخرون إلى أنها صفة إضافيـة لا حقيقية ، والصحيح كما يقول شيخ الإسـلام ابن تيمية(ت ٧٢٨ هـ) أن النبوة تجمع الاثنين فهـي تتضمن صفـة ثبوتية في النبي وصفـة إضافيـة هي مجرد تعلق الخطاب الإلهي بـه.. [٢]. والنبوة اصطفـاء الله لأحد عباده وتكليفـه له برسـالة يبلغها إلى خلقــه. والنبي لفظ منقـول في العرف عـن مســماه اللغوي فقيـل : هو المنبئ ، أى المخـبر عـن الله تعـالى ، والنبـأ معنـاه الخبر. وقيـل هو مـن النبوة وهو العلـو والارتفاع وذلك لعلو شأن النبي ولأنه أيضاً يتلقى الوحي من أعلى أي من السماء ، ولأنه يشرف بالوحي من أعلى على الخلق الذين بعث فيهم . وقيـل النبي معناه الطريق وذلك لمناسبة كونه وسيلة موصلة إلى الله ، وهادى يهدى إلى صراطه المستقيم.

يقول عباس بن مرداس في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

ياخاتم النبآء إنك مرسل بالخير كل هدى السبيل هداكا

إن الإله ثنى عليك محبـة في خلقــــه ومحمــــداً سمـاك

ونبـآء كأنبيـاء جمـع نبي [٣] . ويعـرف عضد الدين القــاضي عبد الرحـمن بن أحمد الإيجي النبي بأنه: «عند أهل الحق من قـال له الله تعالى أرسلتك أو بلغهم عنى ونحوه من الألفاظ ولا يشـترط فيـه شـرط ولا استعداد ، بـل الله يختص برحمته من يشـاء من عباده وهو أعلم حيث يجعل رسالاته ».

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن . ص٧٢٨ و ٧٩٠ .

(٢) كتاب النبوات (المملكة العربية السعودية – مكتبة الرياض الحديثة) ص٢٥٦ .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، ج١ ص١٦٢.

ويقول الإيجي أيضًا أن الفلاسفة قد اشترطوا أن تجتمع فى النبي خواص ثلاث أحدها: أن يكون له اطلاع على المغيبات ، ولا يستنكر عليه ذلك. وثانيها: أن يظهر منه الأفعال الخارقة للعادة ، لكون هيولى (الأصل أو المادة أو الجوهر) عالم العناصر مطيعة له ، منقادة لتصرفاته انقياد بدنه لنفسه ، ولا يستنكر عليه .

وثالثها : أن يرى الملائكة مصورة ، ويسمع كلامهم وحياً ، و لا يستنكر أن يحصل له في يقظته مثل ما يحصل للنائم في نومه ، لتجرد نفسه عن الشواغل البدنية وسهولة انجذابه إلى عالم القدس[1].

ولا يتسع المقام هنا لمناقشة الفلاسفة في هذه الخواص الثلاث التي لا تختلف في أنها تجتمع في النبي ، أي نبي أيًا كانت التفاصيل بشأنها.

ويعرف الشريف الجرجاني (٧٤٠ - ٨١٦ هـ) النبي بأنه «من أوحى إليه ملك ، أو ألهم في قلبه أو نبه بالرؤيا الصالحة، فالرسول أفضل بالوحي الخاص الذي فوق وحي النبوة، لأن الرسول هو من أوحى إليه جبرائيل خاصة بتنزيل الكتاب من الله»[2].

وفى كتاب النبوات يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية الفرق بين النبوة والسحر والكهانة فيقول :«فجميع ما يختص بالسحرة والكهان هو مناقض للنبوة فوجود ذلك يدل على أن صاحبه ليس بنبي ويمتنع أن يكون شيئًا من ذلك دليلاً على النبوة ، فإن ما استلزم عدم الشيء لا يستلزم وجوده . وكذلك ما يأتي به أهل الطلاسم وعبادة الكواكب ومخاطبتها ، كل ذلك مناقض للنبوة فإن النبي لا يكون إلا مؤمناً وهؤلاء كفار ، فوجود ما يناقض الإيمان هو مناقض للنبوة بطريق الأولى وهو آية ودليل وبرهان على عدم النبوة .فيمتنع أن يكون دليلاً على وجودها ، وجميع ما يختص بالسحرة والكهان وغيرهم ممن ليس بنبي لا يخرج عن مقدور الإنس والجن ، وأعني بالمقدور ما يمكنهم التوصل إليه بطريق من الطرق» ويقول أيضًا : «... وما تخبر به الأنبياء من الغيب لا يقدر عليه إنس ولا جن ولا كذب فيه ، وأخبار الكهان وغيرهم كذبها أكثر من صدقها ، وكذلك كل من تعود الإخبار عن الغائب ....وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سئل عن الكهان فقيل له : «إن منا قومًا

---

(١) المواقف في علم الكلام (القاهرة، مكتبة المتنبي) ص٣٣٧ - ٣٣٨ والإمام أبو حامد الغزالي ، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة، دار المعارف ١٣٩٢ - ١٩٧٢) ص١٨٢ وما بعدها.

(٢) كتاب التعريفات، تحقيق : عبدالمنعم الحفني (القاهرة، دار الرشاد ١٩٩١) ص٢٦٧.

يأتون الكهان ، قال : فلا يأتوهم »[1]. يضاف إلي هذا كله ما يتمتع به النبي من جمال الخلقة وحسن السمت والخلق ، والعصمة ، والمعجزة المصاحبة لدعواه النبوة والتي هي بمثابة ، صدق عبدي في ما يبلغ عني ،وهذا كله لا يتوفر لكاهن أو عراف ، ولا لأحد من الخلق غير أنبياء الله تعالى [2]. من هذا كله يتضح بجلاء الفرق بين الكهانة والعرافة والنبوة ، وكذلك بين النبي والكاهن أو العراف ، فالنبوة مبنية على اليقين والكهانة والعرافة على الظن ، ولذلك قال الأزهري : «وكانت الكهانة في العرب قبل مبعث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث نبيًّا وحرست السماء بالشهب ، ومنعت الجن والشياطين ، من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة بطل علم الكهانة ، وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذي فرق الله عز وجل ، به بين الحق والباطل ، وأطلع الله سبحانه نبيه ، صلى الله عليه وسلم بالوحي على ما شاء من علم الغيوب التي عجزت الكهنة عن الإحاطة به فلا كهانة اليوم بحمد ا لله ومنه وإغنائه بالتنزيل عنها»[3] .

فالكهانة ظن وحدس لا هدف من ورائها غير إقناع الموهومين ، والكاهن يعيش دائما في مجتمع ضيق ، وجامد ، وبيئة معزولة، ويحرص على أن يحيط نفسه بهالة من الوهم والكذب والخداع ، فالكاهن نفسيًّا وعقليًّا يختلف تمامًا عن النبي ، فعالمه كله قائم على الوهم ، وعلى الانفصال عن واقع الناس ، وعلى التقوقع والانكفاء على الذات والانفتاح على عالم الأرواح الشريرة ومردة الجن .

هذا من الناحية النفسية والعقلية ، ومن ناحية البيئة التي ينمو ويعيش فيها الكاهن أو العراف. ليس هذا فحسب ، وإنما هناك فوارق في العوارض والأجسام كذلك بين الكاهن والعراف وبين النبي .

وقد لاحظ المؤرخ البصير أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) الفوارق النفسية والجسدية بين كل منهما يقول «والنفوس طبقات : منها الصافي وهي النفس الناطقة ، ومنها الكدر ، وهي النفس الحسية ، والنفس النزاعية ، والنفس المتخيلة ، ومنها ما قوته في الإنسان أزيد من قوة الجسم ، ومنها ما قوة الجسم أزيد منه ، فلما كانت النسبة النورية للإنسان إلى النفس كانت تهدي الإنسان إلى

---

(١) كتاب النبوات ، ص٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

استخراج الغيب وعلم الآتي ، وكانت فطنته وظنونه أبعث وأعم ؛ فإذا كانت النفس في غاية البرور ونهاية الخلوص ، وكانت تامة النور وكاملة الشعاع كان تولجها في دراية الغائب بحسب ما عليه نفوس الكهنة ، وبهذا وجد الكهان على هذه السبيل من نقصان الأجسام وتشويه الخلق (بفتح الخاء) ، كما اتصل بنا عن شق وسطيح ، وسملقة ، وزوبعة ، وسديف بن هوماس ، وطريفة الكاهنة ، وعمران أخي مزيقياء ، وحارثة وجهينة ، وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان»[1] . وينبغي أن نذكر هنا أن من هؤلاء الكهان من كان يزعم أن له تابعًا من الجن ورئيسًا يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم معرفة الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله .

ويقول المسعودي أيضا : «والكهانة أصلها نفسي لأنها لطيفة باقية ومقارنة لأعجاز باهرة ، وهي تكون في العرب على الأكثر ، وفي غيرهم على وجه الندرة ، لأنه شيء يتولد على صفاء المزاج الطبيعي ، وقوة مادة نور النفس ، وإذا أنت اعتبرت أوطانها رأيتها متعلقة بعفة النفس وقمع شرها بكثرة الوحدة ، وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس ، وقلة الأنس بهم ، وذلك أن النفس إذا هي تفردت فكرت ، وإذا هي فكرت تعدت ، وإذا تعدت هطل عليها سحب العلم النفسي ، فنظرت بالعين النورية، ولحظت بالنور الثاقب ومضت على الشريعة المستوية ، فأخبرت عن الأشياء على ما هي به وعليه ، وربما قويت النفس في الإنسان فأشرفت به على دراية الغائبات قبل ورودها» [2] .

ذكر ذلك المسعودي في قرينة كلامه عن أصل ادعاء علم الغيب . ولتمام الفائدة نذكر باختصار ما أورده نفس المؤلف في كتابه المذكور في تحليل مفهوم الكهانة ، وقول الحكماء فيها يقول : «ذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم إلى التكهن ، وكانوا يدعون لهم العلوم من الغيوب، فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد صفت فهي مطلعة على أسرار الطبيعة ، وعلى ما تريد أن يكون منها ؛ لأن صور الأشياء عندهم في النفس الكلية ، وصنف منهم ادعى أن الأرواح المنفردة وهي «الجن» ، تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحهم كانت قد صفت حتى صارت لتلك الأرواح من الجن متفقة.

---

(1) مروج الذهب (بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م) ج٢، ص١٧٤ .
(2) نفس المصدر ، ص١٧٥ .

وذهب قوم من النصارى أن «السيد المسيح إنما كان يعلم الغائبات من الأمور ، ويخبر عن الأشياء قبل كونها ؛ لأنه كانت فيه نفس عالمة بالغيب ، ولو كانت تلك النفس في غيره من أشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب ، ولا أمة خلت إلا وقد كان فيها كهانة ، ولم يكن الأوائل من الفلاسفة اليونانية يدفعون الكهانات»[1].

وقد خلط الصابئة بين النبي والكاهن فقالوا أن أوريايس الأول وأوريائيس الثاني كانا يعلمان الغيب وكانا نبيان ، ويعتقد هذا الفريق أن الكهانة تنبع من التجرد وصفاء النفس وليس من الاستعانة بالجن .

وذهب فريق آخر من الناس إلى أن التكهن سببه نفساني يتولد من صفاء مزاج الطباع وقوة النفس ولطافة الحس ، وذهب جمهور كبير إلى أن الكهانة تنشأ من صحبة الكاهن لشيطان من الجن يخبره بحكم قدراته الخاصة بالمغيبات ، التي في إمكانه أن يتوصل إلى معرفتها ، ومما لم يعلمه الإنس بعد .

وإلى هؤلاء ترجع الإشارة في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا(٦)وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ٧)وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨)وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ (الجن ٦ - ٩) .

﴿...وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام١٢١) .

وقد نفى القرآن أن الشياطين يمكن أن تعلم الغيب بقول تعالى : ﴿... فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(سبأ ١٤) .

ويقول تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام٥٠).

ويذكر المسعودى أيضًا أن بعض العلماء يفسر الكهانة على أنها من فيض الوحي الفلكي، وأن عدداً كبيراً من المتقدمين والمتأخرين يرى أن سبب ظهور الكهانة علل نفسانية ، وأن النفس إذا قويت وزادت قهرت الطبيعة وأبانت للإنسان كل سر لطيف وخبرته بكل معنى شريف ، وغاصت بلطافتها في انتخاب المعاني اللطيفة البديعة

---

(١) نفس المصدر .

فاقتنصتها وأبرزتها على الكمال[1].

ومن المفيد أن نذكر في هذه القرينة أن الصابئة وهم يسمون أيضا بأصحاب الروحانيات، يؤمنون بأن للعالم صانعًا فاطرًا حكيمًا منزهًا عن صفات الحوادث لا يمكن للبشر أن يصلوا إلى جلاله إلا عن طريق الوسطاء الروحانيين المطهرين المقدسين في الجوهر والفعل والوصف وهم مقربون لديه ، وهم يتوجهون إلى هؤلاء الوسطاء عند طلب أي شيء ، فهم بالنسبة لهم أرباب وآلهة . وهم يعتبرون المادة شر وسبب لكل الشرور . وقالوا أنه بالبعد عن الشهوات والرذائل وبكثرة العبادة وتقديم القرابين وتعويم العزائم يمكن أن نصل إلى الله دون واسطة ، بل يكون حكمنا وحكم من يدعي الوحي على وتيرة واحدة ، وزعموا أن الأنبياء مثلنا تمامًا ولا مزية لنا فنتبعهم . وقد فند الشهرستاني مزاعم الصابئة الباطلة[2] .

وفي كتاب المقابسات تكلم أبو حيان التوحيدي (٣١٢ - ٤٠٣ هـ) عن الكهانة وما يتصل بها من أمور الغيب وعلاقتها بالتنجيم والنبوة ونقل عن أبي سليمان ابن بهرام المنطقي السجستاني (ت حوالي ٣٨٠ هـ) قوله : «الكهانة قوة إلهية توجد في شخص بعد شخص بسهام سماوية ، وأسباب فلكية ، وأقسام علوية ، فإذا توسطت صارت في منصف البشرية والربوبية ، فحينئذ يكون ما يبدو بها مشيرًا إلى غيب أمور الدنيا وإلى غيب أمور الآخرة على حد يكون على سواء. والغلب مع ذلك لأمور الدنيا، لأن الإنسان بالطبيعة أكثر منه بغيرها، في الأعم الأغلب والشائع الأشمل ، فإن تحدرت هذه القوة قليلاً كانت الإشارة إلى أمور عالية شريفة. ومحل النبوة بين أبناء هذه القوة بالترقي والتحدر، وكلما كان التباس النفس بالمزاج الموافق، وكان النور المقتبس من هذه القوة أسطع وأعلى، فعلى هذه (تتبع) قوة المنجم لآثار الكواكب تتبعًا ضعيفًا، لأن الآلة لا تساعده والصبر لا يوافيه، وذلك أنه يتلقى هذه الأمور المنتشرة من تلقاء نفسه ومن ناحية اختياره وقصده، وبحثه وليست قوى الكاهن كذلك، أعني ليست تتبع بل هي كالإلقاء والوحي والسانح والطارئ فإن اجتمعت القوتان، أعني قوة التتبع بالصناعة وقوة الاقتباس بالكهانة، ظهر له كل أمر عجيب، وسمع كل قول غريب»[3] .

---

(١) نفس المصدر ، ص١٧٢ - ١٧٨ .

(٢) الملل والنحل ، (القاهرة ، مطبعة صبيح، ١٩٦٤) ج٣، ص٨٨.

(٣) المقابسات (الكويت، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢) ص٢٢٦ - ٢٢٧.

ثم قال : «وعلى ما تبين فإن الكهانة أقوى إذا كان صاحبها لا يشوبها بشيء من الحس، وألقاها على صفائها ونقائها، لأن قوتها تنسكب من المحل الأعلى بنسبتها بالعلة الأولى تامة قوية وصحيحة واضحة» .

ثم سأله أبو حيان « فهل يخطئ الكاهن كما يخطئ المنجم ؟ فقال : نعم وليس الخطأ محالاً منه، لأن قوة الكاهن لا تبلغ الغاية في الخلاص أبدًا بسبب تركيبه الذي هو سبب استحالة ما يحاوره بنفسه» .

ثم سأله أبو العباس البخاري «عن إمكان خطأ صاحب النبوة فأجاب بأنه لا يخطئ ولكنه قد يسهو كما في حديث ذي اليدين (الخرباق السلمي) أحد الصحابة ، وأن سهوه وخطأه لا يقدحان في الحال التي رشح لها (النبوة) ، ووشح بها، وجعل سفيرًا إلى الخلق من أحلها! بل يحرس حراسة إن لم تنف عنه كل الظنة لم تعلقه كل قرفة». فسألة أبو العباس سؤالا آخر : «فهل يخطئ نبي ومعه قوة النبوة من غير أن يستقرها ويعرض للخلق من أجلها ؟ فأجابه : بأن ذلك غير ممكن ولكن النبي، قد يعرض له رأى فيبديه على سبيل الاجتهاد ، لا الوحي كما في حديث تأبير نخل الأنصار ثم رجع عن رأيه ،(عندما شاص النخل و لم يعط ثمرًا) وقال لهم : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» ولا ما نع من ذلك ولولا قوة التخيل والتفكر موجودة في أشخاص العلماء والبررة ما كان يصح حدس، ولا تصدق نفس، ولا يتحقق ظن، ولا يتوضح وهم. بل هذا أمر في غاية الغلبة والظهور، حتى في كثير من أنفس العوام» (١).

نلاحظ تأثر السجستاني بالفلسفة اليونانية في تحديد مفهوم الكاهن وطبيعة الكهانة وفي ربطه لها بالأسباب الإلهية . والمعروف أن الكهانة التي كانت رائجة في البيئة العربية كانت مرتبطة بالجن والشياطين، وقد نفاها الله تبارك وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم .والكهانة كما أوضحناه كانت محدودة المجال والتأثير ،وأن الكاهن لم تكن له رسالة ، لا عامة ولا خاصة كما لم تكن له بالناس خلطة . هذا و لم يصلنا شيء عن الكهان يمكن أن نقومه بميزان الحضارة والعمران أو نعرضه على ميزان القيم والأخلاق ؛ ولكي نؤكد بالمثال الفرق بين الكهانة وبين النبوة نعرض هنا هذا الحديث الذي دار بين سواد بن قارب الدوسي، وكان كاهنًا في الجاهلية ثم أسلم ، وبين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال ابن إسحاق : «وحدثني من لا أتهم عن عبد ا لله ابن

---

(١) نفس المصدر ، بتصرف يسير.

كعب، مولى عثمان بن عفان، أنه حدث : أن عمر بن الخطاب، بينما هو جالس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل رجل من العرب داخلاً المسجد، يريد عمر بن الخطاب، فلما نظر إليه عمر رضي الله عنه، قال : إن هذا الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد، ولقد كان كاهنًا في الجاهلية. فسلم عليه الرجل، ثم جلس، فقال له عمر رضي الله عنه : هل أسلمت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، قال له : فهل كنت كاهنًا في الجاهلية ؟ فقال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! لقد خلت في، واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ما وليت، فقال عمر : اللهم غفرًا، قد كنا في الجاهلية على شر من هذا، نعبد الأصنام، ونعتنق الأوثان حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام، قال : نعم والله يا أمير المؤمنين، لقد كنت كاهنًا في الجاهلية، قال : فأخبرني ما جاءك به صاحبك، قال : جاءني قبل الإسلام بشعر أو شيعه، فقال: ألم تر إلى الجن وإبلاسها، وإياسها من دينها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها» . ومن كلام الكهان وتوابعهم من الجان الذي سجله لنا ابن هشام قبيل الإسلام «يا ذريح (أو يا جليح)، أمر نجيح، رجل يصيح، يقول : لا إله إلا الله » . وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

عجبت للجن وإبلاسها	وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى	ما مؤمنو الجن كأنجاسها

قال ابن إسحاق وحدثني بعض أهل العلم : «أن امرأة من بني سهم يقال لها الغيطلة كانت كاهنة في الجاهلية، فلما جاءها صاحبها في ليلة من الليالي، فانقض تحتها ثم قال: أدر ما أدر، يوم عقر ونحر، فقالت قريش حين بلغها ذلك ما يريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى، فانقض تحتها، ثم قال : شعوب، ما شعوب، تصرع فيه كعب لجنوب : فلما بلغ ذلك قريشًا قالوا ماذا يريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن، فانظروا ما هو ؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب، فعرفوا أنه الذي كان جاء به إلى صاحبته».

ومما جاء في السيرة عن كهان الجاهلية أن كاهن اليمن ، عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر في العرب ذكره قالت له جنب وهي بطن من بطون قبيلة مذحج ، انظر لنا في أمر هذا الرجل واجتمعوا له في أسفل جبل، فنزل عليهم حين طلعت الشمس، فوقف لهم قائمًا متكئًا على فرس له، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً، ثم

جعل ينزو، ثم قال : «أيها الناس إن الله أكرم محمدًا واصطفاه، وطهر قلبه وحشاه، ومكثه فيكم أيها الناس قليل» ثم اشتد في جبله راجعًا من حيث جاء . قال ابن إسحاق «فهذا ما بلغنا من الكهان العرب»[1].

هذه النصوص واضحة وقاطعة في أن القرآن يختلف تماما عن كلام الكهان في النظم والتراكيب ، والمفاهيم والمضامين والأغراض ، وأن كلام الكهان إنما هو مقصور على حوادث بعينها وهو يتكون من جمل قصيرة ويعتمد على السجع وعلى الإيغال في الصياغة والإبهام في العبارة بما يتناسب مع غموض الكهانة واعتماد الكاهن على قوى الشياطين أو الجن ، أو على قوة حدسه . وليس في هذه النصوص أو في غيرها أن محمدًا كان كاهناً أو أنه كان معروفًا للكهان أو معدودًا منهم و لم يحدث أن تقدم إلينا أحد كهان العرب بدعوى تثبت زعم الزاعمين ، بل إن من الكهان من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ونبذ كهانته ظهريًا كما أوردناه آنفًا .

وفي هذه القرينة فإنه من المفيد أن نذكر أن كتب اليهود والنصارى قد خلطت بين مفهومي الكهانة Soothsayer or Divination والعرافة fortunetellingوبين النبوة Prophethoodوبين النبي Prophet والكاهن soothsayer والعراف fortuneteller من جانب آخر . وقد وردت الإشارة إلى العرافة والكهانة في العهدين القديم والجديد ففي دانيال ،على سبيل المثال جاء «وفي السنة الثانية من ملك نوبخذ نصر حلم نوبخذ نصر أحلامًا فانزعجت روحه وطار عنه نومه فأمر الملك بأن يستدعي المجوس والسحرة والعرافين ، والكلدانيين ليخبروا الملك بأحلامه ... وهددهم الملك أن يقطعهم إربًا إربًا إن لم يفسروا له حلمه» ووعدهم بالجوائز النفيسة إذا أفلحوا في تفسيره .

وقد تم تفسير الرؤيا على يد دانيال (دانيال ٢ : ١ - ٤٩) وفي سفر العدد ٢٣ : ٢٣ - ٢٤ «الله أخرجه من مصر له مثل سرعة الرئم ، إنه ليس عيافة على يعقوب ولا عرافة على إسرائيل في الوقت يقال عن يعقوب وعن إسرائيل ما فعل ا لله. هوذا شعب يقوم كلبؤة ويرتفع كأسد . لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى» .

ومما ينبغي ملاحظته أن كتب العهد القديم قد أعطت اهتمامًا كبيرًا بالعرافين والكهنة .

وقد وجه التلمود عدة تهم إلى المسيح عليه السلام.منها أنه كان يعمل بالسحر

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج١ ص١٨٨.

والكهانة .

The Jewish Talmud Contains accusations implying that Jesus had employed sorcery [1] وقد ارتبطت العرافة إلى حد كبير بالأعمال الباطنية، في الديانة اليهودية ، وبالرغم من هذا فقد جاء في هذه الكتب نصوص بتحريم العرافة والكهانة[٢] .

أشرنا فيما سبق الي أن العرب في الجاهلية قد عرفوا الكهانة وأنهم كان لهم علم بما يصدر عن الكهان من كلام مسجوع ، وهموا أولاً أنه من نوع ما جاء به القرآن فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «خرجت أتعرض رسول الله صلى ا لله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن . قال فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال فقرأ : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠)وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾ قال فقلت كاهن ، قال : فقرأ ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢)تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣]. ومن الواضح أن هذه الحادثة قد وقعت قبل أن يعلم عمر بإسلام أخته فاطمة وزوجها ، وقبل أن يداهمهما في دارهما وهما يقرآن أوائل سورة طه ، وقد توقفا عن القراءة خوفًا منه عندما شعرا به ؛ ويبدو من إصرار عمر رضي الله عنه على معرفة ما كانت أخته وزوجها يقرآنه أنه كان متأثرًا بالموقف السابق مع رسول ا لله صلى الله عليه وسلم ولذلك جاء إعلان إسلامه سريعًا على غير ما كان يتوقع منه آنذاك بحكم الطبع المتأصل ، والوثنية المتمكنة ، وبحكم الموقف العام الذي اتخذته قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن دعوته .

لم يكن ما قاله عمر في القرآن قبل إسلامه هو موقف جميع العرب ، إذ لم يكن للكهان كلام له بلاغة القرآن ولا تأثيره في النفوس ، ولم يهتم أحد من العرب بحفظ كلام الكهان أو روايته أضف إلى ذلك أن كاهنًا من الكهان لم يحدث بكهانته ما أحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته ، وإنه لمن المعلوم أن العربي جد حفي بلغته وآدابها ، يؤثرها ولا يؤثر عليها ، ولنقرأ هذا النقد البليغ الذي يبين لنا الفرق بين نظم القرآن ونظم الكهان . وهو للوليد بن المغيرة الذي كان تجربة واسعة ، وخبرة

---

(1) Merrill C. Tenney, (General Editor) The Zondervan Pictoral Encyclopedia of the Bible(U.S.A. The Zondervan Corporation, 1975) vol.2 P. 148.

(2) Ibid .

(٣) سيرة ابن هشام ، ج١ ص٢٤٣وابن كثير ، مختصر تفسير، ج٣، ص٥٤٦، ابن الجوزي ، صفة الصفوة، ج١ ص٨٣ - ٨٤، ابن حجر ، الإصابة ، ج٢ ص٥٧٣٦.

عميقة ، وحس لغوي رفيع بين أترابه من بلغاء العرب. ذات يوم اجتمع إلى الوليد ابن المغيرة نفر من قريش وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ويرد قولكم بعضه بعضًا ، قالوا فأنت يا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا: نقول كاهن ؛ قال : «والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو (أي القرآن) بزمزمة الكاهن (أي كلامه الخفي) ولا سجعه ؛ قالوا : فنقول مجنون ؛ قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته ؛ قالوا: فنقول شاعر ؛ قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ؛ قالوا : فنقول ساحر؛ قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ؛ قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصلها لعذق[القنو من النخل ،والعنقود من العنب]، وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك»[1]. وقد رد القرآن على الوليد بن المغيرة بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(١٨)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(١٩)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠)ثُمَّ نَظَرَ(٢١)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(٢٢)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(٢٣)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ(٢٤)إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(المدثر ١٨ - ٢٥).

وقد جاء عن ابن عباس في ذلك رواية أخرى قال «دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر ، فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة (يعني محمدًا) فو الله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهزي من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا ، وقالوا : وا لله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل ابن هشام قال : أنا وا لله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال الوليد : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألست أكثرهم مالاً وولدًا ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر

---

(١) ابن هشام سيرة ، ج١ ص٢٤٣-٢٤٤ ابن كثير ، مختصر تفسير، ج٣ ص٥٧٠ .

يؤثر، فأنزل الله عـلى رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (الآيات من سورة المدثر)، وفي رواية قتادة أن الوليد بن المغيرة قال : وا لله لقد نظرت فيما قال الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه وما أشك أنه سحر فأنزل الله ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[1] ، فهذه الروايات تؤكد أن الوليد كان قد رجع عن رأيه وأنه غير موقفه تجاه القرآن ، وأنه إنما بنى وجهة نظره في القرآن على علم وخبرة تامتين في معرفة أسرار اللغة العربية وأساليبها المختلفة. وبالرغم من أن الوليد قد غير موقفه المنصف من القرآن ومن رسول ا لله صلى الله عليه وسلم لإرضاء قومه ، وللإبقاء على وحدة صف المشركين فإنه قد بين لنا على الأقل الفوارق الجوهرية بين الكاهن والساحر والشاعر، وأكد أن كلام ا لله في القرآن يختلف تمام الاختلاف عن كلام هؤلاء جميعًا ، وعن كلام غيرهم من الإنس والجن ، وذلك من حيث الشكل ومن حيث المضمون ، وفوق هذا كله فإن القرآن يختلف تمامًا عن الكهانة من حيث الهدف والغاية، فالقرآن إنما جاء لبناء الأمة وإرساء قواعد الملة ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وما أبعد صفات محمد صلى ا لله عليه وسلم وخصائصه الإنسانية العليا أن تشبه صفات الكاهن أو الساحر أو الشاعر ، وما أبعد الفرق بين القرآن وبين سجع الكهان .

بعد أن أوضحنا مفهومي الكهانة والعرافة وبينا حدودهما وآثارهما الاجتماعية المحدودة فهل يمكن بعد ذلك أن يزعم زاعم بأن محمدًا كان كاهنًا أو عرافًا ؟ وبخاصة أنه قد استبان لذي عينين أن تاريخه غير تاريخهم ، وحالته النفسية والبدنية والعقلية غير حالتهم، وطريقته وأسلوبه في الكلام وفي الحياة غير طريقتهم وأسلوبهم، واتصاله بالناس واتصال الناس به غير اتصالهم ، وآثاره في التاريخ وفي الأنفس غير آثارهم . ولتوضيح هذا المعنى وتأكيده أوردنا كلام الوليد بن المغيرة الذي فرق فيه بين النبي ، والكاهن ، والعراف ، والساحر ، وكيف أن أساطين البيان العربي قد وافقوه على قوله وإن خالفوه لشدة خطر الاعتراف به على مشركي مكة . ونفهم من كلام ابن هشام أيضًا أن الكهان في العرب كانوا يقابلون الأحبار عند اليهود والرهبان عند النصارى . ألا سحقًا لميزان المستشرقين الشائل والمعكوس الذي يسوي بين التبر والتراب ، وبين أواني النضار وأواني الفخار . وبين الدرر والزرر (خشبات أو أصداف) . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشتغل بالكهانة قط ولا بالسحر البتة ، بل إنه لم يكن له

(١) نفس المصادر .

اتصال بهؤلاء أو هـؤلاء أبداً ، إنـه لم يدع علم الغيـب ، لا قبل ولا بعد الرسـالة، و لم يشتغل كذلك بتعبير الرؤى والإخبار عن المخبئات .

ولقد كـان النبي صلى الله عليـه وسـلم للصدق محلاً ، وللطهـر موطنـا ، وللعفـة والأمانـة مجلى ومظهرًا ، صدق وعف ، والتزم الأمانـة وتميز بها بـين قومه منـذ نعومة أظـافره ، وحتى أتـاه اليقين . وبـالرغم من مؤهلاتـه الإنسـانية العليـا وخلائقـه الربانية المثلـى . لم يتمن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، و لم يفكر البتة أن يكون زعيمًا أو نبيًّا رسولاً ، وإنما جاءته الرسالة اختيارًا من الله تعالى له ، ولذلك رأينا كيف أنه في البدايـة لم يفهم كـلام جبريل ، ولا مقصوده من دخولـه عليـه الغـار حتى كرر عليـه السـؤال وأبـان له وجـه الحكمـة من الزيارة عندمـا قرأ عليه قولـه تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (سورة القلم ١-٥)، عندئذ فقط أدرك محمد صلى الله عليه وسـلم أنه انفتـح له عـالم آخر ، وحدث لـه اتصال بالملأ الأعلى ، وتم لـه لأول مـرة حفظ آيـات من سـطور اللوح المحفـوظ الذي فتح لـه من تلقـاء عـالم الغيـب وتنزل عليـه من رحموت الملكوت ، وحتى تلك اللحظـة لم يجزم النبي صلى ا لله عليه وسـلم تمامًا بـأن ما جـاءه كان هو جبريل عليـه السـلام ، وبأن ما سمعـه كان هو القبس الأول والكلام البكر المتنزل من عند الله العزيز الحميد .

يقـرر القرآن ذلك في أكثر من آيـة ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحاقة ٤٢) .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الشورى ٢٤).

ومعنى ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ عند قتادة وفريق من المفسرين أي « ينسيك القرآن » وفي هذا الكلام رد على مقالة الكفار وبيان بإبطالها وذلك كأنه يقول وكيف يصح أن يكون محمد مفتريًا وهو بمرأى من الله ومسمع ، وهو قادر أن يختم على قلبه فلا يعقل ولا ينطق ولا يستمر افتراؤه[(١)].

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ(٨٥)وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ(٨٦)وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ

---

(١) عبدالحق بن عطيـة، المحرر الوجيز في تفسير الكتـاب العزيز . (قطر ، إحيـاء الـتراث، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) ج١٣ ص١٦٤.

إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(القصص ٨٥-٨٧)، ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ(٤٧)وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨)بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٧-٤٩) ، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(١٩٥)وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ(١٩٦)أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٩٧)وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ(١٩٨)فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ(١٩٩)كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(٢٠٠)لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾(الشعراء ١٩٢-٢٠١) .

القرآن والحديث يكذبان دعوى الكهانة :

ذكرنا من قبل أن كلام الكهان لا يخرج عن كونه أسجاعًا يعبرون بها عما يريدون من أغراض محدودة ومفاهيم ضيقة جدًا حرجة لا تعدو مجال التعبير عن بعض حاجات الناس التي يتلهفون على معرفتها وينشغلون بالبحث عنها، وهي حاجات اجتماعية لا تمت إلى الدين غالبا بصلة ، أما بيان القرآن فإنه أجل وأجمل ومعانيه أعمق وأوسع ، ومجالاته أكمل وأشمل، وتراكيبه أدق وأروع ، إن كل كلمة في القرآن جاءت تبعًا لمعنى ، وتوضيحًا لمفهوم ؛ وللقرآن رسالة وسعت أطرافها العلوم والمعارف الجمة والتامة . وقد وصف الله تعالى القرآن بأحسن الأوصاف وأشار إلى عظيم نعمائه في تعليم البيان ، وعظيم منته في تقويم اللسان فقال: ﴿الرَّحْمَنُ(١)عَلَّمَ الْقُرْءَانَ(٢)خَلَقَ الإِنْسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن ١ ،٢)، فالله هو الذي خلق الإنسان وعلمه القرآن يعني أعانه على حفظه وفهمه والعمل به ، ولسر عظيم أتبع الله هذه الآية بقوله: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤)الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن ٤)، فالله هو الذي علم الإنسان البيان ، يعني القدرة على الإعراب عما في ضميره بطرق بليغة مفهومة ومفهمة، وأنه كما يستمد القمر نوره من الشمس بحسب النظام الدقيق الموضوع في الكون فكذلك الإنسان يستمد علمه ونوره من القرآن الذي هو كلام الله تعالى. يقول عز وجل : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران ١٣٨).

ومدح الله القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام، وحكمة الإبلاغ، وسماه لذلك «فرقانا» فقال : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان ١)، ويقول تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف ٢). ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل ٨٩). وقال : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء ١٢).

وعن حال ووضع البيئة اللغوية التي نزل فيها القرآن فقد أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، كما ذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة فقال : ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ (الأحزاب ١٩). وقال : ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (مريم ٩٧)

ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم . ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون ٤) . ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة ٢٠٤) . هذه بعض الآيات التي تبين عظمة كلام الله تعالى ، وأعماقه المشعة الجميلة ، وبحاره الذاخرة المديدة ، وأبعاده النورانية الجليلة .

أما عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان كلامه غير مسبوق ، وغير منافس فيه، لم يسبقه إليه عربي ، لا شاعر ، ولا كاهن ، ولا قصاص ، ولا خطيب ، ولا صاحب أمثال ، ولم يأت بمثله عجمي ، ولم يدع مثله أحد من أصحاب مثل ذلك الكلام الذي كان مستعملاً وسائرًا بين الناس في عصره صلى الله عليه وسلم ، وقد وصف الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بيانه صلى الله عليه وسلم بقوله : «وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (سورة ص ٨٦)» .

فكيف وقد عاب (أي رسول الله صلى الله عليه وسلم) التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ،

وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل بز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج (أي الفوز) إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يحصر.

«ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ، ولا أصدق لفظًا ، ولا أعدل وزنًا ، ولا أجمل مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا ، ولا أحسن موقعًا ولا أسهل مخرجًا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرًا» .

ويقول الجاحظ أيضا : «و لم أرهم يذمون المتكلف للبلاغة فقط بل كذلك يرون المتظرف والمتكلف للغناء ، ولا يكادون (أي العرب) يصفون اسم المتكلف إلا في المواضع التي يذمونها قال قيس بن خطيم :

فما المال والأخلاق إلا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود

وإني لأغنى الناس عن متكلف يرى الناس ضلالاً وليس بمهتد

وقال بن قميئة :

وحمال أثقال إذا هي أعرضت عن الأصل لا يسطيعها المتكلف

ونختم هذا الكلام النافذ في إظهار محاسن وفرائد كلامه صلى ا لله عليه وسلم بقول يونس بن حبيب الذي رواه محمد بن سلام عنه قال : «ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم»[1] .

دعوى انتقال علوم اليهود والنصارى إلى محمد :

ننطلق من هذه الدعوى الهشة إلى دعوى أخرى هشة مثلها تتصل بهذه المقدمة الطويلة التي مهد بها الكاتب للحكم على القرآن بالانتحال وعدم الأصالة ، وعلى محمد بأنه هو مؤلف القرآن وناظمه . يشير رودينسون إلى الحروب والنزاعات التي كانت تقع بين الفرس والروم في المنطقة العربية وكان اليهود – على ما يزعم الكاتب

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، (بيروت. دار الكتب العلمية) ج١ ص٥-٦ وج٢٣ ص٩.

- عنصرًا فاعلاً واضح التأثير فيها. ثم يقول رودينسون بعد ذلك: « ليس هناك شك في أن أخبار هذه الوقائع قد أحدثت تأثيرًا كبيرًا في المنطقة . ولقد انتشرت هذه الحوادث انتشارًا سريعًا وقويًا بين اليهود وبعض فرق النصارى ، وإن الأوضاع الاجتماعية التي تساعد عادة على ظهور وشيوع مثل هذه الأخبار بين الناس كانت حد متوفرة . وإن أي فرد من أهل مكة ممن كان له اهتمام بمعرفة مثل هذه الأخبار كان يمكنه بسهولة أن يسأل عنها اليهود أو النصارى الذين كانوا دائمًا على استعداد تام أن يشرحوا قواعد وأمور دينهم للآخرين، أما بالنسبة للنصارى فإنهم للأسف كانوا يعرفون القليل عن ديانتهم وذلك لأنهم كانوا في معظمهم تجارًا فقراء ، أو جزارين أو حدادين أو حجامين (يعني يشتغلون بالحجامة التي تشبه الجراحة في العصر الحديث) أو باعة متجولين ، أو باعة خمور وعبيد بسطاء ، والذين لم تكن لهم رابطة أو هيئة تنظيمية تجمعهم أو كنيسة أو قسيس. أضف إلى ذلك أنهم كانوا ينتمون إلى فرق مختلفة ، كل فرقة منهم تدعي أنها على الحق وأن من عداهم هراطقة ومبتدعة . وكذلك فإنهم لم تكن لهم خبرة جيدة بعلم الكلام أو اللاهوت النصراني لأنهم كانوا من عوام النصرانية وبسطائها . وربما كانت لهم صلوات بسيطة وقليلة، وربما كانت لديهم بعض النسخ المحرفة أو المشوشة للكتاب المقدس بالإضافة إلى بعض القصص الجميلة المقتبسة من العهدين القديم والجديد .

أما اليهود على الجانب الآخر فقد كانوا يشتغلون بالزراعة ومستقرين ، وكانوا بالتالي منظمين جدًا ومتواجدين في أنحاء الجزيرة العربية بشكل واضح ، ولكن جماعاتهم كانت منغلقة على نفسها ومتماسكة إلى حد بعيد . أما في مكة التي كان أهلها مشغولون بالتنافس في التجارة وكانوا يخافون من تصاعد القوة السياسية لهذه التجمعات النشطة والحيوية ـ يعني تجمعات اليهود ـ والذين كان العرب يسخرون منهم لأنهم كانوا يأكلون دهن سنام الجمل ، وكذلك كانوا يسخرون من لغتهم العربية الرديئة التي كانوا يخلطون فيها الألفاظ العربية بالألفاظ العبرية. أضف إلى ذلك أن تواجدهم في هذه البلاد كان نادرًا بالمقارنة إلى غيرهم . ومع هذا فلم يكره اليهود، أو ينفروا من رواية ما في كتبهم المقدسة لصالح العرب الوثنيين الذين كانت لهم ميول لمعرفتها ، وكذلك معرفة القصص الموجودة في الكتاب المقدس ، وقصص التلمود ، وكل المادة التي تحتوي عليها المدراش[1]. والتي نقحها وأضاف إليها كتاب العصر

---

(١) التلمود : ومعناه بالعبرية التعليم أو مجموعة التعاليم، ويشتمل على آراء وتفسيرات أحبار اليهود، وهو في-

الهلليني والروماني ، والتي ساعد البعض منها على وضع الوحي (اليهودي) وما يتعلق به من موضوعات في متناول المتلقين العرب ، وذلك عن طريق تقديم بعض الحوادث والقصص في إطار أو محيط عربي ، أو عن طريق إعطاء وجهة نظر يهودية لحكايات عربية شهيرة». ثم يقول رودينسون: «إن لدينا دليلاً قرآنيًا لا يعارض على أن محمدًا كان قد اتهم بأنه كان يتلقى العلم من أشخاص يتكلمون لغة أجنبية» . ويستشهد على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣) ، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا(٤)وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان: ٤ ، ٥)

إن السيرة النبوية خصبة ، ومليئة بما يدحض أقاويل المفترين ، لكن الكاتب يأبى إلا أن ينقر ليلتقط منها ما هو خارج عنها أو مقحم عليها مما يخدم غرضه ، أو هو يأخذ من ثمرها الطيب ثم يشوهه بتفسيراته المادية وبعنصريته ، و يمعن في تشويهه ليصد الناس عن الانتفاع به ، فهو على سبيل المثال يترك رد القرآن على دعوى الكفار ، ولا يلقي بالاً لإجماع المفسرين وعلماء المسلمين في شرح معنى الآية ، ولكنه يتعلق فقط بدعوى الخصوم ويسلم جهلاً منه أو عنادًا ومكابرةً بصحتها ، ويتطوع دون ما حاجة للتدليل عليها محاولاً تأصيلها وتحسينها كبرًا من عند نفسه . فهو لم يراع جلالة الرد الإلهي على دعوى المبطلين الجاهلين كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(١٠٢)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٢) . هذا الرد الجميل والمفحم لم يرق رودينسون ، وإنما راقه أن يأخذ بدعوى الكفار المعاندين التي رجعوا عنها وأبى هو وأشياعه إلا أن يتعلقوا بها، ويعضوا عليها بالنواجذ أبدًا .

أما نظر هذا الكاتب أو لجأ إلى من يعلمه النظر الصحيح لمعرفة سر كلام الله تعالى، وكيف ذكر سبحانه هذه التأكيدات القوية لإثبات إلهية القرآن والتي تتجلى في قوله :

=حجم دائرة المعارف ضخمة. تمتد فترة تأليف التلمود إلى ما يقرب من الألف عام ، ويوجد تلمودان : التلمود الفلسطيني والتلمود البابلي. وينقسم التلمود إلى المشنا وتعني المعرفة ، وهي عبارة عن المتن ، والجمارا ومعناها الإكمال أو التتميم وهي شرح المشنا . وأما المدراش فهو مجموعة ضخمة من تفسيرات الأحبار للتوراة وهي الكتب الخمسة الأولى من كتب العهد القديم ، انظر نور شريف عبدالرحيم رفعت. دراسات في مقارنة الأديان (القاهرة: المطبعة الإسلامية الحديثة ١٤١٧هـ ١٩٩٧) ص١٠١ - ١٥٢.

﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾، و﴿مِن رَّبِّكَ﴾، و﴿بِالْحَقِّ﴾، و﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، يعني أنه لا مجال للوسيط البشري في نقل الوحي القرآني ، ولا دخل للملاك ، ولا للنبي فيه ، ولا سبيل للشيطان إليه ، وكيف يا ترى حدد هذا الكاتب بظنه هوية هذا الشخص الأعجمي المشار إليه في الآية ، ونحن لا نعرف شيئا عنه ، وقد اختلفت الروايات حتى في تحديد اسمه ونوع مهنته ، ولسنا نعرف كذلك أنه كان في مكة يهود، ومعلمين أو دورًا للتعليم ، أو حركة علمية كما يزعم الكاتب ، يضاف إلى ذلك أن كتب اليهود والنصارى لم تترجم قط إلى اللغة العربية إلا بعد قرون من وفات محمد صلى الله عليه وسلم كما يعرفه علماء الأديان عندنا وعندهم ؛ فمن أين يا ترى جاء العلم بها إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولو أن أصحاب الدعوى الأصليين كانوا على يقين لتحدوا محمدًا وأحرجوه بإظهار هذا المعلم البشر المزعوم ، كما تحدوه واضطهدوه في كثير من المواقف . ويطبق رودينسون نفس المعيار على آية سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا(٤)وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥)قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الفرقان: ٥ ، ٦)

فالكفار قد ادعوا أن القرآن ﴿ إِفْكٌ ﴾ افتراه محمد ، وأنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ أي طلب أن تكتب له ، لأنهم كانوا يعرفون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وقد وصف الله تعالى قول الكافرين المعاندين بالظلم والزور . ونسأل الكاتب هل يعتقد في كتبه المقدسة ، تلك التي يباهي بها ، على ما فيها من إدخالات ووضعيات ، أنها فرى ، وأساطير ؟ إذا كان يرى ذلك في كتبه فله ما يرى ، ولكننا نحن المسلمين نعتقد ونقتنع بأن القرآن كلام الله الذي أوحى به إلى رسول الله صلى ا لله عليه وسلم وتكفل بحفظه وهيأ كل الأسباب لصيانته وسلامته من التحريف .

يقطع رودينسون بأن محمدًا قد استمع إلى بعض تعاليم وحكايات يهودية بإمعان شديد ، ثم إنه في ضوء هذا الذي سمع استطاع شيئا فشيئا أن يضم بعضه إلى بعض ويكون منه صورة عن العالم وتاريخه. فقد أخبر اليهود والنصارى محمدًا عن نفس الإله الواحد ، « الله » الذي كان يعبد أيضا في المنطقة العربية على نفس الخط مع الآلهة الأخرى . الله الذي خلق السموات والأرض ، وإليه يرجع كل ما في الطبيعة من بدائع ومعاجز ؛ وظواهر مثل العواصف والرياح ، والرعد والبرق ، والمطر والزلازل

والبراكين . وإلى الله أيضـا يرجع خلق جسم الإنسان المعجز في تركيبه ، وأسرار توالد الحيوانات ، وسـائر الأسرار المبثوثة في مملكة النبات، إنـه تعالى سوف يعيد الإنسان إلى الحياة مرة أخرى ، بعد وفاتـه ، وإن رم رفاته ، وسوف يتولى القضاء الأخير بين عباده يوم الدين ، يثيبهم أو يعـاقبهم بحسب أعمالهم وطرائقهم في الحياة الدنيا ، سواء بالنعيم أو الجحيم ، بالجنـة أو النـار . ويتفق رودينسـون مع المستشـرق الاسـكتلندي وات في الزعم بـأن محمدًا قد تـأثر أيضًا بالحكايـات العربيـة القديمـة التي كـان العرب يحفظونها ويرددونها كقصة عاد وثمود ، وما أوقع الله بهم من عقاب . وقد ذكرت في الرد على مونتجمري وات في كتابي: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، الذي أعده للطبع، أن وات إنما لجـأ إلى هذا القول التمويهي ليملأ بـه الفـراغ الذي لم تسـتطع أن تملؤه دعوى انتحال محمد من كتب اليهود والنصارى التي تولوا كبرها ، وذلك لأن القصص القرآني ليس مشـابهًا للقصص المذكورة في الكتاب المقدس في كثير من الموضوعات ، لا في النوع ، ولا في التفاصيل ، ولا في الأسلوب كذلك ؛ فمن أين جاء محمد بها إذن ؟ هذا ما حاول وات والمتأثرون به أن يجيبوا عليه. بمثل هذا الزعم المتهافت.

يمضي رودينســـون في قراءة التـاريخ الجـاهلي والإسـلامي فيفســـره على هواه ، وبالطريقة المغلوطة التي تخدم أغراضه العنصرية ، وعداءه للعرب والمسلمين فيقول: «إن عربيًا كمحمد لا بد وأن يكون قد سمع كل هذه القصص والأحداث ، وتأثر بها » .

ويزعم كذلك أن اليهود والنصارى كانوا مدعومين بإمبراطورية قوية وغنية وكانت لهم هيئات منظمـة ومؤثرة ، وقد أسسوا دعـاواهم على كتب مقدسة نزلت عليهم من السماء منـذ زمن طويل ، وقد عرف هذان الفريقـان الله ، ذاته وصفاتـه ، كما عرفوا العبـادات المختلفـة من صـلاة وصيـام ، وقرابين . وبهـذا يتجـاهل الكـاتب الفروق الجوهرية والتاريخية بين التصور اليهودي للإله وبين التصور المسيحي له.

المنطق المعكوس ودعوى تأثر محمد بمسيلمة الكذاب :

ينتقـل رودينسـون بعد ذلك ليتكلـم عن اعتزاز العرب الجـاهليين بدينهم ،وذلك في إطار دعـوى مسـيلمة الكذاب للنبوة وموقف أهـل الجزيرة العربيـة منـه ، فيقول :«أما العـرب فـلم يكـن لهم عـلم بهذه المؤسسـات والمعاهد العلمية ، ولا بالكتب المقدسة. (كاليهود) بل كـانوا حريصين على وثنيتهم التي كانت لهم بمثابـة القومية ، ولذلك فلم

يسمحوا بظهور أي عقيدة مخالفة لعقيدتهم ، بدليل أنهم اضطهدوا الحنفاء ولاحقوهم حتى أسكتوهم . وكلمة حنيف ربما كانت بالنسبة لعرب الجاهلية تفسيرًا خاطئًا لكلمة آرامية بمعنى « الكفار ».

ويبدو أن الخيوط التي جمعها الكاتب من الروايات الضعيفة ليلفق منها فرية أخرى قد نفدت قبل أن يصل إلى تمام غرضه ، فطار بصره وطوح في الآفاق حتى وقع على مسيلمة الكذاب فوجد فيه طلبته فصوره ندًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسوى بين مزاعم مسيلمة الكذاب ودلائل نبوة محمد صلي الله عليه وسلم ، وجعل رسالة خاتم النبيين مساوية لدعوى شيخ الكذابين مسيلمة ، الذي لم يأت إلا بما يضحك الثكالى ، ويزيد أهل البلايا بلايا ورزايا (ص٦٧).

أما عن قصة هذا المتنبئ الذي يرفعه مكسيم رودينسون إلى مكانة خير المرسلين ، فإنه قال لبعض السذج أنه قد أشرك في الأمر(أي النبوة) مع محمد ، ثم جعل ينسج لهم الأساجيع ، ويقول لهم كلامًا سمجًا حاول أن يحاكي فيه النظم القرآني . ومن كلام مسيلمة الغث على سبيل المثال: «لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاة وحشى»، «إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر»، «والطاحنات طحنًا ، والعاجنات عجنًا ، والخابزات خبزًا»، وهذا الكلام من قبيل سجع الكهان ، وإنه لا يدنو قط من نظم أو بيان القرآن ، وإمعانًا في الكيد للإسلام فإن مسيلمة قد أحل لأتباعه الخمر والزنا ، ووضع عنهم الصلاة[1].

وقد كتب هذا المائق الكذاب رسالة بعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رجلين من أتباعه وهذا نص الرسالة : «من مسيلمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله : سلام عليك ، أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشًا قوم يعتدون» . ولما جاءا رسولا مسيلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ صلى الله عليه وسلم الخطاب سألهما : فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقول ما قال (أي مسيلمة) فقال صلى الله عليه وسلم: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» . ثم كتب النبى عليه السلام في الرد على مسيلمة «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب :

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج٤ ص١٦٤ وانظر أيضًا محمد عبدالعظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن. القاهرة. دار إحياء الكتب العربية، ١٩٨٠) ج٢ ص٣٣٤ - ٣٣٥.

السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». وكان ذلك في آخر سنة عشر للهجرة[1]. إلا أن رودينسون يشكك في التاريخ الذى كتبت فيه هذه الرسالة في معرض دفاعه عن مسيلمة . ولكي يؤكد رودينسون دعوى تأثر محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الكذاب ، فإنه يزعم أن مسيلمة قد سبق محمدًا صلى الله عليه وسلم في دعوى النبوة ، وأن محمدًا بالتالي قد تأثر به وأخذ عنه ، وهذا محض افتراء، واجتراء .

وقد انتهى أمر مسيلمة واندثرت دعواه وبقى الإسلام راسخاً وشامخاً يملأ القلوب بنوره وينشر العدل والسلام والإخاء في ربوع العالمين بتعاليمه السمحة والسامية.

إنني لا أكاد أتصور أن كاتبًا كمكسيم رودينسون يمكن أن يستخف بنفسه وبقرائه إلى هذا الحد، ويهمل منطق العقل وواضح النقل في الفصل في قضية واضحة وظاهرة، وذلك عندما يزعم أن مسيلمة كان ينشر نفس التعاليم التي جاء بها محمد صلى ا لله عليه وسلم ، لأنه كان نبياً مثله ، بل وكان متقدمًا عليه في دعوى النبوة كما أشرنا إليه. (ص٦٧).

ويستمر نفس الكاتب قائلاً أن محمدًا قد هاله هذا التغيير الذي حدث بين العرب بسبب الإسلام ، وهذا الانقلاب في القيم الاجتماعية التي ظهرت في حياتهم نتيجة للتعاليم التي جاءهم بها محمد، وأنه لذلك بدأ ينتقم من الأغنياء لشعوره بالمهانة التي ظلت تلازمه منذ الصغر حيث ولد يتيمًا وعاش فقيرًا إلى أن تزوج بخديجة فأغنته بمالها، وأنه تأثر أيما تأثر باليهودية والنصرانية إلا أنه ظل مع ذلك عربيًا ، ولم يقطع صلته بإخوانه من العرب، وأنه اتخذ ما وقع في الكون من حوادث عظمى كدليل على نهاية العالم الحاضر ، ومجئ يوم القيامة وذلك حتى يثبت صدق دعوته وصدق تنبئه . (٦٧و٦٨) .

إن الكاتب يتهم محمدًا بأنه إنما فعل ما فعل من دعوة الناس إلى الحق ، وإقامة شرع الله انتقامًا من الأغنياء وحقدًا عليهم ، وهذا تفسير مادى ماركسى تكذبه طبيعة الإسلام كدين وكتاريخ في الواقع ونفس الأمر . ويفسر رودينسون ما ورد فى القرآن الكريم من نبوءات حول نهاية هذا العالم بمجئ يوم القيامة تفسيرًا ماديًا كذلك ، فيقول أن محمدًا (وليس الله) هو الذي قال ذلك بناء على تجارب ومشاهدات ، وليس بناء على وحي أو إلهام .

(1) سيرة ابن هشام ، ج٤ ص١٨٣ .

وهذا تفسير خاطئ وزعم باطل لأن كل ما جاء فى القرآن هو كلام الله وليس كلام محمد ، وأن كلام الله عن يوم القيامة وما سيقع فيه من أحداث ووقائع عظمى يفنى على أثرها هذا الكون إنما هو حق لاريب فيه وأن الإيمان به ركن ركين من أركان العقيدة الإسلامية.

القسم الثاني
(٣)
ميــــلاد فــرقــة
Birth of a Sect

دعوى التطور الروحي للنبي والطعن في طريقة الوحي :

يبدأ رودينسون كلامـه عن محمد صلى الله عليه وسلم في الباب الثاني من كتابه ، بما يسـميه التطور الروحي لمحمـد Muhammad's spiritual development والذي أصبح الآن خاضعًا لعوامل خارجية كثيرة في زعمه ،كما سيتضح من كلامه في ما يلي .

يشير الكـاتب إلى غار حراء الـذي كان النبي ـ صلى الله عليـه وسـلم ـ يذهب إليه يتعبد فيه الليالي ذوات العدد من شهر رمضان من كل عام ، حتى جاءه جبريل بالقرآن عن الله تعـالى كما هو معروف ، مدعيًـا شـأنه شـأن كثير من المستشـرقين، أن دخوله صلى الله عليـه وسـلم الغـار كان بغـرض الاسـترواح والتفكـير والتأمل في الملكوت ، وهروبًا من جـو مكة الحارق والصاخب .وأن تحنثـه في الغار على هذا النحو كان مجرد عـادة انتقلت إليه إما بطريقـة مباشرة عن اليهود والنصـارى ، أو غير مباشرة عن طريق الحنفاء الذين أخذوها بدورهم عنهم .

ويستشـهد رودينسون على طبيعة الوحـي الذي كان يأتي إلى رسول الله صلى ا لله عليه وسلم بحديث السيدة عائشة بشأن ابتداء الوحي . والذي جاء فيه «أول ما ابتدئ رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم من الوحي الرؤيـا الصادقة ،وكـان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليـه الخلاء فكان يأتي جبل حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العـدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجـع إلى خديجة فـتزوده لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الحق فيـه فقال : اقرأ فقال رسول ا لله صلى ا لله عليـه وسـلم ، فقلت : ما أنـا بقارئ . قال : فـأخذني ، فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ ، فقلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال (اقرأ باسـم ربك الذي خلق) حتى بلغ (ما لم يعلم) ، قال: فرجع بها

ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال :(زملوني زملوني) فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال : يا خديجة مالي فأخبرها الخبر . فقال قد خشيت على نفسي : فقالت له : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق .....» الحديث [1].

ويربط الكاتب بين هذا النوع من الوحي وبين ما كان يأتي للراهبة تريسا ، و أيضا لبولس (ص٧٠) وهو بهذا يضع الراهبة تريسا وبولس في نفس المكانة مع رسول ا لله صلى الله عليه وسلم ، وما أبعد الفرق بين الاثنين وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن الكاتب على أي حال قد حدد لنفسه الطريق الذي سيسير عليه والطريقة التي سينتهجها في الكتابة عن محمد صلى الله عليه وسلم . إنه يصر على أن يجعل محمدًا صلى الله عليه وسلم من أهل التأملات الباطنية والخبرات الروحية الخاصة بحيث لا يبدو بينه وبين مثل هؤلاء الباطنين أي فرق .

يقول الكاتب:« إن محمدًا قد رأى فيما بعد كائنًا ينادي عليه ويلقنه بعض الكلمات ، إلا أنه لم يعرفه في البداية لكنه بعد ذلك استطاع أن يحدده بجبريل ، وإن كانت هناك رواية تقول أنه كان إسرافيل ، وعلى أي حال فإن ما رآه محمد واعتقد أنه ملكًا قويًّا أرسله الله إليه ربما كان انبعاثًا من داخل نفسه هو ، وذلك على مثال تلك الكائنات الغامضة التي أشار إليها النصارى ، يعني الروح ، والكلمة أو النفخة الإلهية » .

ويقول أيضا : «إن الليلة التي رأى فيها محمد جبريل عليه السلام في الغار وسمع منه لأول مرة قول الله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ...﴾ كانت ليلة السادس أو السابع والعشرين من شهر رمضان . تلك الليلة التي اعتبرت فيما بعد ليلة القدر أو التقدير ، التي ينزل فيها الله ، والتي جعلها المسلمون مناسبة دينية عظيمة يحتفلون بها كل عام» . (ص٧٣).

محمد ودعوى الخبرة الباطنية :

من الملاحظ أن مكسيم رودينسون لا يكف عن ترديد الزعم بأن محمدًا كان واحدًا من أهل الخبرة الباطنية والتخيل النفساني مثله مثل سائر الكهان . يقول في

---

(١) صفة الصفوة ، ج١ ص٢٧ .

تـأكيد زعمـه هـذا:« لقد كـان محمد يصرع ويصـاب بتشـنج عنيف يجعلـه يغيب عن الواقع بحيث يرى ويسـمع أشياء لا يشـعر بها الحاضرون معـه ، وبعد عودة الوعي إليه كـان يقول أنـه رأى الملـك ، وأن كلامًا أوحـي بـه إليـه ، هذا الكلام كـان يصدر من داخل نفسـه ، لا من مصدر خارجي عنه ، ولقد اسـتطاع محمد فيما بعد أن يجمع هذا الكلام ويصوغـه في عبـارات ادعـى أنهـا القرآن الـذي جـاءه من عند الله»(ص٧٥).

ودعـوى أن محمدًا كـان مصابًـا بـداء الصرع دعـوى قديمـة تحمل كبرهـا أجيـال من المستشـرقين والحانقين علـى النبي صلى الله عليـه وسـلم، وترجـع هذه الأسـطورة في الأصـل إلى الكتـاب البـيزنطيين والـتي يرفضهـا المستشـرقون في العصر الحديـث والتي يعتبرها الفرد جلوم خطيئة وتحيز ضد المسلمين يقول في كتابه *إسلام*

A past generation of arabists, on the bases of this tradition (The opening of the prophets breast referred to in the Quran) and accounts of the symptoms of physical distress which sometimes accompanied his utterances, advanced the theory that Muhammad was an epileptic. The Charge had been made by a Byzantine writer long before, such a hypothesis seems gratuitous, and can safely be ascribed to anti-Muhammadan prejudice. Study of the psychological phenomena of religious experience makes it extremely improbable. Prophets are not normal people but that doesn't authorize the assertion that their abnormal behavior is due to a morbid condition. Moreover, Muhammad was a man who's common sense never failed him. Those who deny his mental and psychic stability do so only by ignoring the overwhelming of his shrewd appraisal of others and of the significance of what was going on in the world of his time, and his persistence in the face of consistent opposition until he united his people in the religion of Islam. Had he ever collapsed in the strain of battle or controversy, or fainted away when strong action was called for, a case might be made out. But all the evidence we have points in the opposite direction, and the suggestion of epilepsy is as ground less in the eyes of the present writer as it is offensive to all Muslims. It may be

added that most modern writers, as opposed to those of the last generation, are of this opinion. To base such a theory on a legend witch on the face of it has no historical foundation is a sin against historical criticism.(١)

إن رودينسـون يفسـر كـل ما كـان يعتري النبي صلى الله عليـه وسـلم من عوارض الوحي وما كان يتبعهـــــا من رد فعل على أنها (عوارض كهانة لا أمارات نبوة) (ص٧٧).

---

(١) Alfred Guillaume, Islam, (Great Britain, Pelican books. 1976) pp.25f.

ولا يمل الكاتب من تكرار دعوى تأثر محمد باليهودية والنصرانية إذ نراه يقول : «إن الكائن الذي كان يراه محمد ، وأن الكلام الذي كان يسمعه ، أو يتهيأه ، إنما كان صدى لما سمعه محمد من اليهود والنصارى وتأثر به» . وهو يعني أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد اختزن هذه المعلومات ، التي سمعها من اليهود والنصارى، في عقله الباطن ثم أنضجها بحرارة حماسته وبتأملاته الباطنية وخبراته الروحية شأنه في ذلك شأن الكهان والروحيين . حتى أخرجها فيما بعد في هذا الشكل الأدبي المعروف الذي سماه «القرآن». ثم يتناول رودينسون نية أو قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء دعوته فيشكك فيها، وهذا الموضوع سبق أن تناوله مونتجمري وات بشيء يسير من الإنصاف في محاولة منه لتخفيف حدة المنصرين في طعنهم في عمل محمد وقصده معًا .

فقال إن محمدًا كان مخلصًا ولكن إخلاصه لا يعني أنه كان مصيبًا فيما يقول كما ذكرناه بالتفصيل عند الكلام عن وات . يقول مكسيم رودينسون أن النصارى والمدافعين عن النصرانية ، واللاهوتيين تحديدًا الذين صوروا محمدًا على أنه كان دجالاً كذابًا وصاحب حيل ، استطاع من خلالها أن يؤثر على معاصريه ويخدعهم، وأن دعوته بالتالي زائفة ، لم يهاجموا محمدًا وحده وإنما هاجموا أيضًا كل مؤسسي الديانات في العالم أجمع (.ص٧٦). ولكنه من الملاحظ أن المنصرين والمستشرقين يكونون أكثر حدة وأقل حيدة عندما يتناولون محمدًا صلى الله عليه وسلم ودينه بالكلام. وينقل رودينسون عن المستشرق الألماني هيربرت جريم زعمه أن محمدًا عندما أراد أن يناصر الفقراء ويحسن أحوالهم فرض الضرائب الباهظة على الأغنياء ولكنه لم يستطع تحصيلها منهم لأنه لم يكن يملك القوة التي يحقق بها ذلك ، لذا فإنه قد لجأ إلى تخويفهم عن طريق اختراع مجموعة من الأساطير أو الأفكار الأسطورية كالتخويف من يوم الحساب، ومن النار والعذاب الأليم الذي ينتظر البخلاء والأشحاء إذا لم يزكوا أنفسهم ويطهروا قلوبهم بدفع الزكاة . إن الكاتب يُعَرِّضُ هنا شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم مرة أخرى لتجارب وتحليلات علم النفس الغربي المادي فيقول: «إن علم النفس قد قرر أن بعض الناس تصدر عنهم أفعال غريبة وتتهيأ لهم رؤى خاصة ، ويتخيلون أصواتًا يسمعونها وكلمات يلتقطونها ، صادرة من منطقة اللاوعي أو العقل الباطن. حتى هؤلاء المصابين بداء الهلوسة ، يمكن أيضًا أن نحمل أقوالهم على الصدق أعني صدق النية فيما يشعرون به». ومحمد في نظر الكاتب من هذا الصنف من

الناس ، يعني أنه كان مخلصًا في التعبير عما يحس به ، ولكن كونه كان مخلصًا ليس معناه أن ما جاء به هو الحق ، وأنه كلام الله كما أشرنا إليه من قبل . إن محمدًا عنده مجرد صوفي ، فهو يضعه في نفس السياق مع صوفية النصارى ، القائلين بالاتحاد مع الله من خلال أعمال روحية معينة ، ومع صوفية الهنود القائلين بأن ما يحدث للصوفية إنما هو «خبرة فوق الوصف» خبرة مطلقة وغير شخصية ، وهي تمثل قاعدة الحقيقة الكاملة ، والتي يكتسبها صاحبها من خلال معرفة النفس . يقول جاردت: «إن هذه الخبرة ليست سوى الغموض والثراء اللا متناهي لكائن أو لمخلوق ما » (ص٨٠)، يشير الكاتب بعد ذلك إلى المتصوفة الحلوليين كالحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤-٣٠٩ هـ) (٨٥٨ -٩٢٢م) الذي قال :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا (١)

وهكذا يسوي هذا الكاتب بين البشر الخطائين ، والأنبياء المعصومين ، وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن الواضح أنه يعتمد على مزاعم علماء النفس الملحدين في وصف شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وهؤلاء النفسانيون الغربيون يسوون بين أهل السلوك الباطني أو المتصوفة والمرضى النفسيين بشكل عام ، وقد عدوا محمدًا عليه الصلاة والسلام منهم ، مع فرق واحد وهو أن الباطني يكون قادرًا على التحكم في نفسه وعلى ضبط خبراته وتوجيهها لصالح تحقيق فلسفته الخاصة في الحياة ، وأيضًا فإنه تتوفر لدى هؤلاء الباطنيين القدرة على بناء نسق فكري منظم لخبراتهم ، ومحمد ـ كما يزعم الكاتب ـ بالرغم من نقاط ضعفه ، فإنه من وجهة النظر الصوفية أو السلوكية الباطنية ، يعد من هذا الصنف لأنه مثل الصوفية العظام قد جاهد كثيرًا من أجل ضبط نفسه وإخضاعها، وإن هذا المسلك الصوفي أو الباطني قد اكتسبه محمد كنتيجة لاحتكاكه برهبان النصارى (ص٨١). ولسنا ندري كيف توصل محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا كله، ومن هم يا ترى هؤلاء الرهبان الذين عاصرهم واحتك بهم وتعلم منهم واقتفى أثرهم . إن مكسيم رودينسون لم يقدم أدلة على دعواه وإنما طَرَّ ظنونيات وطبوليات أراد من خلالها أن يجرد الرسول صلى ا لله عليه وسلم من الوحي والعصمة والأصالة ومن حسن القصد.

يسيء نفس الكاتب كثيرًا إذ يزعم دون علم أو حس لغوي يمكنه من فهم لغة

(١) انظر ديوان الحلاج (القاهرة. مكتبة الكليات الأزهرية) ص٤٧ - ٤٨.

العرب ، أن الآيات والكلمات الأولى التي عزاها محمد إلى ربه ، جاءت ككلام الكهان مسجوعة ، ولقد كان تصرف محمد أثناء وبعد تلقي ما سماه وحيا يشبه أيضًا تصرف الكهان وسلوكهم ، فقد كان محمد ترتجف أعضاؤه ، ويتحدر عرقه ، وتتحرك شفتاه بعصبية، وكان إذا ذهب عنه الروع من أثر التلقي طلب دثارًا يتدثر به ، تمامًا كما كان يفعل الكهان والعرفاء في الجزيرة العربية ، ولسنا ندري أيضًا كيف توصل الكاتب إلى تلك المعلومات الخطيرة في وصف الكهان والعرفاء ، والاطلاع على أدق تفاصيل حياتهم وأعمالهم ؟ وما هي يا ترى تلك المماثلة أو المشابهة بين ما كان يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي استأثر بالقلوب والعقول ، وبنيت على أساسه شريعة كاملة ، وأمة عظيمة ، وبين ما كان يصدر عن الكهان من كلمات لا معنى لها؛ تطير مع الهواء كالخفافيش ، لا تنفع ولا تدفع .

يزعم رودينسون أيضًا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان رجلاً ثوريًا شأنه في ذلك شأن سائر الباطنيين ، وذلك لأنه وقف ضد معتقدات قومه بجرأة وبقوة و لم يهادنهم في شيء ، وذلك لقوة شخصيته ومتانة إيمانه بمبدئه . إن الكاتب الحائر يخلط هنا بين صفات العمالقة وصفات الأقزام ، فيخلع جهلاً على العملاق بعض صفات القزم وأهل الطبقة الدون من الناس ، ويخلع على القزم الفدم ، لصيق التراب صفات العملاق العظيم التي هو منها براء وليس لها بأهل .

مزاعم رودينسون حول القرآن :

بعد أن أثبت رودينسون بطريقته غير العلمية أن شخصية محمد هي نفس شخصية الكاهن، وأن سلوكه صلى الله عليه وسلم هو سلوكه ، انتقل بالهجوم إلى القرآن الكريم فزعم أنه من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، كما تكررت الإشارة إليه فيما سبق ، وزعم كذلك أن القرآن الكريم لم يكتب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. هذا بالرغم من كثرة الروايات التي تؤكد كلها أن القرآن كان مكتوبًا في عهده صلى الله عليه وسلم على ما تسنى من الرقاع والعسف والجريد والزرر وأوراق البردي والآباطي وغيرها، وذلك إلي جانب صدور الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يحفظونه، كله أو بعضه، بدرجات متفاوتة. وسجلوه من ثم في الفؤاد كما سجلوه بالمداد ثم جمع القرآن في عهد أبي بكر في الربعة وذلك بعد مرور عام واحد من وفاة

النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم جمع القرآن في مصحف واحد على عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، بمشورة واتفاق جميع الصحابة رضوان ا لله عليهم. وهذا المصحف هو الذي يتداوله المسلمون إلي اليوم يقول نلدكه أن قبول الكافة لهذا المصحف: «يعد أقوى دليلاً على أن النص القرآني على أحسن صورة من الكمال والمطابقة» وهذا المصحف هو الوحيد المتداول بين المسلمين في شتى بلدان العالم الإسلامي بما فيها فرق الشيعة ، بل والفرق التي خرجت عن الإسلام مثل القاديانية والبهائية ، وذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، وبناء علي ذلك يقول لوبلو بحق «إن القرآن اليوم هو الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر» ويقول موير «إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد إلى يد بدون أي تحريف ،ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ أي تغيير يذكر بل نستطيع القول بأنه لم يطرأ عليه أي تغيير علي الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها ، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة... فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل علي صحة النص المنزل الموجود معنا»(١) .

يزعم الكاتب كذلك أن عثمان قد أمر بحرق باقي النسخ وإلزام جميع المسلمين بمصحفه وهذا خطأ كما أوضحناه بالدليل عند كلامنا عن جمع القرآن. يقول رودينسون :«وإنه بالرغم من وجود بعض الاختلافات في النص القرآني ، وعدم مراعاة ترتيب السور والآيات بحسب نزولها فإن المستشرقين قد سدوا هذا العجز فرتبوا المصحف بحسب النزول وكانوا أمهر من المسلمين في ذلك. ثم ظهرت بعض ترجمات للقرآن على أساس هذا الترتيب الاستشراقي – يعني ترتيب فلوجل - وعلى سبيل المثال تعتبر أحسن ترجمة فرنسية للقرآن بحق هي ترجمة بلاشير الفرنسية ، وترجمة ريتشارد بيل الإنجليزية» (ص ٨٥ ، ٨٤)، وينبغي هنا أن ننبه باختصار على أن القرآن كان محفوظًا ومبثوثًا في الآفاق قبل وبعد حكم الخليفة عثمان ، وكانت المصاحف كثيرة ومنتشرة في أيدي الناس ، عامتهم وخاصتهم ، وكانت الكتاتيب وحلقات تحفيظ القرآن في البلاد الإسلامية تعد بالآف ، وكان القرآن منذ حياة النبي صلى ا لله عليه وسلم نص واحد ولكنه كان يقرأ على عدة أوجه كلها منزل ومرخص فيه من ا لله

---

(١) انظر محمد عبدالله دراز مختصر مدخل إلى القرآن الكريم : ترجمة محمد عبدالعظيم علي. القاهرة ، دار الدعوة ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ص١٠-١٢.

ورســـوله وهذا هو مـــا يعرف بـالقراءات القرآنيـــة أو الأحرف الســـبعة التي لا تعدو الاختـلاف في شكل الكلمـة القرآنية غالبًا[1]، هذا من جانب ، ومـن جانب آخر فإن ترتيب الســور وآيات القرآن توقيفي من فيـه رسـول ا لله صلى ا لله عليـه وسلم ، وإلا كيف أمكن للمسلمين أن يصلوا بآياته وسوره ويشيروا إليه سورة وآية تحديدًا.

يستعرض رودينســون بعد ذلـك بعض الآيات من القـرآن مع التعليق عليها، وتدور كل اقتباسـاته القرآنية تقريبـا على أوصـاف الجنة والنـار متسـائلاً «من أين جاء محمد بهذه الصور الجميلـة والتفاصيل الدقيقة في وصف العـالم الآخر الذي رسمه بالكلمات ، هل جاء به نتيجة لتأثير الهلوسة عليـه أو بسبب التياث عقله ؟ والذي كان شيئًا متوقعًا منه بحكم طبيعته وتكوينه، وذلك على منوال ما كان يحدث للشعراء والعرافين العرب، إنه لا يوجـد لدينا أي برهان يرجـح أيًا من الاحتمـالين على الآخر !». ويجزم الكاتب بـأن هذه الأوصاف الممتـازة للقصور ولحياة الـترف والنعيم كما ذكرت في القرآن ، لم يعرفها العرب قط، وإنما عرفتها الأمم المتحضرة فحسب» (ص٨٤-٩١).

لم يستطع الكـاتب اليهودي الماركسـي أن يقدم لنـا تفسـيرًا مقنعًـا لمصدر الوصف القرآني لنعيـم الدار الآخرة إذ أنـه بدلاً من أن يسـلم بـأن مرد ذلك كلـه إلى ا لله وبأن القرآن هو مـن كلام الله ولا بد ، يزعـم علـى العكس أن محمدًا قـد انتحلـه من اليهود والنصارى، هكذا بلا دليل نقلي أو عقلي.

إن رودينســـون يشـكك في أصالـة القرآن وفي أسـلوبه ولغتـه إذ أنـه يرد القرآن من حيث المحتـوى إلى اليهوديـة والنصرانيـة ، وإلى القصـص والحكايـات العربيـة القديمـة ، ويزعـم بالإضافـة إلى ذلـك بـأن الأسـلوب والنظم القرآنيين كانـا مسـبوقين وليسـا أصليين، وبالتالي فهما منتحلان كذلك من كتب اليهود والنصارى (ص ٩١).

أمـا الكاتبـة الغربيـــة كـارن أرم اســترونج Karen Armstrong فتختلـف في هذا مع رودينســـون حيث تقول : « لقد جـاء محمد بـالقرآن الذي فـاق أو تجـاوز كل الأنماط الأدبية التي عرفها العرب، حتى إن هؤلاء القرشـيين الذين رفضوا الخضوع للإسلام قد تـأثروا بالقرآن واضطربـوا بسـببه وذلك لأنـه كمـا قلنا كـان مخالفًا لمعهودهـم في اللغة ولأنماطهم الأدبية المعروفة، إنه لم يكن مثل إلهامات كهانهم وشعرائهم، Inspiration of the Kahin or Poets ، ولا هو كرقى أو تصورات السـحرة Incantation of magician،

---

(١) انظر السيوطي ، الإتقان ، ج١ ص١٣١ و ١٧٥ .

بل إن القرآن قد ملك على بعضهم عقولهم وقلوبهم، وقد أسلم كثير منهم بسبب تأثرهم بالقرآن، الذي لولاه لما كان الإسلام نفسه». ثم تقول نفس الكاتبة :« إنه بفضل القرآن قد استطاع محمد أن يحول العرب من الوثنية إلى التوحيد في مدى ثلاث وعشرين سنة هذا بينما أخذ الإسرائيليون القدامى حوالي السبعمائة سنة ليتخلصوا من محض الولاء للوثنية إلى الولاء لديانة التوحيد». (١)

وفي نفس القرينة يقول جول ديفيد في مقال له بعنوان توافقات واختلافات بين القصص الديني في التوراة والقرآن ، في المقارنة بين القصص الواردة في القرآن والواردة في التوراة « إن الجوهر فيها كلها واحد والاختلاف - بينها - ليس إلا في الشكل ، وفي تفاصيل طفيفة للغاية»(٢).

ويقول رودينسون إن المسلمين يعتقدون في كمال القرآن ، وإعجازه في نظمه ومعانيه، وأنه لا يمكن لبشر أن يحاكيه أو حتى يدانيه ، ولكنه يرفض هذا قائلاً «إنه في العصور الوسطى قد أبدى بعض المسلمين الأحرار استعدادهم لمحاكاته ، حتى أن واحدًا منهم قال متعجبًا! كيف يمكن للإنسان أن يفهم القرآن أو ينتقده ويمعن في فحصه لاكتشاف ما فيه من أخطاء ، في الوقت الذي تربى ونشأ على سماعه، وحفظه دائمًا واعتاد عليه وألفه، ورأى الناس من حوله يمجدونه ويرهبونه فضلاً عن محاولة محاكاته ، كيف لِلْعَين التي تعودت قراءته ، والأذن التي تعودت سماعه ، والعقل الذي حفظه منذ الصغر ، وشب معه ورافقه واعتاده طوال عمره أن يدرك ما فيه من خطأ، بل وكيف لمن أراد أن يحاكيه أن يجد من يقبل منه رأيه لهذا السبب» (ص٩٢).

انظر إلى هذا الغمز في كتاب الله ، ومحاولة الكاتب أن يستدرج القارئ المسلم لكي يتشكك في صحة القرآن ويتجرأ على الطعن فيه، وفي نفس الوقت فإنه يضلل القارئ الأوربي فيصرفه عن محاولة فهم القرآن فهمًا صحيحًا .

وعلى عكس ما يزعم رودينسون فإن معايشة القرآن والاهتمام به منذ الصغر يعتبر معجزة أخرى تضاف إلى معجزات القرآن الكثيرة ، وهي دليل دامغ آخر على حفظه الذي تكفل الله به فهيأ لاستظهاره القلوب. ومن المعلوم أن أحدًا لم يجبر أحدًا على حفظ القرآن، بل إن النفوس هي التي هفت وحنت إليه وسارعت إلى حفظه وفهم

---

(١) A History of God. Ballantine Books, New York, 1993, P.146.

(٢) انظر محمد عبدالله دراز ، مختصر مدخل إلى القرآن الكريم : ترجمة محمد عبدالعظيم علي (القاهرة : دار الدعوة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) ص١٠-١٢ ، ٦٨.

معانيه والعمل بما فيه ، ولقد حفظه العربي والعجمي سواء بسواء وحفظه الكبار والصغار والرجال والنساء والأميون والمتعلمون؛ بل إن من إعجاز القرآن أن المسلمين كلما نظروا فيه أبصروا خيرًا يقود إلى خير ونورًا يهدي إلى نور ، والتقطوا منه دررًا وفرائد تغري دائمًا بطلب المزيد. إنهم لم يعموا بالنظر فيه وإنما أبصروا ، أبصروا معاني متجددة دائمًا ومتوالدة أبدًا ولذلك فهم لم يملوه و لم ينصرفوا عنه. غير أن رودينسون وضرباءه يأبون إلا أن يلزموا قارئ القرآن أن يقر بوجود أخطاء وأغاليط فيه ، وإلا فهو أعمى مستعبد للقرآن ، بحكم الإلف والعادة .

وأما قوله بأن بعض المسلمين ، الذين سماهم بالمفكرين الأحرار ، قد حاولوا تقليد القرآن ونحوا في ذلك فألفوا - في زعمه - ما أطلق عليه معارضات القرآن فخطأ بين .

فأين يا تري هي تلك الأعمال التي كتبها هؤلاء المعارضون حتى ندرسها ونقومها، وإننا لنتساءل هنا كيف لم يستطع أصحاب المعارضات المزعومة أن يفرضوا وجودها فتبقى على خط متوازٍ مع القرآن ؟. وإذا كان الكاتب يلمح بكلامه هذا إلى ما قيل عن ابن الراوندي الملحد الذي طعن في النبوة والتوحيد والمعجزات[1] ، أو ما قيل عن ابن المقفع أو أبي العلاء المعري أو غيرهم، فإنه أجمل القول لأن تفاصيله تظهر جهله وتعصبه .

نشير باختصار إلي ما قلناه في كتابنا القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي ، أن كتب وأعمال ابن المقفع والمعري على سبيل المثال لا تزال بين أيدينا ، وهي لا تداني بلاغة وبيان القرآن ، ولا ترقى إلى أي وجه من وجوه المقارنة بالنسبة له.

ثم يقول رودينسون أن المستشرق الكبير ثيودور نولدكه قد كتب باستفاضة عن الأخطاء الأسلوبية في القرآن (ص ٩٣). فهل ياترى يمكن أن يكون نولدكه حجة على لغة القرآن وأسلوبه وأن تكون حجته في مجال الدراسات القرآنية فوق حجة علماء المسلمين القدامى منهم والمحدثين ، الذين اتفقت كلمتهم على سمو لغة القرآن وكمال إحكام أسلوبه ؟ ومن الأحكام التعسفية لهذا الكاتب أيضا حكمه بأن «محمدًا لم يكن في باله أن يؤلف كتابًا وذلك لأن خبرته الأولى ، يعني خبرته الروحية لم تبن على الكلام وإنما على الأعمال الباطنية والرياضة الروحية كالكهان». وهذا تشكيك آخر في القرآن ، وفي رسالته العالمية وفي الإسلام جملة ، وإننا لنتعجب كيف يصل العداء

(١) انظر أبو الحسين عبد الرحيم الخياط، كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج، (القاهرة - مكتبة الدار العربية للكتاب - ١٩٩٣م) ص١ وما بعدها .

والحقد بإنسان إلى هذا الحد من التعسف ويجعله يتجاهل التاريخ والمنطق، و يكابر ضد الحقيقة الباهرة ، والواقع الثابت .

دعوى أن القرآن شعر وأن محمدًا كان شاعرًا :

وفي رأي رودينسون أن محمدًا كان شاعرًا وأنه كتب الشعر بلا شك ، ولكنه لم ينشره على الناس وفضل أن ينتظر حتى يقوم بالرسالة ويكتب أفكاره وما حصله طوال حياته من هنا وهناك بطرق مختلفة ، كما يزعم أن الرسالة التي أعطيت لمحمد كتبت أولاً بالشعر ثم حولت فيما بعد إلى هذا اللون من الكتابة الذي نجده في القرآن.

إننا لا نعرف ولا يوجد دليل البتة على أنه صلى الله عليه وسلم كتب الشعر قط، أو أنه وضع نفسه في مصاف الشعراء أبدًا، أو وضعه أحد من معاصريه أو من غير معاصريه في عدادهم، هذا بالرغم من علو مكانة الشعراء ونفوذهم في بيئتهم .

والقرآن نفسه ينفي نفيًا قاطعًا أن يكون محمد شاعرًا يقول تعالى : **﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ﴾** (يس: ٦٩) ، **﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾** (الحاقة: ٤١) .

يقول القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) في التعليق على هذه الآيات : «وهذا يدل على أن ما حكاه (القرآن) عن الكفار من قولهم أنه شاعر، وإن هذا شعر لا بد من أن يكون محمولاً على أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة. أو يكون محمولاً على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم، وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر؛ لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق لهم في المنطق. وإن كان ذلك الباب خارجًا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة . أو يكون محمولاً على أنه أطلق بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر. وهذا أبعد الاحتمالات.»[(١)]، ومعنى كلام الباقلاني أنه بالرغم من أن القرآن يختلف عن الشعر تمام الاختلاف فإن وصف الكفار للنبي صلى ا لله عليه وسلم يحمل على ثلاثة وجوه :

١- إما أنهم فهموا أن القرآن لا يمكن أن يقاس إلا بالشعر الذي يعرفونه ويألفونه.

٢- وإما أنهم سموا النبي بالشاعر وأرادوا به معنى الحكيم كما كان الفلاسفة

---

(١) إعجاز القرآن، تحقيق عماد الدين أحمد صدر، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، ص٧٦ - ٧٨ .

يطلقون على حكمائهم وأهل الفطنة منهم شعراء ، لما تميزوا به من دقة النظر وثقابة العقل.

٣- وإما أن يكون هذا الوصف قاله بعض الضعاف منهم ممن لا يستطيعون أن يميزوا بين الشعر والنثر.

فإذا كان العرب قد عنوا بتسميتهم القرآن شعرًا على جهة وصفه بالسمو والحكمة كان إطلاقهم صحيحًا من هذه الجهة ،لأن ذلك كان غاية جهدهم ومبلغ علمهم في تقدير عظمة القرآن وسموه. أما التسوية الكاملة بين القرآن والشعر وبين النبي والشاعر فإنها مرفوضة بنص القرآن الكريم، ولزيادة الإيضاح نقول : إن العرب الذين وصفوا الرسول بالشعر إنما فعلوا ذلك لما كانوا يعتقدون من أن الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره، وأنه إذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه أقدر وأمهر. فنسبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشعر لهذا السبب، وإنما كان مقصودهم هو الاعتراف على طريقتهم بالقيمة الأدبية للقرآن، فهم وإن كانوا أصابوا من جهة فقد أخطأوا من جهات ، وربما كان لهم العذر في ذلك إذ لم يكن لديهم إلا هذا المعيار النقدي ولا عندهم أسمى من الشعر منزلة. ومما يجدر معرفته أن هؤلاء الذين وصفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر والقرآن بأنه شعر كانوا يدركون تمامًا الفرق الواضح والكبير بين الشعر والقرآن وبين الرسول صلى الله عليه وسلم والشاعر كما اعترف به الوليد بن المغيرة كما مر بنا .

ولو كان القرآن شعرًا لسهل عليهم أن يحاكوه أو أن يأتوا بمثله فقد كانوا من أمهر الأمم في الشعر إبداعًا وتذوقًا ، ورواية ورعاية ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ولا حاولوه. ثم إنه بعد أن انتهى الصراع بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد أن انتصر الإسلام وساد في أنحاء الجزيرة العربية لم تظهر مثل هذه الدعوى قط، بل لقد تحول الجميع بما فيهم الشعراء والكهان إلى القرآن فحفظوه وجودوه ودرسوه ، وعملوا بأحكامه ، وأذعنوا لبلاغته ، وصار الشعر من ثم في درجة متأخرة بالنسبة للقرآن بعد أن كان هو المقدم عند العرب.

وأما ما ادعاه بعض المتنطعين من أن القرآن يحتوي على بعض الأشعار، أي الكلام الموزون المقفى فإن ما أشاروا إليه هم أنفسهم من البيت أو البيتين لا يصلح أن يكون دليلاً علي دعوى أن القرآن شعر ، لا من حيث التركيب ولا من حيث الأسلوب والغرض . وعلى سبيل المثال جاء قول القائل :

قد قلت لما حاولوا سلوتي هيهات هيهات لما توعدون

زعموا أن الآية (٣٦) من سورة المؤمنون جاءت بهذا الشكل شطرة من بيت.

ومما يزعمون أنه شعر قوله تعالى : ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ (سبأ: ١٣)، قالوا هو من بحر الرمل وهو من الوزن الذي جاء عليه هذا البيت.

ساكن الريح نطوف الـ مزن منحل العـــزالي

كما عدوا منه قوله تعالى : ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ (فاطر: ١٨)، قالوا هو من بحر الخفيف ومنه قول الشاعر :

كل يـــوم بشمســه وغـد مثل أمسه

وكقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(٢)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢ -٣) قالوا هو من المتقارب، وقوله تعالى : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (الإنسان: ١٤)، قالوا إنه بإشباع حركة الميم في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وهي الضمة يكون من بحر الرجز، وأوردوا عن أبي نواس(ت ١٩٩ هـ) أنه ضمن ذلك في شعر له على هذا النحو :

وفتية في مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيل

دانية عليهم ظلالـــــها وذللت قطوفها تذليـــلا

على أن هذين البيتين ليسا في ديوان أبي نواس، لكنه يوجد من شعره من هذا النوع ومنه :

وقرأ معلنا ليصــــدع قلبي والهوى يصدع الفواد السقيم

أرأيت الذي يكذب بالديـن فذلك الذي يدع اليتيـــم[1]

فإنه قد ضمنه آيات سورة الماعون (١ - ٣).

كما عدوا من ذلك قوله تعالى:﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا(١)فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا(٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ (الذاريات ١ - ٣) من موزون بحر البسيط .

وقد نوهنا من قبل أن وجود مثل هذا الكلام الموزون لا يعني أن القرآن شعر ، إذ لو أننا أخذنا بهذا المنطق لوجدنا من كلام الناس الكثير من هذا النوع مما لم يقصد أصحابه أن يقولوا شعرًا.

---

(١) الباقلاني ، إعجاز القرآن (ص٧٧) وأبو نواس ، ديوان ، بيروت ، دار صادر) ص٥٥٩.

إن «البيت الواحد» كما يقول الباقلاني: «وما كان على وزنه لا يكون شعرًا»، فأقل الشعر بيتان فصاعدًا.

وقالوا أيضًا إن ما كان على وزن بيتين، إلا أنه يختلف رويهما وقافيتهما فليس بشعر. ثم منهم من قال إن الرجز ليس شعرًا أصلاً، لا سيما إذا كان مشطورًا أو منهوكًا. وكذلك ما كان يقارنه في قلة الأجزاء. وبهذا يبطل الاحتجاج على كون القرآن شعرًا لمجرد وجود مثل هذه الفقر المتفقة فيه .

طعن رودينسون في عقيدة الألوهية في الإسلام :

الاسلام هو دين التوحيد الخالص ، والتنزيه المطلق للذات الإلهية ، فلا تشبيه ولا تجسيد ولا تحديد ، ولا تكييف بجائز على الله تعالى أبدًا، وهذا هو ما يتميز به الإسلام من بين الأديان جميعا. ومن العجيب أن يزعم رودينسون بأن إله المسلمين لم يمانع في بداية الدعوة الإسلامية أن يعترف بوجود آلهة أخرى لها تأثيرها في الكون ، وأن محمدًا، كان يدرك ذلك بدليل قوله فيما بعد ، وعندما شن الحرب على أهل مكة ، «ا لله أكبر» يعني بذلك أن الله أكبر من الآلهة الأخرى (ص ٩٧) . ونفس الكلام قرأناه في مقال على شبكة المعلومات يهاجم فيه صاحبه الإسلام بلا حياء، ويتهم فيه المسلمين بعبادة القمر .

ويزعم رودينسون كذلك أن محمداً قد وصل إلى فكرة الإله الواحد من خلال احتكاكه باليهود والنصارى ، ويقول إن الأفكار التي أراد محمد أن يقدمها في هذا الصدد ليست أصيلة في نفسها وإنما هي منتحلة وملفقة من هنا وهناك ، ولكنها على أي حال تصلح كمادة لرواية تقوم في عرضها على طريقة جد شخصية . لقد اختزل هذا الكاتب اليهودي الإسلام والرسول صلي الله عليه وسلم في مجرد رواية شخصية خاصة بمحمد وهذه في نظرنا قلة مبالاة بالحقائق الدينية وبالحقائق التاريخية وقواعد المنهج العلمي معًا ، هذا فضلاً عن مصادمة هذه الدعوى الفارغة لمشاعر المسلمين ، ومشاعر المنصفين من غير المسلمين. وهو بهذا يخادع نفسه بتصويره للإسلام على هذا النحو الضيق الذي يتنافى مع عمق وسعة وعالمية الإسلام ، وعظمة رسوله صلى ا لله عليه وسلم . وفي نفس الاتجاه يقول رودينسون أنه بالرغم من أن محمدًا قد استعار أفكاره الدينية من اليهود والنصارى وصبها في قوالب تتناسب مع الذوق العربي ، ومع

المعتقدات العربيــة ، فإنـه اعتقد أن الوجود أو الملكـوت من وراء الحـاضر المشـهود قد أعلن له عن نفسه . فمحمد إذا لم يفعل شيئًا ، من وجهة نظر رودينسون ، أكثر من تقديم التعاليم اليهوديـة والنصرانية التي تعلمها من اليهود والنصارى ، مشفوعة بدعوى الاتصال بعالم الغيب .(ص. ٩٧ وما بعدها).

هذا منطق معكـوس وفكر رجل لا يرى في الدنيـا غـير نفسـه ، ولا يـرى الله عبادًا مبدعين ، أو رسـلاً مبلغين أو مصلحين عظمـاء إلا من بـين من يعرفهم . إنـه لم يثبت بطريق العقل أو النقل الصحيـح أن محمدًا قد أخذ من اليهـود والنصارى ، كمـا ذكرنا من قبـل ،وكـل ما قدمـه الكـاتب في هـذا الصدد ، لا يعـدو أن يكـون افتراضـات ووهميات وطبوليات وشنشـنة غربية يهوديـة ، إنه لم يثبت وقوع الانتحال أصلاً حتى يقـول إن محمدًا صاغه صياغـة عربية ملائمـة لذوق قومه ؛ مـع أن رودينسون قد ادعى فيما سبق أن محمدًا قد اسـتعار فيما استعار أيضًـا الشكل والأسـلوب الأدبيين للقرآن الكريـم من اليهود والنصارى ، ولكنه يتناقض هنا فيقول أنـه صلى الله عليه وسلم قد قـام بتطويع وتكييف مـا اقتبسـه من هـذه المصادر حتـى تلائم التذوق الأدبي للعرب . وهل من المعقول أن نقول إن الإسـلام ، وأساسـه ومصدره القرآن، لم يرض إلا الذوق العربي ؟و مــاذا عن الـذوق الفارسـي والذوق الهنـدي والرومـاني ، والإندونيســي ، والماليزي ، والإفريقي ، والأسيوي بشكل عام ، لقد وجد أهل هذه البلاد في القرآن ما لم يجدوه في لغـاتهم الأم ، ولا في آدابهـم وعلومهم الأولى ولقد حفظـت الملايين منهم القرآن عن ظهر قلب ومهروا في علومه و معارفه، ولايزالون يحفظونه.

مزاعم رودينسون حول الصحابة.

لم يسلم صحابـة رسول الله صلى الله عليه وسـلم من طعن رودينسون وافتراءاته . فقـد أشار إلى السيدة الطاهرة خديجـة رضوان الله عليهـا التي زعم أنها كـانت تسيطر على محمد وتستذله بمالها. وإلى علي بن أبـي طالب رضي الله عنـه الذي ربي في بيت النبي ، وإلى زيد بن حارثة رضي الله عنه مدعيًـا أنه هو الذي علم النبي صلى ا لله عليه وسلم الديانة النصرانية إلى حد كبير والتي كانت شائعة في قبيلته «كلب» (ص ٩٩).

وأن عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يعتنق الإسلام إلا بسبب حبه لرقية بنت خير المصطفين. وأن أبا بكر وعمر كانا يؤثـران على محمد صلى الله عليه وسلم تأثيرًا كبيرًا

لأنه كان متزوجًا من ابنتيهما السيدة عائشة، والسيدة حفصة رضوان الله عليهما. وإن أبا بكر كـان من عبدة الأبطـال وأن طبيعتـه كانت تشـبه طبيعـة النسـاء إلى حد كبير ولذلـك فإنـه كان ينقـاد لمحمد انقيـاداً أعمى (ص ٩٩). ويضيف رودينسـون قائلاً إن أصحاب محمد الأوائـل كانوا من ذوي الفكر الحر، ومن المتطلعين إلى الثقافة الأجنبية ، بتعبير عصرنا الحديث، لذلك سهل عليهم أن يتركوا دينهم القديم ويتبعوا محمدًا (صلى الله عليه وسـلم) الـذي جاء إليهـم بعلوم وثقافـة من الخـارج . وصبهـا لهم في قوالب لغتهـم (ص. ١٠٢) كيف يجوز مثل هـذا الكـلام وكيف يصـدر عن كـاتب غربي يفترض فيه أنـه يعرف أصول الكتابة العلمية ؟ إنـه لم يقدم دليلاً واحدًا مباشرًا أو حتى غير مباشـر على صحة دعـاواه العريضة. إنـه على العكس ممـا يصوره رودينسـون فإن هؤلاء المسـلمين الأوائل كـانوا من أبناء البيئـة العربية ، ومن المتـأثرين بها شـأنهم شأن غيرهم من العرب بصفة عامة ، ولم يكن تحولهم من الوثنيـة والشرك إلى الإسلام، ديانة التوحيـد، بهذه السـهولة التي يحاول أن يصورهـا رودينسـون . لقد بذل الرسـول صلى الله عليه وسـلم جهـدًا مضنيًا وتحمل أذىً شـديدًا في سـبيل إقنـاع المشـركين بدعوته، وإدخـالهم في دين الله ، حتـى اهتدوا فـأبصروا النور الـذي جـاء بـه محمـد واعتنقوه وعشـقوه وافتدوه بأرواحهم ، ولم يثبت أن واحدًا منهم كـان قد أعلن تمرده على دين قومه أو على تقاليدهم وعـاداتهم الدينية أو الاجتماعية قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

أقوال الصحابة وعلماء الأمة في رسول الله وفي القرآن:

في هـذا الموضع نتحـدث عن بعض صحابـة النبي وبعـض زوجاتـه صلـى الله عليـه وسـلم الذين تعرض لهم رودينسـون بالطعن والتجريح، وشـكك في موقف بعضهم من الرسول ومن القرآن .

كـان القرآن منذ نزولـه علـى رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ولا يزال إلى اليوم وحتى قيـام الساعة هو النـور المبين الذي أضاء حياة النـاس وملأ قلوبهم بالإيمان وبحب الفضـائل ومكارم الأخـلاق ، لقد شـغل القرآن المسـلمين منذ أن كـانوا جماعـة صغيرة العدد حتى صـاروا أمة عظيمـة واسـعة الانتشـار والتأثير . ولكي نبرز هنـا تأثير القرآن العظيم على المسـلمين ومدى عنايتهم به نعرض هنا بعض أقوال الصحابة وعلماء الأمة

في القرآن الكريم ، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . كانت بيوت النبي صلى الله عليه وسلم مضاءة بمصابيح الوحي، مزدانة بأزاهير التنزيل تزينها رياض القرآن . قال الله تعالى لنسائه صلى الله عليه وسلم ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ الأحزاب (٣٤). وكتاب ا لله هو القرآن، والحكمة هي السنة وهي المبينة للقرآن والمفسرة له، وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي .

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها هي أول من آمن برسول ا لله وأول من سمع القرآن من فمه صلى الله عليه وسلم. وعندما سمعت منه القرآن أيقنت على الفور بأنه لا يمكن أن يكون هذا الكلام من كلام الجان أو الشيطان ، قالت لرسول ا لله صلى الله عليه وسلم عندما قال لها بعد عودته من غار حراء «خشيت على نفسي» «كلا أبشر فو الله لا يخذيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل (الضعيف) ، وتقرى (تكرم) الضيف ، وتعين على نوائب الحق»(١)، وبهذا فقد وضعت السيدة الطاهرة معيارًا لا يختلف عليه للتمييز بين كلام الله وكلام البشر، وبين آثار كلام الله في النفس وبين وسوسة الشيطان وأثرها في القلب.

كانت السيدة خديجة أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كانت عند زواجها منه بنت أربعين سنة أو نحوها ، ولذلك فقد كان دورها يتجلى في الرعاية التامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي المساندة الأدبية والروحية له عليه السلام وكما هو واضح من حديثها فإنها كانت امرأة ذكية وقوية الشخصية ، لها مهارة في تفسير الظواهر والمواقف ، وتوضيح الغامض من الأمور وفي هذا دليل على فقهها في معرفة النفوس، ومعرفتها القوية كذلك بالصلة بين مكارم الأخلاق ووحي الخلاق تبارك وتعالى.

جاء في الصحيحين عن علي رضي الله عنه:«خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة عليها السلام» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذه خديجة أتتك بإناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة، من

(١) ابن كثير ، مختصر تفسير، ج٣ ص٦٥٦ وأبو عبدالرحمن ابن الجوزي، صفة الصفوة ، الاسكندرية، دار ابن خلدون، ج١ ص٢٥٦ و ٢٥٧، وابن حجر العسقلاني ، ج٤ ص٢٨١.

قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

أما السيدة عائشة ، الصديقة بنت الصديق فكانت صغيرة في السن قوية فتية زكية وذكية، زوجها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في هذه السن لتكون أقدر على حفظ كلام الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قوة الملاحظة والضبط، وأن تكون سندًا له صلى الله عليه وسلم وعونًا ، وهي في أوج شبابها وذروة نشاطها البدني والعقلي والنفسي والروحي. كانت السيدة عائشة رضي ا لله عنها حافظة فقيهة وراوية واعية وخبيرة بأنساب العرب وأشعارها ورحلة في مواقفها إذ كانت توصف برحلة النساء . رأت جبريل الأمين عليه السلام أكثر من مرة، ونزل بالوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرتها وأقرأها جبريل عليه السلام كما أقرأ خديجة السلام، وردت عليه السلام وقالت:«جزاه ا لله -أي جبريل- من صاحب ودخيل - ضيف- خيرًا فنعم الصاحب ونعم الدخيل». وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها أول من ربطت بين القرآن وبين أخلاق رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذ قالت وقد صار قولها سيد الأمثال ، لما سئلت عن خلق رسول ا لله: «كان خلقه القرآن»(1) .

أنزل الله في براءتها من فرية المنافقين قرآنًا يتلى إلى يوم الدين ، جاء عنها رضي الله عنها وفى بداية محنتها قالت لأمها : (... وأنا جارية حديثة ، السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن بلى إني والله قد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا (أي حديث الإفك) حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة ، والله عز وجل يعلم أني بريئة ، لا تصدقوني، وإن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة تصدقوني ،وإني والله لا أجد لكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ .

قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة، وأن الله عز وجل مبرئي ببرائتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فِيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني ا لله عز وجل بها.

قالت : فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من أهل

البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في شات من ثقل القول الذي أنزل عليه. قالت : فسرى، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشري ياعائشة ، أما الله عز وجل قد برأك ... فأنزل ا لله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾. قالت : فقالت لي أمي : قومي إليه ، فقلت: والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذي أنزل براءتي ، وأنزل الله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾ العشر الآيات كلها.. فأنزل الله تعالى هذه الآيات ببراءتي»(١) .

عن عروة عن أبيه أن عائشة – رضي الله عنها – كانت تسرد الصوم وعن القاسم قال كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أسلم عليها فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ : ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾(الطور٢٧) وتدعو وتبكي وترددها، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي ثم رجعت فإذا هي قائمة تصلي وتبكي .

قال مسروق عن عائشة عن فاطمة عليهما السلام : «أسر إلي النبي صلى ا لله عليه وسلم أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة ، وإنه عارضني العام مرتين ، لا أراه إلا حضر أجلي» رواه البخاري.

وروى الزهري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان النبي صلى ا لله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله صلى ا لله عليه وسلم القرآن فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة). البخاري . ومعنى يعرض عليه القرآن أي يقرؤه عليه ويدارسه إياه. وعن أبي هريرة قال : (كان يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كل عام مرة فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض، وكان يعتكف كل عام عشرًا، فاعتكف عشرين في العام الذي قبض) البخاري .

وما هذا الحرص إلا لشدة العناية بالقرآن وتأكيد سلامته من أي لبس أو احتمال تحريف بزيادة أو نقصان ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يراجعه مع جبريل طوال شهر رمضان كل عام وفي العام الذي توفي فيه صلى ا لله عليه وسلم راجعه مع

---

(١) ابن كثير ، مختصر تفسير، ج٢ ص٥٨٧ ـ ٥٨٨، وابن الجوزي ، صفة الصفوة، ج١ ص٢٦٢-٢٦٥.

جبريل مرتين، وأكد هذا المعنى اعتكافه صلى الله عليه وسلم عشرين يومًا بدلاً من عشرة أيام ، كان شغله فيها صلى الله عليه وسلم العبادة وقراءة القرآن ،وفي هذا أيضًا مزيد عناية بالقرآن وحياطة له لا تترك للشك مجالا ،

ولا للريبة منفذًا وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر٩). هكذا بهذه التأكيدات اللفظية الإعجازية التي تتجلى في إنا، ونحن ،ونا في نزلنا، وله ،وإعادة إنا وإدخال اللام على﴿حَافِظُونَ﴾ .

عن أبي موسى الأشعري قال : (ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط فسألنا عائشة عنه إلا وجدنا عندها منه علمًا) وعن مسروق قال : «نحلف بالله لقد رأينا الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عائشة عن الفرائض» .

وعن عروة عن أبيه قال : (ما رأيت أحدًا من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة، ولا بحلال، ولا بحرام ، ولا بشعر، ولا بحديث العرب، ولا بنسب من عائشة رضي الله عنها) وكان فقه عائشة موضع إعجاب الصحابة . قال الزهري رضي الله عنه : (لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وجميع النساء كان علم عائشة رضي الله عنها أكثر)(1) .

وقد انعقدت الثقة في أم المؤمنين حفصة بنت الفاروق عمر حيث وضعت عندها الربعة أي الصحف التي جمع فيها القرآن على عهد أبى بكر، جاء في حديث جمع القرآن الذي ذكره البخاري عن عبيد بن السباق (أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال أرسل إلى أبي بكر الصديق مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ... فكانت الصحف عنده حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها)(2).

كان الصحابة رضوان الله عليهم أول من سمعوا القرآن منه صلى الله عليه وسلم وتلقوه عنه.وتذاكروه وتدبروه ، وكان منهم كتاب الوحي ، ومن قاموا بجمع القرآن، وكان منهم من اشتغل بتفسيره ، ومنهم من كان يقوم على تعليمه للعرب ولغير العرب في الآفاق التي فتحها الله على المسلمين ، وقد حفظ القرآن كله في حياة النبي صلى

---

(1)صفة الصفوة ، ص٢٦٦ – ٢٦٧.

(2) نفس المصدر. ص٢٦٩ .

الله عليه وسلم جمع غفير من الصحابة وعنوا به أيما عناية ، وحفظه من النساء ، أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يزورها ويسميها الشهيدة. وأذن لها أن تؤم أهل بيتها في الصلاة. وقد قتلت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فصدقت فيها نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم (١).

وهذه مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته أم أيمن واسمها بركة هاجرت على قدميها في الحر الشديد وهي صائمة . وقد بكت عندما رأت أبا بكر وعمر وقد ذهبا لزيارتها ، فلما سألاها ما يبكيك ؟ قالت ما أبكي إني لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صار إلى خير مما كان فيه ولكن أبكي لخبر السماء انقطع عنا، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها.قال الواقدي حضرت أم أيمن أحدًا وكانت تسقي الماء، وتداوي الجرحى، وشهدت رضي الله عنها خيبر، وتوفيت في آخر خلافة عثمان رضى الله عنه (٢).

هؤلاء هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلامذته صبروا على الأذى معه، وآمنوا به واتبعوه . لم تفتنهم المحن ، ولم تتخطفهم من الإسلام الشواغل والمغريات، ولا الأهل والولدان . هاجروا معه وتركوا كل شيء في سبيل الله وسبيله ، وفروا بدينهم من سلطان دنياهم ، وبنوا معه الدولة التي بها دالت دول الكفر والشرك والظلم والقهر . ثم بنوا معه الأمة التي كانوا هم أعظم لبناتها وأفخم روائها ، وحسموا أسباب الفرقة والاختلاف بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وعقدوا البيعة قبل أن تتسع الجروح وتزداد الفتوق ويتمزق نسيج الأمة ، ثم حاربوا بفضل إيمانهم وإخلاصهم المرتدين فخاضوا معهم حربًا ضارية حتى قمعوهم وردوهم فكانوا عبرة وزجرة لكل خصوم الإسلام. ثم جمعوا القرآن ووحدوا نسخه ونشروه في الآفاق وفتحوا بحده وفرنده البلاد، وغمروا بنوره ورحمته العباد.

وهنا نجد من الضروري أن نسلط مزيدًا من الضوء على بعض كبار الصحابة الذين تعرض لهم رودينسون بالنقد في قرينة جمع القرآن ، وشكك في طبيعة علاقتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) نفس المصدر ، ص٢٨٦ .
(٢) نفس المصدر ، ٢٧٧ .

أبو بكر الصديق :

أبو بكر الصديق هو الصديق الأقرب إلى قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأول من آمن به من الرجال ، وصدق بخبر الإسراء والمعراج فتمكن بذلك من مقعد الصديقية ، وضحى بماله وراحته ومكانته في سبيل حبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثاني اثنين إذ هما في الغار، رفيق الهجرة، قدمه رسوله الله صلى الله عليه وسلم للصلاة فرضيه المسلمون لدينهم ثم ارتضوه بعد ذلك إمامًا وخليفة لشئون دينهم ودنياهم . عن الحسن قال : قال علي - رضي الله عنه - : «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي صلى الله عليه وسلم قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا»(1). وقد نزل في فضل أبي بكر قرآن وشهدت بعظمة خلائقه وحسن صحبته السنة ، ومن خطبه رضي الله عنه : (أما بعد أيها الناس ، قد وليت أمركم ولست بخيركم، ولكن قد نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم السنن فعلمنا. اعلموا أن أكيس الكيس التقوى، وأن أحمق الحمق الفجور، إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق ، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني).

ومن خطبة أخرى له (أما بعد فإني وليت هذا الأمر وأنا له كاره ، والله لوددت أن بعضكم كفانيه ، ألا وإنكم ان كلفتموني أن أعمل فيكم (مثل) عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدًا أكرمه الله بالوحي وعصمه به، ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني ، فإذا رأيتموني استقمت فاتبعوني ، واذا رأيتموني زغت فقوموني....)

ومن خطبة أخرى له يقول : « ... اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره، فصدقوا قوله، وانتصحوا كتابه واستفيئوا منه ليوم القيامة ... »(2) .

لقد كان أبو بكر رجلاً قرآنيًا بكل طاقته وقامته وسيرته كان هو أول من جمع القرآن، وأخمد فتنة الردة، وأمضى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(1) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج1 ص79، ابن حجر ، الإصابة ، رقم 4817، أبو نعيم، حلية، ج1 ص28.
(2) نفس المصادر .

عن عبد الله بن عمر قال : «كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كمد فمازال جسمه يجرى حتى مات» ، وكانت وفاته سنة ثلاث عشرة من الهجرة .

عمر بن الخطاب :

أما أبو حفص عمر بن الخطاب فكان القرآن هو مدخله إلى الإسلام، لم تستطع قوة أن تهزم قوته، أو تصد سطوته وثورته إلا آيات من سورة طه مست شغاف قلبه فهزته هزًّا عنيفًا وجعلته يتطامن بعد تطاول . وقد أوردنا حكايته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً عندما سمع سورة الحاقة من فم رسول الله وهو يقرؤها بالمسجد الحرام فجعل عمر كلما سمع تعجب من نظم القرآن، وانشرح صدره بنور كلمات الله ووقع الإسلام في قلبه ، وتمكن من فؤاده .

ولما توجه عمر تلقاء بيت أخته فاطمة ليفتك بها لما سمع بإسلامها، قاومته وراجعته حتى يئس منها ، فقال لها : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه ، لأنه سمعها تقرأ هي وزوجها، وكان عمر قارئًا للكتب، فقالت له أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل ، أو توضأ ، فقام فتوضأ لأن قلبه قد لان آنذاك ، وعصبيته قد زالت . أخذ عمر الكتاب فقرأ فيه ﴿طَهَ﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ .

فقال عمر دلوني على محمد. فلما سمع خباب بن الأرت ، وكان بالدار يقرأ القرآن مع فاطمة وزوجها وكان مختبئًا فظهر ، وقال أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ليلة الخميس (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام ، قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار ، التي في أصل الصفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار وأعلن إسلامه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون عند ذلك ، وهكذا عز الإسلام بعمر ، كما عز عمر بالإسلام ، وبإسلام عمر دخلت الدعوة الإسلامية طورًا جديدًا وقوى وضع المسلمين. وعلى الجانب الأخر فقد أحدث اعتناق عمر للإسلام ارتباكًا في صفوف المشركين .

وبهذا ندرك أن الإسلام لم ينتصر بالقوة الإلهية وحدها بل بجهاد المسلمين ومثابرتهم أيضا . ولكي ينتصر الحق فلا بد له من قوة إلهية وقوة بشرية تعملان معًا وفي نفس الوقت على نصرته وحمايته .

عن ابن عباس قال: « سألت عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأي شيء سميت الفاروق؟ قال أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام ثم شرح الله صدري للإسلام فقلت : الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، فما في الأرض نسمة أحب إلي من نسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت :أين رسول الله ؟ فقالت أختي هو في دار الأرقم ابن الأرقم عند الصفا فأتيت الدار وحمزة في أصحابه جلوس في الدار، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في البيت فضربت الباب فاستجمع القوم فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا : عمر بن الخطاب. قال : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بمجامع ثيابه ، ثم هزه هزة فما تمالك أن وقع على ركبته، فقال : ما أنت بمنته يا عمر؟ قال : قلت : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال : فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد . قال : فقلت : يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : بلى، قال والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم.

فقلت : فيما الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن فأخرجناه في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد. قال : فنظرت إلي قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الفاروق»(١).

قال أهل السير أسلم عمر وهو ابن ست وعشرين سنة بعد أن أسلم أربعون رجلاً وعشر نسوة.

وعن داود بن الحصين والزهري قالا : لما أسلم عمر نزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر.

الله الله يا عمر يكتسب خروج الإسلام على يديك من الدار إلى البوادي والقفار ، ثم إلى البلاد والأمصار وتفوق قوتك يا عمر بسر سورة طه قوة المشركين .

إنك أنت يا عمر الذي خرج من ضيق الكفر ، إلى سعة الإيمان ومن ظلمة الشرك إلى نور التوحيد، ومن شهرة لا تعدو بطاح مكة، وقبائل العرب المجاورة إلى الشهرة العالمية التي طبقت الخافقين وملأت أرجاء العالمين، وصيرتك من السابقين ومن المقدمين.

---

(١) صفة الصفوة، ج١ ص٨٣-٨٥، الإصابة ، ج٢ رقم٥٧٣٦، مروج الذهب ص٣١٢ وما بعدها.

لقد عز عمر بجاه القرآن، وروى منه وطعم، وتمثله وتخلقه، حتى انبثق منه نوره وفاض سناه فكان صحابيًّا قويًّا، شجاعًا مقدامًا، وكان قرآنيًّا حازمًا، رحيمًا كريمًا جمع بين أقصى الطرفين العدل المطلق، والرحمة المطلقة، وهذه هي أهم الخصائص العمرية.

لأنه أحب القرآن فكان القرآن ينزل بموافقته في بعض المناسبات وكأن القرآن كان يبادله حبا بحب ، وموافقة بموافقة . أخرج الترمذي عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» قال ابن عمر :«وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال ، إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر» .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر - رضي الله عنه - «وافقت ربي عز وجل في ثلاث قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة ١٢٥) وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن. فنزلت آية الحجاب﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الأحزاب ٥٣) واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة فقلت : ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحريم ٥) فنزلت كذلك». حديث متفق عليه.

وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :« قد كان في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي فعمر». حديث متفق عليه.

وكان عمر قويا على الشيطان ، عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمر :" والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك ". أخرجاه في الصحيحين.

وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة» وكان عمر هو أول من نبه على خطر تواجد العلوج والخدم غير المسلمين في المدينة

المنورة ،وذلك لما طعنه غلام المغيرة واسمه أبو لؤلؤة المجوسي. قال عمر والدم يسيل منه «الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام»، ولما قيل له : إن شئت قتلناهم قال :«.. بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا إلى قبلتكم، وحجوا حجكم».فانظر إلى هذه الشخصية القوية كيف تسامح ولا تطالب بالثأر ، أو تحرض على الانتقام .

كان عمر رحمه الله صاحبًا لرسول الله ، ومصاحبًا لكتاب الله . لما حمل على سريره ليدفن بجوار صاحبه أشار إليه علي بن أبي طالب وقال : «والله ما على الأرض رجل أحب إلى أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى بالثوب».

عثمان بن عفان:

وأما عثمان ذو النورين فهو الرجل الحيي والمستحي منه . كان غنيًا كريمًا وشهمًا نبيلاً، نهل وعب من نبع القرآن وتزود من مأدبة الفرقان، أحبه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحبه أصحابه وأقروا له بالفضل . عن ابن عمر في قوله تعالى :﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ قال : «قصد عثمان بن عفان».

قالت زوجته حين قتل : «قتلتموه وإنه ليحيي الليل كله بالقرآن»[1].

جمع رضي الله عنه القرآن في مصحف إمام ، جمع على قراءته ألسِنَةِ أهل الأمصار، فقرت بعمله المبارك هذا عيون المسلمين، وصار مصحف عثمان هو المصحف الإمام. وقد مرت الإشارة إلى أن القرآن قد جمع ثلاث مرات كما ذكر الحاكم في المستدرك، الأولى بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم. قال الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) في كتاب فهم السنن (كتابة القرآن ليست بمحدثة فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقًا في الرقاع والأكتاف والعسب. فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعًا وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منتشر فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء[2] والجمع الثاني في عهد أبي بكر ، والثالث في عهد عثمان رضي الله عنهما ، وكان عبارة عن ترتيب السور في المصحف . وفي الإجابة على سؤال كيف وقعت الثقة

---

(١) صفة الصفوة، ج١ ص٩١ ـ ١٠٤ .

(٢) السيوطي ، إتقان ، ج١ ص١٧٠ .

بأصحاب الرقاع وصدور الرجال؟ يقول المحاسبي : قيل لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجز، ونظم معروف، وقد شاهدوا تلاوته من النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة، فكان تزوير ما ليس منه مأمونا، وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صحيفة .

وإذاً فاحتمال ضياع شيء من القرآن فإنه أمر مستبعد بالكلية لأن ا لله قد تكفل بحفظه ،وهيأ الأسباب لتحقيق ذلك ، وإنما كان تخوف الصحابة من حدوث أدنى شيء من التحريف في القرآن هو حرصهم الشديد على بقائه سالمًا كما أنزله تعالى .

وأخرج ابن أبي أشته في كتاب المصاحف أن رجلاً من بني عامر يقال له أنس ابن مالك قال : «اختلفوا في القراءة على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون، فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال : عندي تكذبون به وتلحنون فيه فمن نأى عني كان أشد تكذيبًا، وأكثر لحنًا يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إمامًا. فاجتمعوا»[1] .

وجه عثمان رضي الله عنه الرهط القرشيين الذين اختارهم لجمع القرآن أن يكتبوا القرآن بلغة قريش لأنه (إنما نزل بلسانهم) . وهذا يفيدنا في مسألتين تختصان بطبيعة لغة القرآن ، الأولى أن القرآن قد نزل في عمومه بلسان قريش ، وهو المعبر عنه في قوله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ .وأما الثانية فإن لغة ، أو لهجة قريش ، كانت هي الأرق والأوسع من حيث الألفاظ والأعمق من حيث المعاني، والأحكم والأجزل من حيث التراكيب والمباني ، والأمكن والأظهر من حيث الاستعمال والشيوع . نقل ابن جني في الخصائص عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال : «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة وتلتلة بهراء » ومعنى عنعنة تميم أنها كانت تقول «أن » في موضع « عن » وأما تلتلة بهرام فإنهم كانوا يقولون تعلمون وتفعلون بكسر التاء .وأما كشكشة ربيعة فإنها تقول مع كاف ضمير المؤنث إنكش ، ورأيتكش، وأعطيتكش تفعل هذا في الوقف دون الوصل .وأما كسكسة هوازن فتظهر في قولهم أعطيتكس، ومنكس وعنكس. وهو في الوقف دون الوصل أيضًا[2] .

زيد بن حارثة :

زيد بن حارثة بن عبد العزى بن امرئ القيس . كان يقال له زيد الحِب . وقع زيد

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) أبو الفتح عثمان بن جني. الخصائص. (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م)ج٢ ص١٣-١٤.

في الأسر في الجاهلية عندما غارت خيل لبنى القين على أبيات بني معن فأسروا زيدا وهو يومئذ غلام يفعة ،ثم حملوه إلى سوق عكاظ وباعوه هناك لحكيم بن حزام الذي اشتراه لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أسن من زيد بعشر سنين وأكبر منه ، ولما عرف أبو زيد بعد بحث أن ابنه في مكة عند رسول الله ذهب إليه هو وعمه كعب وقالا له وكان في المسجد : يا ابن هاشم ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون العاني وتطعمون الأسير ، جئناك في ابننا عندك ، فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه ، فإنا سنرفع لك في الفداء.

قال: ما هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا غير ذلك ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدًا . قالوا : قد زدتنا على النصف (بفتحة مشددة على النون وفتحة على الصاد ومعناها إعطاء الحق) وأحسنت . ولما جاء زيد ورأى أباه وعمه خيَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا. أنت مني بمنزلة الأب والعم . فقالا : ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك ، وأهل بيتك ؟ قال : نعم . إني قد رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه أشهد الناس أنه تبني زيدًا فدعي زيد من يومها بزيد بن محمد حتى جاء القرآن بإبطال عادة التبني ، يقول تعالى : ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ...** ﴾ (الأحزاب ٥) فدعي يومئذ زيد بن حارثة ، بعد أن كان يدعى زيد بن محمد .

زوجه النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب . فلما طلقها زيد لحدة كانت فيها عليه ، تزوجها رسول الله بعد أن انقضت عدتها ، بأمر الله تعالى ، ولذلك كانت زينب تفخر على نساء النبي ، وتقول إن الله عز وجل أنكحني من السماء . ولما تكلم المنافقون في زواج النبي منها ، وقالوا تزوج محمد امرأة ابنه ، نزل قوله تعالى : ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ (الأحزاب ٤٠) وقوله قبلها: ﴿**لَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا**﴾ (الأحزاب ٣٨) . قال

الزهري : أول من أسلم زيد . ولم يسم الله أحدًا من الصحابة في القرآن باسمه غير زيد. وقد شهد زيد غزوة بدر ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، وخيبر ، واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم ، على المدينة حين خرج إلى المريسيع ، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبع سرايا . وقتل زيد في غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان ، وهو ابن خمس وخمسين سنة فبكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : ما هذا يا رسول الله ؟ قال: هذا شوق الحبيب إلى حبيبه[1].

هذا هو زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله الذي يزعم مكسيم رودينسون أنه كان يعلم محمدًا الديانة النصرانية التي كانت شائعة في قبيلته ، إنه لا يوجد أي دليل ، ولو بحجم فسخ الشعرة على أن زيدًا كان ملمًّا بالنصرانية حتى يعلمها غيره ، وقد ذكرنا أنه كان غلامًا يافعًا عندما اشترته خديجة رضوان الله عليها . وليس يوجد لدينا كذلك ما يفيد ولو من بعيد أن زيدًا كان له اهتمام بالنصرانية ، وشغل بها ، يضاف إلى هذا أن قبيلته لم تكن معروفة كذلك بالنشاط الديني بين القبائل . وبالتالي فزعم رودينسون لا أساس له ولا دليل عليه أصلاً .

وما كان أحرى بالكاتب ، لو أراد أن يلتزم الحق أن يقول أن زيدًا شأنه شأن جميع الصحابة هو الذي تعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزود من أدبه وخلقه ، ولولا محمد لما سمع أحد عن زيد .

المفاوضة بين رسول الله والمشركين وأكذوبة الغرانيق :

ونعود الآن فنواصل عرضنا وتحليلنا لكتاب رودينسون . ونتناول هنا الموضوع الذي أثاره حول تلك المفاوضة التي جرت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أبي الوليد عتبة بن ربيعة نيابة عن قريش ، بقصد أن يتخلى النبي صلى الله عليه وسلم عن دعوته في مقابل تحقيق أي شيء قد يرغب فيه ، المال ، أو السلطان ، أو العلاج إن كان يعاني من مرض .

يزعم الكاتب أن هذه المفاوضة قد لفقها مؤرخو المسلمين لخدمة غرض معين ، ولكنها في نفس الوقت تحتوي على شيء من الحقيقة ، هذا الشيء تؤكده قصة

---

(١) صفة الصفوة ، ج١ ص١١٨ - ١٢١ ، ابن حجر، الإصابة، ج١ ص٥٦٣ .

الغرانيق، تلك الأكذوبة التي باءت بإثمها بعض كتب التاريخ ، وتتلخص القصة كما لفقوها في أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يتنزل عليه شيء من القرآن يرضي قومه ويجاملهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يحبهم ، ويود أن يقترب منهم وتتحسن علاقته بهم ، تقول الرواية الموضوعة ، أنه بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي بسورة النجم سكت سكتة طويلة بعد قراءة ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ (النجم ١٩-٢٠) فوضع الشيطان على لسانه هذه العبارة : «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى» . ففرحت قريش بتمجيد محمد لآلهتها وسجدوا مع المسلمين على سبيل الشكر . وكنتيجة لهذا الموقف الملفق عاد المسلمون المهاجرون من الحبشة إلى مكة .

وقد بينت في قرينة ردي على المستشرق الإسكتلندى مونتجمري وات في كتابي «القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي» تهافت هذه القصة ،وتهافت المتمسكين بها، ومما ذكرته أن أول سورة النجم بل وآياتها كلها تكذب الواقعة من أساسها ، إذ يشتمل أول السورة على قَسَم بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم ما ضل وما غوى ، وأنه لا ينطق عن الهوى فأين منفذ الشيطان هنا يا تري؟

وعلاوة على هذا فإن هذه الآيات قد نزلت بشأن المعراج ، المترتب على الإسراء. وموقف المشركين منه صلى الله عليه وسلم في هذا الوقت، وبسبب هذا الحدث العظيم حد معروف ، فقد كذبوه وشنعوا به ، حتى لقد ارتد بعض ضعاف الإيمان من المسلمين بسبب وقع خبر الإسراء على نفوسهم . وموقف قريش منه صلى ا لله عليه وسلم قبل هذه الحادثة أيضًا حد معروف ، فلقد فقد النبي صلى الله عليه وسلم عمه ونصيره أبا طالب فازداد تواثب الكفار عليه وملاحقتهم له واشتد أذاهم به ، ولم يحدث أن هادنهم أبدًا ، أو أنه تمنى مواصلتهم فيما حرم ا لله تعالى ، أضف إلى ذلك أن آية السجدة هي آخر آية في سورة النجم ؛ وهي تدعو إلى السجود لله وحده ، وكيف يعرف المشركون أن في هذه الآية سجدة تلاوة حتى يسارعوا هكذا بالسجود. ومن الجدير بالملاحظة أن العرب لم تعرف أصنامًا قط بهذا الاسم «الغرانيق العلا» حتى تأتي الآية في تمجيدها على هذا النحو . إن هذه القصة مرفوضة من جميع الوجوه ، وليس لها أصل لا في القرآن ، ولا في الأحاديث الصحيحة ، بل ولا في الأحاديث الضعيفة ، وكل ما روي بشأنها من المرسلات والمنقطعات ، هذا ولم يقبلها أحد من علماء المسلمين كذلك ، بل إن هذه القصة المتهافتة لم تظهر في

الكتابات المبكرة في الإسلام ، ولم يذكرها ابن إسحاق وهو الحجة في كتابة السيرة النبوية، وإنها لم تظهر إلا في كتاب أبي جعفر ابن جرير الطبري (ت ٩٢٣م) مؤرخ القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي. وفوق ذلك وقبل كل شيء فإنها منافية تمامًا لعقيدة التوحيد التي هي روح وقاعدة الإسلام ، والتي لم يهادن فيها محمد صلى الله عليه وسلم قط ، بل لقد تحمل الأذى ، كل الأذى في سبيلها .

يقول رودينسون :«إن محمدًا لما أدرك خطورة ذلك على دعوته اخترع فكرة كون هذه الآيات من وضع الشيطان ، وزعم أن كل نبي من أنبياء الله كان قد تعرض لمثل هذا الموقف من قبل » يشير الكاتب بذلك إلى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٢)لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (الحج ٥٢، ٥٣)، ومعنى ﴿تَمَنَّى﴾ أي رغب في هداية قومه ، ومعنى ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي حاول أن يقترح عليه طرقًا أخرى لجذبهم إلى دعوته[1]. وما دام النبي ، أي نبي ، لا يأخذ إلا عن الله تعالى ولا يتلقى إلا منه تعالى ، فإنه عز وجل كما يعصمه من الناس يعصمه كذلك من وساوس الشيطان وإلقاءات الشيطان في الروع ، وهذا لا متعلق له بالقرآن، بل هو حديث النفس، وهو على شاكلة قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(الكهف٦). ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (فاطر ٨) . وقوله لنوح عليه السلام عندما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود ٤٤ ، ٤٥) . هذا ولم يرد في القرآن قط أن نبيًا من أنبياء الله تعالى تقرب إلى قومه بما هو ضد دعوته ، بل على العكس لقد كانت معركة جميع الأنبياء دائمًا مع أقوامهم من أجل إقرار عقيدة التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة .

يقول رودينسون : «أن الثلاث آيات التي زعموا أن الشيطان ألقى بها في القرآن ، قد انتزعها محمد منه ووضع مكانها آيات أخرى في رفض طائفة ، أو عُبَّادِ الغرانيق . ويقول أيضًا أن رواية الطبري لهذه الحادثة جيدة لأنه وضعها في عبارات صريحة وواضحة ، تفيد أن اللاوعي لدى محمد قد استطاع أن يمده بصيغة توفيقية كانت محل إجماع المسلمين والمشركين ، وهي في نفس الوقت لم تبدُ مصادمة لعقيدة محمد في

(١) ابن كثير ج٢ ص٥٥٠ - ٥٥١، و ج٢ ص٤٤٠ - ٤٠١ .

الدعوة إلى إله معين ، مع عدم رفض الآلهة الأخرى أو الاعتراض عليها Henotheism وذلك لأن هذه الغرانيق والتي كان يطلق عليها أيضا بنات الله ، كانت من نوع الطير، وكانت تشبه الملائكة أو الجن التي اعتُقِدَ فيها أنها تابعة وخاضعةلله ، وبهذا أضفى محمد الشرعية على هذه المعبودات» يعني الغرانيق . (ص١٠٧) .

وبهذا يكون رودينسون قد استطاع أن يلتقط تلك الشعيرة ، أعني حكاية الغرانيق الملفقة ، ويوظفها ضمن عملية تحليلاته النفسية المادية غير العلمية على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم . ويستمر رودينسون في نظم مزاعمه فيقول : «إن هذا الاعتراف من قبل محمد بالغرانيق ، يعني آلهة قريش ، فيه إشارة إلى أن الدعوة التي جاء بها لا تعد ثورية في مجالها ، وأن هذه الفرقة الجديدة (يعني المسلمين) قد مجدت آلهة أهل مكة واحترمت أماكنها المقدسة ، وبالتالي فقد عاد محمد بهذا إلى وثنية قومه ، ونبذ ما تعلمه من اليهود والنصارى» .

يبدو أن هذا الكاتب لا يتحمل أن يكون موضوعيًا ومعقولاً ، ولو للحظة واحدة ، في قراءة مادته وفي تحليلها ، وتأسيس النتائج عليها ، ويبدو كذلك أنه يتكلم عن دين ليس هو الإسلام بالقطع . ومن الجدير بالملاحظة أن رودينسون بينما يطلق على الإسلام اسم «فرقة» كما هو عنوان الباب الثاني من كتابه هذا ، كتعبير عن الإسلام يتجاهل تماما إطلاق اسم «الدين» أو «الديانة» على الإسلام .

يضيف نفس الكاتب قائلا : «إنه وبعد فرحة الوثنيين المزعومة في مكة بعودة محمد إلى دينهم ، والاعتراف بآلهتهم ، كان على محمد أن يقرر إما أن يستمر هكذا مع قومه الوثنيين على هذا الوضع ، أو يرجع إلى اليهودية أو النصرانية وينتمي إلى الكنائس الأجنبية ليؤسس لنفسه مجدًا يتزعم به على العرب ، إلا أنه لما عاد إلى الوحدانية مرة أخرى عاداه قومه واضطهدوا أتباعه وألبوا عليه القبائل بحجة أنه قد خرج عن دين الأسلاف» (ص١٠٨و١٠٩).

ثم يشير مكسيم رودينسون إلى حصار الكفار للمسلمين في شعب أبي طالب بمكة، ويقول : «إن هذا الحصار لم يكن كافيًا في التضييق على المسلمين وذلك لأن العرب لم تكن لهم حكومة مركزية يمكن أن توقع هذا الحصار بالشدة المطلوبة (ص ١١١) ولسنا ندري ما نوع الحصار الذي يريده رودينسون ! هل كان يريد حصارًا من نوع الحصارات الحديثة التي تفرضها الأمم الغربية ؛ وبالذات على الدول الإسلامية لإضعافها ؟ لقد كان الحصار شديد الوطأة على المسلمين ، وكان يعتبر

حصارًا غير مسبوق تقريبًا ، لكن المسلمين قد صمدوا له لأنهم كانوا أصحاب رسالة إلهية سامية ، ولهم هدف محدد وغاية معروفة ، ولذلك فقد خرجوا منه منتصرين ، حتى لكأن شعب أبي طالب قد صار هو القاعدة التي انطلق منها الإسلام قويًا لينتشر نوره في العالمين، ويغمر بسماحته أهل الأرض أجمعين .

وبنفس الطريقة المغرضة يزعم رودينسون أن المسلمين الأوائل ، الذين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة للهروب من اضطهاد قريش ، كانوا يمثلون خطرًا على محمد نفسه، ولذلك فإنه تخلص منهم عندما وجههم إلى هذه البلاد ، مستشهدًا على ذلك بالميول الدينية الحنيفية لعثمان بن مظعون من بني جمح ، الذي هاجر هو وابنه السائب ، وأخواه قدامة وعبد الله ابنا مظعون إلى الحبشة[1]. ويزعم رودينسون أنه نظرًا لتمسك عثمان بن مظعون بالوحدانية خشي محمد على نفسه منه إذا بقي في مكة أن يجمع الناس حوله ويصرفهم عنه (ص١١٤) . لو راجع هذا الكاتب فكرته ، وتأنى في إصدار تلك الأحكام التعسفية ، والاستنتاجات الوهمية ، لعلم أن المهاجرين إلى الحبشة كبقية الصحابة كانوا يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب كله ، ويطيعون أمره ويعتقدون في صدق رسالته لا يرتابون في ذلك نقيرًا ولا قطميرًا، وأنه لو كان الأمر كما ظن هذا المخرص لتمسك عثمان بن مظعون على العكس بالبقاء في مكة لنشر أفكاره وتجميع الناس من حوله، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث قط ، لا قبل الهجرة إلى الحبشة ، ولا بعدها .

بل إن ابن هشام ليروي إنه لما رأى عثمان بن مظعون ، بعد أن رجع من الحبشة ودخل مكة في حماية الوليد بن المغيرة ، ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء ، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة ، قال :«والله إن غدوي ورواحي آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني ، لنقص كبير في نفسي . فمشى إلى الوليد بن المغيرة ، فقال له .... وفيت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ، .... ولكني أرضى بجوار الله ، ولا أريد أن استجير بغيره» . وأورد ابن هشام كذلك أن عثمان بن مظعون سمع لبيد ابن ربيعة ينشد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

(١) سيرة ابن هشام، ج١ ص٢٨٠ - ٢٨٤ ، ابن الجوزي. صفة الصفوة، ج١ ص١٤١ - ١٤٣، ابن حجر. الإصابة، ج٢، ص٢٤٩. وحول شعب أبي طالب، انظر سيرة ابن هشام، ج١، ص١١١ .

قال عثمان : صدقت . قال لبيد :

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان : كذبت : نعيم الجنة لا يزول . قال لبيد بن ربيعة : «يا معشر قريش، والله ما كان يُؤْذَىَ جَلِيسُكم ، فمتى حدث هذا فيكم». فقال رجل من القوم :«إن هذا سَفِيهٌ في سُفَهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن في نفسك من قوله»؛ فرد عليه عثمان حتى شري أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها والوليد ابن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال :«أما والله يا ابن أخي أن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة». قال : فقال عثمان :«بلى والله إن عيني الصحيحة فقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني لفي حوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس». فقال له الوليد : هلم يا ابن أخي ، إن شئت فعد إلى حوارك، فقال : «كلا»[1].

أسلم عثمان بن مظعون رضي الله عنه قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وحرم الخمر على نفسه في الجاهلية وقال : «لا أشرب شيئًا يذهب عقلي ، ويضحك بي من هو أدنى مني ، ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد».

وشهد بدرًا وكان متعبدًا ، وكانت وفاته بالمدينة في شعبان بعد مضي ثلاثين شهرًا على الهجرة ، ولما دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خده وكانت دموعه تسيل عليه، وسماه النبي (السلف الصالح)[2] .

هذا هو الزاهد المسلم عثمان بن مظعون الذي يصوره رودينسون منافسًا لمحمد ، يرجع إلى مكة على العكس أقوى إيمانًا وأشد إصرارًا على اتباع محمد وحبه وإيثاره له وللمسلمين على نفسه . ولو أنصف رودينسون في حكمه لعرف أن الخطر كل الخطر كان يكمن في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم لعثمان وغيره إلى الحبشة التي كان لها دينها ونظامها المستقر وكان يمكن أن تتخذ من هؤلاء المسلمين موالين أو عملاء ، وتشتري ذممهم، وتجندهم لمصالحها وتردهم عن دينهم وتستعين بهم في ضرب الدعوة الجديدة في مهدها في مكة ، والتي ربما كانت تمثل خطرًا كبيرًا عليهم بالموازين السياسية، أو تقتلهم إن أبوا عليها ذلك ، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث ، بل على

(١) سيرة ابن هشام، ج٢، ص١٤ – ١٥ .

(٢) صفة الصفوة، ج١، ص١٤٢.

العكس فقد أسلم النجاشي ، وأسلم معه الكثير من أهل الحبشة ، وصلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم صلاة الجنازة في المدينة عندما سمع بنبأ وفاته . لم يقف رودينسون عند حد هذا الزعم بل إنه عاد فنقضه ؛ إذ أنه عاد فشكك في صحة خبر الهجرة إلى الحبشة وما تبعها من أحداث كإسلام النجاشي وأفراد حاشيته (ص١١٦و١١٧) .

الطعن في قصص القرآن والعبادات الإسلامية وموضوعات أخرى:

يعتبر رودينسون القصص القرآني كقصة يأجوج ومأجوج ، وقصة أهل الكهف وقصة موسى والخضر كلها أساطير، بل إنه يزعم أكثر من ذلك فيقول إن الإله الذي تكلم عنه محمد كانت تعرفه قريش وكانت تسميه الرحمن . ويعتبر هذا الكاتب أن محمدًا قد تناقض مع نفسه ، شأنه في ذلك شأن أصحاب السلوك الباطني من النصارى والمسلمين في عرض نظرية الخلاص ، ومسألة القضاء والقدر ، والهداية والإضلال ، تلك القضايا والمشكلات الكبرى التي لم يستطع محمد حلها (ص١٢١-١٢٥) .

ويحذو رودينسون حذو وات ، في كتابه عن محمد صلى الله عليه وسلم كنبي ورجل دولة ، فيزعم أن العبادات الإسلامية منتحلة من عبادات النصارى ، وأنها في نفس الوقت عبادات شكلية لا تتصل بقلوب أو سلوك العباد ، ويؤيد رودينسون هذا الزعم بقوله بأن الإسلام كان تابعا لليهودية والنصرانية من حيث شكل العبادة ، وأن المسلمين كانوا يتوجهون في صلاتهم ، كاليهود والنصارى ، نحو بيت المقدس ؛وأنهم كأتباع الكنيسة النسطورية كانوا يصلون في أول ووسط وآخر النهار (ص١٢٧) .

وهذا خطأ فاحش من الكاتب ، فصلاة المسلمين بلا شك تختلف عن صلاة اليهود والنصارى ، وإن اتفقت من حيث الأصل والقصد مع ما جاء به الأنبياء جميعًا ، أضف إلي ذلك أن التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة كان بأمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، وقد رد الله تبارك وتعالى على المشنعين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام بمكة بقوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة ١٤٢) . وبقوله في نفس السورة والسياق : ﴿....وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٤٣)قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ

وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة ١٤٣ - ١٤٤) . وقد بين الله في الآية التالية لهذه الآية إصرار كل فريق من أهل الأديان على التمسك بقبلته ، أو وجهته، وأنه لا يمكن أن يتزحزح عنها، وأن اعتراضهم على محمد إنما كان لمجرد التشنيع ، لا من أجل التمسك بحق أو الغيرة على دين.

أكد الله تعالى في القرآن الكريم أن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام بمكة إنما كان بأمره سبحانه وتعالى ، وأنه هو الحق الذي أنزله على نبيه . كما أمر عز وجل المسلمين ألا يخشوا ملامة وتشنيع أهل الباطل ، والظالمين من أهل الكتاب . وينبغي أن يكون واضحًا في الأذهان أن توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس في بداية وجوده في المدينة لم يكن لغرض سياسي بقصد مجاملة اليهود أو اتباعهم ، وإنما كان ذلك أمرًا من الله وتقديرًا لأنبياء الله الذين عصتهم اليهود أنفسُهم ، ثم إن تحوله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام عند الصلاة إنما كان توجها لقبلة نبي أيضًا وهو إبراهيم عليه السلام.

يقول رودينسون إن المسلمين قد بدأوا فيما بعد يستقلون ظاهريًّا عن اليهود والنصارى ، ويتميزون عنهم كجماعة ، وقد كانت الصلاة من أبرز سمات هذه الجماعة الجديدة؛ وكان المسلمون يطورون تنظيمهم ويحددون علاقاتهم بالعالم الخارجي ، وإنه حتى بعد وجودهم في المدينة لم يكن لهم اسم معروف بل كان أعضاء هذه الجماعة - يعني المسلمين - حيث كانوا يسمون أنفسهم فقط بالمؤمنين ، وأن كل عضو منهم كان يسمى بالمؤمن ، وقد مضى وقت طويل على ذلك حتى خضع الناس لمحمد فسموا حينئذ بالمسلمين؛ والمسلم - يعني الخاضع لله - ولكن هذه الخصائص لم تطبق بالضرورة عليهم فقط بل إنهم أطلقوا هذا الاسم الأخير أيضًا على أتباع الأنبياء السابقين فسموهم مسلمين . ولم توجد هناك أية أمارة على وجود أمة منظمة للمسلمين في المدينة ، حيث إنهم كانوا فقط يتبعون محمدًا باعتباره نبيًّا يتلقى الإلهام من الله .(ص١٢٩).

إن رودينسون كما هو واضح يعطي تفسيرًا جديدًا لمعنى كلمة مسلم ، وتاريخًا جديدًا لظهور هذه الكلمة بين المسلمين ، فيجعل معنى كلمة مسلم أي خاضعًا بالقهر أو مستسلمًا لمحمد وليس لله كما يُلمَحُ من عبارته ، فهو يزعم أن كلمة مسلم نفسها

لم تظهر إلا بعد أن أخضع محمد الناس لسلطانه بالقوة ، ولذلك فقد تأخر ظهور هذه الكلمة إلى منتصف العهد المدني تقريبًا . وهذا زعم خارج على كل الحدود والمعهود في تاريخ الإسلام وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم . إن هذا الكاتب يجدف ضد محمد بلا وعي فهو يجعله رجلاً معتادًا من عرض الناس يأكل ويشرب مثلهم ، ويتزوج وينجب مثل عموم البشر ، وليست تميزه أي صفات مطبوعة أو مكتسبة ، ويزعم نفس الكاتب أن محمدًا لم تكن تتوفر له مؤهلات النبي ، ولهذا فإنه لم يكن متوقعًا منه أن يأتي بمعجزة يؤكد بها دعوى النبوة ، حتى أنه قد تذرع بحجة أن الله يجري المعجزة على مشيئته وحده ، وما قال محمد ذلك إلا ليداري عجزه .

إن النبي صلى الله عليه وسلم كان مؤيدًا بالمعجزة كما كان مؤيدًا بالوحي ، وأكبر معجزات الرسول وأبقاها هي معجزة القرآن الكريم التي تحدى الله بها الجن والإنس فرادى أو مجتمعين أن يأتوا بمثله ، كله أو بعضه فعجزوا . ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم أيضًا الإسراء والمعراج وغير ذلك من المعجزات التي لا يتسع المقام هنا لتتبعها. وفي هذه القرينة نلفت النظر إلى أن المسيح عليه السلام رفض في أكثر من موقف أن يظهر معجزة وذلك عندما كان يلاحظ تعنت السائلين ، وعلى سبيل المثال فقد جاء في إنجيل متى الإصحاح السادس عشر " وجاء إليه الفريسيون والصدوقيون ليجربوه فسألوه أن يريهم آية من السماء . فأجاب وقال لهم إذا كان المساء قلتم صحو . لأن السماء محمرة . وفي الصباح اليوم شتاء . لأن السماء محمرة بعبوسة . يا مراؤون تعرفون أن تميزوا وجه السماء وأما علامات الأزمنة جيل شرير فاسق يلتمس آية . ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبي . ثم تركهم ومضى ". ويعود رودينسون مرة أخرى إلى القرآن فيزعم أن إصرار القرآن ، وإصرار المسلمين على أنه نزل بلسان عربي مبين إنما يخفي وراءه حقيقة وهي أن محمدًا قد انتحل من كتب اليهود والنصارى .

ويذكر مع كاتب مادة القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلامية بأن كلمة قرآن نفسها مأخوذة من الكلمة السريانية قريانا Qeryana ولسنا ندري كيف وصلت الكلمة السريانية إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وكيف استعملها مع وجودها ووجود أمثالها بكل مشتقاتها في اللغة العربية .

إن هذا لهو عين التنطع من رودينسون وأمثاله من المستشرقين ، ولو أننا أخذنا بمجرد المشابهات الصوتية بين بعض الكلمات في سائر اللغات لوجدنا منها الكثير والكثير مما يمكن أن يمهد الطريق لمثل زعم المستشرقين هذا في دعوى الانتحال . ولكننا بالرغم من

ذلك لا نستطيع أن نحكم على هذه اللغة بالانتحال ولا لتلك بالأصالة لمجرد وجود مثل هذا التشابه الصوتي . وأهم من ذلك كله اختلاف المعنى بين كلمة قريانا السريانية ، وكلمة قرآن العربية كما بينت في كتابي «القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي» .

يعتمد رودينسون في طعنه في صحة خبر كتابة وجمع القرآن الكريم على مقدمة ريتشارد بل لترجمته لمعاني القرآن الكريم ، والتي نشرها فيما بعد ، مع بعض تعديلات مونتجمري وات . إنه يدعى أن القرآن لم يكتب في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأن روايات جمع القرآن متناقضة فيما بينها ، وأنها عند الفحص تؤكد وقوع التحريف في القرآن بالزيادة والنقصان . وهو هنا يوظف آيات مثل آية النسخ في القرآن الواردة في سورة البقرة ١٠٦، وآية النحل ١٠١ ، ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ ، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، والآيتان معناهما واحد ، وهما في الرد على أصحاب العقول الضعيفة من المشركين الذين كانوا إذا رأو تغير بعض الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنما أنت مفتر» ـ أي كذاب ـ وإنما هو الله تعالى الذي يثبت أو يبدل الأحكام ، وأنه هو الذي يضع آية مكان أخرى في أثناء التنزيل ، وليس بعد تمام الوحي ووقوع البلاغ قط . ليس هناك إذن دليل واحد يقول بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد غير ولو آية واحدة في القرآن بعد أن سطر في القراطيس أو حفظ في الصدور . ولكن رودينسون يصر مع ريتشارد بل ووات وأضرابهم على أن القرآن قد خضع لعملية تحقيق أو تنقيح كما يحدث في النصوص التي يكتبها البشر ، إن لم يكن بواسطة محمد نفسه فبواسطة بعض أتباعه ولا بد . ويمعن رودينسون في تجريد القرآن من كل ميزة ، إذ يزعم أن نظم القرآن إنما هو مأخوذ من نصوص التراتيل الكنسية السريانية ، وبالتحديد كنيسة القديس إفرائيم ، أحد آباء هذه الكنيسة .

ويؤيد رودينسون مدعاه هذا بالإشارة إلى قس بن ساعدة العربي النصراني ، الذي يقال أنه كان قسيسًا ، وأنه كان يعظ في سوق عكاظ بأسلوب أدبي وشعري فائق الروعة، وكان كلامه يدور حول الموت والبعث والحساب والجنة والنار . ويرى نفس الكاتب أن هناك من ثم مشابهة بين كلام قس وبين القرآن من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب ، وإن كان يشكك في نفس الوقت في وجود شخصية قس تاريخيًا ، ويزعم أنها محض خيال ، وأن خطبته تلك غير موثوق بنسبتها إليه(ص١٣١).

وفي الرد على هذه النقطة نقول إن المفاهيم والعلوم والتعاليم التي جاء بها القرآن أوسع من أن تحصرها الكتب أو الدواوين ، ناهيك بخطبة أو بمجموعة من الخطب ، كخطبة قس بن ساعدة أو شعر أمية بن أبي الصلت الديني ، أو شعر الأعشى الذي كان يهتم بوصف التقاليد والطقوس الكنسية مما لم يظهر له أثر قط في القرآن الكريم وغير هؤلاء من جهابذة خطباء العرب الأقدمين .

يشير رودينسون بعد ذلك إلى الآيات الكثيرة التي تكلمت عن أهل الكتاب - يعني اليهود والنصارى - وعن أنبيائهم ، والأحداث التي تتصل بهم والتي لم تشر من قريب أو من بعيد إلى كفار مكة كما هو المعتاد في السور السابقة، بحسب ما يراه هذا الكاتب، لا في الواقع ونفس الأمر .

ويشير أيضًا إلى بعض الفرق النصرانية ، فرقة المنوفوسيين Monophysites، والنسطوريين Nestorians والملكائية Melkites، ثم يقول : «لقد وقع الخلاف بين هذه الفرق قديمًا حول طبيعة السيد المسيح ، وحول تحديد نوع العلاقة القائمة بينه وبين الله، والتي إذا نظرنا إليها من خارج استبان أنها فوارق غير مهمة إلى حد بعيد جدًا ، وحتى أن مؤيدي هذه الأفكار لا يبدو أنهم كانوا يفهمونها كما ينبغي ، إنهم لم يؤيدوا هذه أو تلك النظرية ، وإنما أيدوا هذا أو ذاك الحزب ، أو هذه الفرقة أو تلك، يعني هؤلاء الذين كسبوا تعاطفهم لأسباب مؤقتة أو عاجلة والتي كانت بعيدة جدًا عن اعتبار الأفكار التي تحملها .وبالتالي فإن محض الكراهية للقوة أو الاستعمار الخارجي هو الذي جعل الشخصية المصرية على سبيل المثال تقف بثبات ضد بيزنطة ، وتدفع بالفلاحين المصريين في وادي النيل إلى اعتناق الاعتقاد المتعصب في الطبيعة الواحدة للمسيح . وأما بالنسبة لمحمد ، فأن هذه الاختلافات الواقعة بين ما قاله بشأن المسيحية والتي لقنها له بطريقة خاطئة بعض النصارى واليهود من غير المثقفين ممن كان قد قابلهم وتحدث إليهم، وما هو عند أهلها ليست بالاختلافات الكبيرة ، إنها لا تعدو أن تكون مثل الاختلافات بين الكاثوليكية والبروتستانتينية ، أو حتى بين الفرق البروتستانتينية نفسها . وإن محمدًا شأنه شأن الأنبياء الذين ظهروا في إفريقيا السوداء في عصرنا الحديث كان يتخيل صوتًا يكلمه ويلقي في روعه بكلام يشبه تمامًا ذلك الكلام الذي سمعه من أهل الكتاب».(ص ١٣١ - ١٣٥).

وهكذا فإن رودينسون يُنَصِّر «محمدًا» صلى الله عليه وسلم - أي يجعله نصرانيًا - ويُنَصِّر دينه زورًا وبهتانًا ، وعدوانًا على الحق والعقل والتاريخ - ونعوذ بالله من

الضلال ـ وهو بمنطقه الغريب هذا يجعل الصواب خطأ والخطأ صوابًا ، فهو يتكلم عن المسيحية برقة غير معهودة عند اليهود ، ويتجاهل الموقف العدائي التاريخي لليهود من النصرانية والنصارى ، بل من المسيح نفسه وأمه عليهما السلام . وهو يجعل الاختلافات بين الفِرَقِ النصرانية التي بسببها أريقت الدماء وتناثرت الأشلاء وتفرق الناس شيعًا متناحرة ، اختلافات بسيطة وغير جوهرية ، ويجعل الخلاف بين الإسلام وبين النصرانية كالخلاف بين الكاثوليكية والبروتستانتينية ، أو بين الفرق المتفرعة عن الفرقة الأخيرة الأم!! وما ذلك البهت إلا لكون اليهودي الفرنسي يعتبر الإسلام فرقة وليس دينًا، ويعتبر النبي صلى الله عليه وسلم واحدًا من هؤلاء الأنبياء الكذبة الذين ظهروا في إفريقيا السوداء في العصر الحديث. أضف إلى ذلك عداوة هذا الكاتب الماركسي للأديان بشكل عام وعداوته الشديدة للإسلام بوجه خاص .

إن رودينسون بهذا يتصور أنه قد هدم الإسلام وطوح بمحمد عليه السلام بعيدًا عن الوجود وأراح من ثم اليهود وما ذاك إلا لأن الإسلام هو الذي وصف اليهود فأبلغ في وصفهم ونبه الناس على خطرهم وعداوتهم المؤكدة للبشرية ولهداتها ومصلحيها على وجه الخصوص .

ولسنا ندري كيف يسوي رودينسون بين زعماء الفرق النصرانية وبين خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . ليس هذا فحسب ولكنه يتدنى أكثر فيسوي بين رسول ا لله صلى الله عليه وسلم وبين الأنبياء الكذبة الذين ظهروا في إفريقيا في العصر الحديث ، والذين لم يسمع بهم أحد غيره وأمثاله من الكتاب العنصريين. إن التاريخ لم يسجل لهؤلاء الأنبياء الكذبة أي أثر نافع، أو دعوة صالحة.

كيف وأن المنصفين من الغربيين قد بهرتهم أخلاق محمد وأعجبتهم خلائقه وأفعاله وأثره العظيم في التاريخ الإنساني ، وفي بناء الحضارة الراقية التي انتفعت بها البشرية دون تمييز، ونهلت منها وعبت كل شعوب الأرض دون تفرقة، قال الفيلسوف الروسي تولستوي تحت عنوان «من هو محمد ؟» (إن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية التي يدين بها في جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس) - على وقت تولستوي - ثم قال : (ولد النبي محمد - صلى ا لله عليه وسلم - في بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عليه السلام من أبوين فقيرين ، وكان في حداثة سنه راعيًا يرعى الغنم ، وقد مال منذ صباه إلى الانفراد في البراري والأماكن الخالية حيث كان يتأمل في الله وخدمته ـ أي طاعته ـ إن العرب المعاصرين له

عبدوا أربابًا كثيرة وبالغوا في التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها أنواع التعبد وقدموا لها الضحايا المختلفة ومنها الضحايا البشرية ومع تقدم سن محمد كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب وأن ديانة قومه ديانة كاذبة وأن هناك إلهًا واحدًا حقيقيًا لجميع الشعوب.

وقد ازداد هذا الاعتقاد في نفس محمد حتى اعتزم أن يدعو مواطنيه إلى الإيمان باعتقاده الصحيح الراسخ في فؤاده. ثم دفعه إلى ذلك عامل داخلي وهو أن الله اصطفاه لإرشاد العباد وعهد إليه بهدم ديانتهم الكاذبة وإنارة أبصارهم بنور الحق فأخذ من ذلك العهد ينادي باسم الواحد القهار، وذلك بحسب ما أوحى الله إليه وبمقتضى اعتقاده الراسخ).

وقال جيمس متشنر المؤرخ الأوربي المعروف :

(إن محمدا رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - هذا الرجل الملهم الذي أقام الدين الإسلامي، ولد حوالي سنة ٥٧٠ من الميلاد، في قبيلة عربية كانت تعبد الأصنام، وكان محبًا للفقراء والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين، وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه جزيرة العرب وفي الشرق كله ، فقد حطم الأصنام بيديه وأقام دينًا يدعو إلى الإيمان بالله وحده، كما رفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها عليها تقاليد الصحراء.

وقال البروفيسور جارسون دي تاس، في كتابه «الإسلام» : إن محمدًا رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ولد في حضن الوثنية، ولكنه منذ نعومة أظافره أظهر بعبقرية فذة انزعاجًا شديداً من الرذيلة، وحبًا قويًا للفضيلة، وإخلاصًا ونية حسنة غير عاديين، إلى درجة أن أطلق عليه مواطنوه في ذلك العهد اسم الأمين.

ولقد أهاب الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل في إحدى محاضراته عن محمد كبطل ونبي ، والتي طبعت ضمن كتابه الأبطال وعبادة البطولة، ببني قومه من الإنجليز، والأوربيين أن يتوقفوا عن الترويج للكذب ضد محمد صلى الله عليه وسلم ومن أقواله : «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن أن يشيع أو أن يصغي إلى ما يشاع من أن محمدًا كان كذابًا، كيف يستطيع كذاب لعمري أن يبني أمة تمتد من المحيط إلى المحيط ، وتتأثر به وتحبه إلى هذا الحد. إن الكذب يهدم ولا يبني إلى آخر كلامه، ولقد اعتبر هذا الفيلسوف العظيم محمدا أعظم شخصية في التاريخ بلا منازع .
ولو ذهبنا نقتبس من أقوال هؤلاء الغربيين المنصفين لأطلنا الحديث ،ولكننا نكتفي

بهذه الأمثلة ، على أنه مما ينبغي أن نلفت النظر إليه أن هؤلاء العلماء الغربيين قد أسلم بعضهم وحسن إسلامه، واكتفى البعض منهم بمجرد إبداء الإعجاب بشخص النبي صلى الله عليه وسلم وتوقف عند هذا الحد .ولو أن هؤلاء قد تقدموا خطوة فاعتنقوا هذا الدين بقلوبهم كما أدركوا عظمته بعقولهم لتغير تاريخ العالم وأصبح للإسلام في أوربا والغرب شأنًا آخر، ولقلت هذه الحدة وسوء الفهم اللتان تتسم بهما العلاقة بين المسلمين والغربيين.

رودينسون ومعاهدة المدينة :

يحذو رودينسون حذو سلفه مونتجمري وات في التشكيك في وثيقة المدينة التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأول مرة في تاريخ السياسة الدولية ، مع اليهود إقرارًا لمعاني الاخوة الإنسانية والوحدة الوطنية مع الاعتراف الكامل بالحرية الدينية ، وحرية التعبير عن النفس ، يقول المستشرقان بأن هذه الوثيقة ليست كلها أصلية ، بل إنها تعرضت للإضافة فيما بعد ولكن رودينسون على أي حال يعتبر الوثيقة صحيحة تاريخيًّا لأنها تحتوي - كما يزعم - على بنود معارضة لوجهات النظر الخاصة بأصل الدولة الإسلامية والتي ألحقت بها فيما بعد . ومع هذا فإنه يقرر بشجاعة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استطاع بحكمته أن ينشر الإسلام ويعقد الأخوة بين سكان المدينة ، وأنه لم يضطهد اليهود . وأن القرآن الذي نزل بالمدينة قد تكلم باحترام عن اليهودية وعن أنبياء بني إسرائيل ، كما أنه أباح للمسلمين أكل طعامهم ، ومشاركتهم في الأمور المدنية (ص١٥٢-١٥٩) .

ولكن رودينسون سرعان ما يرتد على عقبه إلى المنطقة الوحلة ليخوض فيها ويوغل في الخوض إذ يقول أن اليهود لم يرضوا عن محمد لأنهم كانوا يعتبرونه نبيًّا كذابًا انتحل كتبهم وحرف قصص أنبيائهم التي وردت في الكتاب المقدس ، وأن اليهود لم يستطيعوا السكوت عن إعلان هذه الحقيقة مقابل الحياة السياسية الهادئة بل إنهم ناوءوا محمدًا ، إذ هاجموا القرآن وأعلنوا أنه معارض لكتب الأنبياء ، وأنه مليء بالتناقضات ، ومثل هذا الموقف جعل محمدًا يفكر بلا شك في تغيير سياسته تجاه اليهود واتخاذ موقف آخر مخالف تمامًا منهم (ص١٦١) .

هذا كلام فوق أنه مناقض لما سبق أن قاله رودينسون بشأن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم فإن فيه اعترافًا بأن اليهود هم الذين بدءوا بالهجوم على الإسلام وبمناوئة المسلمين ، وهم الذين خرجوا على معاهدة المدينة .

ويستعرض رودينسون ما جاء في سيرة ابن هشام عن غزوة بدر مركزًا على ما قاله سلمة بن سلامة للمسلمين الذين خرجوا لاستقبال العائدين من بدر وتهنئتهم بالنصر كما سنذكره ، متخذًا منه موقفًا مأساويًا يصور فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين كمصاصي دماء ، قتلة وسفاحين .

إنه يترجم كلام سلمة من العربية إلى لغته الفرنسية بطريقة توحي بأن المسلمين دمويون يقول بحسب الترجمة الإنجليزية : «لماذا تهنئوننا ، إننا لم نقابل إلا عجائز صلعًا (يقصد المشركين) لقد قطعنا حلوقهم كما تنحر إبل الأضاحي ، وهي معلقة من أرحلها ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :«نعم يا ابن أخي هؤلاء كانوا هم الزعماء» .

والترجمة كما نوهت ، توحي بأن المسلمين قد علقوا الكفار من أرحلهم أحياء ثم ذبحوهم بطريقة وحشية . أما الحديث كما جاء في سيرة ابن هشام فمختلف كثيرًا عما جاء في الترجمة الإنجليزية والنص هو : « ... ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة ، كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، ويزيد ابن رومان ـ : ما الذي تهنئوننا به ؟

فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعًا كالبدن المعلقة ، فنحرناها ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أي ابن أخي ، أولئك الملأ !!

قال ابن هشام : الملأ : الأشراف والرؤساء[1] . ومعنى هذا الكلام الذي غاب فهمه على المستشرق رودينسون وأمثاله هو أن المعركة قد انتهت بسرعة و لم يكن الوقت الذي استغرقته إلا كالوقت الذي يستغرقه ذبح بدن الأضاحي المعدة بالفعل للذبح ، وأن الله تبارك وتعالى هو الذي أعان المسلمين على قتل أئمة الكفر ، وقادة الحرب الظالمة ضدهم ، إن قتل هؤلاء الكفرة إنما جاء بأمر الله وتوفيقه في وقت لو تمكنوا هم فيه من المسلمين لأبادوهم ولقضوا من ثم على الإسلام من على وجه البسيطة . لقد كان هؤلاء الكفار هم المحرضون على الحرب ، الساعون إليها بخيلهم ورجالهم ونسائهم فأذاقهم الله وبال أمرهم ، فلقوا مصرعهم بأيدي الذين حقروهم ، وطاردوهم ، ولاحقوهم واستولوا على أمتعتهم وأموالهم ظلماً وعدواناً .

(١) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٢٨٠ .

يضيف رودينسون إلى ذلك ما جاء بشأن قتل عقبة بن أبي معيط حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله فقال : فمن للصبية يا محمد ؟ قال : النار.(٢٠٨) يقول في التعليق على هذه الحادثة أن محمدًا لم ينس ما فعله به أعداؤه فلم يرحمهم عندما تمكن منهم . يقصد الكاتب بالطبع من هذا الكلام ، أن يظهر النبي صلى الله عليه وسلم في صورة المنتقم الحاقد ، الذي لا يستطيع أن يعفو عمن ظلمه أو يسامح من آذاه . إن تسامح النبي صلى الله عليه وسلم وحلمه لمضرب الأمثال حقًا ، ولكن مسامحة أهل الشر الذين طبعوا على الأذى ، ولا ترجى من شرورهم السلامة كعقبة بن أبي معيط ، عدو الله ورسوله ، وصاحب التاريخ الطويل في الكفر والخساسة ، لا يكون تسامحًا بل تساهلاً وتفريطًا في الحق ، وتهاونًا في صد الباطل وأهله ، وتهاونًا كذلك في حماية الضعفاء من الأقوياء وذوي الحيلة . أما التسامح مع من يرجى إصلاحهم فخلق كريم مثله رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن تمثيل عندما فتحت له مكة أبوابها ، وخضع له أهلها ، وقال لهم وقد توقعوا منه أن ينتقم منهم لنفسه ولأعزة أهله وللمسلمين لكنه قال لهم ما حفظه التاريخ عنه ووعاه ثم أداه إلينا «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل عدد محدود من رءوس الكفر والشر والعناد ، فإنه قد تسامح بالفعل مع أمة عظيمة من الناس في مكة، وكان تقديره صلى الله عليه وسلم في الموقفين نعم التقدير، وتدبيره في كلتا الحالتين هو أعظم التدبير ، كما كان حكمه فيهما هو عين الحق والصواب .

يزعم رودينسون بالإضافة إلى هذا أن محمدًا ، والذي يسميه هنا «بالنبي المسلح» ، قد أصبح بعد انتصاره في بدر ميالاً إلى الانتقام من أعدائه وإلى تصفية المعارضين له بدنيًا ، لقد أعطته هذه الحرب قوة وثقة في النفس ، وعلى الجانب الآخر فقد أصبح أيضا حساسًا جدًا لأي هجوم عليه ، لذلك فإنه لم يتحمل هجوم مثقفي اليهود في المدينة وسخريتهم الدائمة منه، ولهذا السبب فإنه أظهر العداء لهم وبدأ يخطط للتخلص منهم فكان يخالفهم في كل شيء تقريبًا ، فعلى سبيل المثال فإنه بعد أن أمر أصحابه بصيام يوم عاشوراء وهو العاشر من شهر محرم ، وهو يوم كيبور عند اليهود ويوافق العاشر من شهر تشرين ـ أكتوبر ـ عاد فغير رأيه وذلك عندما غضب على اليهود ، إذ جعل صيامه مباحًا وليس واجبًا ، بل إنه قد أوصى المسلمين بأن يخالفوهم فيه ، بمعنى ألا يصوموا في نفس اليوم فقط ، بل يتقدموه بيوم أو يتأخروه بيوم(١) .

---

(١) الشوكاني، نيل الأوطار، ج٤، ص٢٤٠ - ٢٤٥ .

وفي قرينة الرد على رودينسون ينبغي أن ننبه على أن صوم عاشوراء على وجه الخصوص كان الأمر به في أول السنة الثانية للهجرة ، وفي نفس السنة فرض شهر رمضان ، فعلى هذا لم يقع الأمر بصوم عاشوراء إلا في سنة واحدة ، ثم ترك أمر صيامه إلى المتطوع ولذلك صار صيامه تطوعًا وليس واجبًا ، ويقال أنه لم يكن واجبًا قط ، ومن الأحاديث الواردة في فضل يوم عاشوراء سئل رسول الله صلى الله أي الصيام بعد رمضان أفضل قال :«شهر الله المحرم». (رواه الجماعة إلا البخاري عن أبي هريرة) ، وعن أبي قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «صوم يوم عرفة يكفر سنتين ماضية ومستقبلة ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية» . (رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي) .

وعن عائشة قالت : «كان يوم عاشوراء يومًا تصومه قريش في الجاهلية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه ، فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صامه ومن شاء تركه». (متفق عليه) .

وعن أبي موسى قال : كان يوم عاشوراء تعظمه اليهود وتتخذه عيدًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «صوموه أنتم». (متفق عليه) .

ومما استدل به على عدم وجوب صيام هذا اليوم ما روي عن معاوية بن أبي سفيان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن هذا يوم عاشوراء ، و لم يكتب عليكم صيامه وأنا صائم فمن شاء صام ومن شاء فليفطر». (متفق عليه).

وقال عليه الصلاة والسلام : «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا اليهود ، صوموا قبله يومًا وبعده يومًا».

ثم يعرض الكاتب بعد ذلك لواقعة بني قينقاع التي أشعل اليهود نارها وتولوا كبرها عندما كشف أحدهم عورة مسلمة كانت تشتري من محل صائغ يهودي فثار أحد المسلمين وحاول أن ينتقم للمرأة فقتله اليهود لأنه كان في حيهم ، فاتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الأسباب لمعاقبة يهود هذا الحي، يقول رودينسون :«أن محمدًا قد اتخذ هذه الحادثة ، التي كان يمكن أن تحل بغير الحرب ، ذريعة إلى تصفية اليهود ، إذ أنه أصر على حرب بني قينقاع وحصارهم وتجويعهم داخل الحصن الذي لجأوا إليه» . (ص١٧٢-١٧٣)، وعلى هذا المنوال المنحاز يعرض رودينسون الحوادث التي وقعت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين يهود المدينة .

لقد تناقض الكاتب مع نفسه عندما ذكر في أول الباب أن محمدًا لم يضطهد اليهود، ولكنه يزعم هنا أنه قد رسم خطة لتصفيتهم. هذا هو أكبر وأهم الدوافع من وراء تأليف رودينسون لهذا الكتاب الذي بين أيدينا لأنه أراد به أن يبين للأوربيين أن محمدًا قد اضطهد اليهود ، وأنه نفاهم من الأرض وجردهم من ممتلكاتهم وحكم فيهم بالقتل والترويع وذلك حتى يضيف إلى سجل المبالغات اليهودية حوادث وأرقامًا أخرى ملفقة . إن الدعاية اليهودية تحاول أن تصور العالم كله على أنه معاد لليهود ، وعلى أن اليهود مضطهدون دائمًا عبر العصور وعلى امتداد العالم . لقد تغافل الكاتب أن اليهود هم الذين نقضوا العهد ، وأخلوا بشروط المعاهدة المبرمة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي اعترفت لهم بحق المواطنة الكاملة وبحرية العقيدة وما يتصل بها ، وكانوا هم الذين تعاونوا مع أعداء الإسلام في الخارج وحاولوا ضربه في الداخل وهم الذين قادوا حركة المنافقين ضد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة .
وبالرغم من هذا كله فإن النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك المسلمين لم يسبوا أنبياءهم أو يتهجموا على كتبهم أو معتقداتهم بل ظلوا يحترمون ذمتهم ويوفون بعهودهم معهم ويقفون بجانبهم عند المحنة ، كما حدث عندما اضطهدهم الكاثوليك في أسبانيا ، وأغلقت أوربا أبوابها دونهم، فقد استقبلهم العالم الإسلامي كله ، ووطنهم وتعامل معهم تحت مبدأ ، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». وبفضل سماحة الإسلام ظهرت منهم قيادات عظيمة وعلماء وفقهاء وفلاسفة كبار.

اتهام رودينسون للعرب بالشهوانية :

تكلمنا فيما سبق عن تفسير رودينسون المغرض لحادثة الإفك ، كما ألمحنا فيما سبق كذلك إلى مغامزه المتفحشة حول سلوك الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، وحرصه دائمًا على أن يصور العرب بشكل عام بأنهم أمة لا يشغلها أي شيء أكثر من الانغماس في الشهوات ، وأنهم لا يتميزون من بين الأمم إلا بالتسيب الجنسي ، وتأكيدًا منه لهذه الفرية فإنه عندما يعرض لقضية الإفك - يعني تلك التهمة الباطلة التي زورها ودورها فريق من الآثمين ضد السيدة عائشة بنت الصديق وزوج الصادق الأمين- يعرضها في إطار أو سلسلة من الأكاذيب التي تصف العرب بالميل إلى الزنا والسفاح والانغماس في الشهوات والملذات ، وفي هذا الموضع من الكتاب يقتبس رودينسون ما قاله كارلو ليفي عن فلاحي لوكانيا : «إن حب الجنس أو الميل إليه

والانجذاب الشديد نحوه يعتبره قرويو لوكانيا قويًا كقوة الطبيعة ، تلك القوة التي لا يستطيع أحد مقاومتها مهما كانت مقدرته ، عندما يرى رجل وامرأة نفسيهما في مكان واحد معًا ، ودون رقيب ، فإنهما لا يمكن أن يبقيا هكذا دون أن يرتمي أحدهما في حضن الآخر في التو والحال؛ لأنه لا يوجد أي قدر من الثبات أو الخمود ، أو العفاف أو أي مانع أو أي عقبة يمكن أن تمنعهم من ارتكاب عملية الزنا . وإذا حدث لأي سبب أنهم لم يتمكنوا من الالتقاء جنسيًا ، فإنهم يشعرون وكأنهم ارتكبوه بالفعل . لأن مجرد وجودهما معًا في مكان واحد دليل في حد ذاته على أنهما قد مارسا الجنس معًا (ص٢٠٠).

إننا لا نحب أن نطيل الكلام في هذا الموضوع أو نتتبع غمزات ولمزات هذا الكاتب الذي يستسهل الخوض في أعراض النماذج الإنسانية الرفيعة ، وقادة الطهر والفضيلة في العالم . وما أسهل عليه وعلى أمثاله أن يجعل الجنس هو سبب الخلق والبقاء وهو نداء الطبيعة ، وهو المحفز على الابتكار والإبداع إلى آخر تلك المفتريات التي تكتظ بها جعبته . ويكفي أن يعرف بشكل عام من خلال ما ذكرناه كمثال كيف تناول الكاتب حادثة الإفك وفي أي قرينة وضعها ، ولأي غرض يوظفها .

ويمعن رودينسون أكثر في زعمه إذ يقول بأنه انطلاقًا من هذه الحادثة ـ يعني اتهام السيدة الطاهرة عائشة ـ قد جاء محمد بتعاليم تطالب بأربعة شهود لإثبات دعوى الزنا، وهو شيء يستحيل حدوثه . وهو يغمز بهذا إلى أن القرآن إنما هو من تأليف محمد وأن محمدًا كان يكتبه ليبرر به أفعاله ، أو ليعبر به عن أشياء في نفسه يعطيها قوة وحجية بإسنادها إلى الله، بعبارات أخرى فإن الآيات التي نزلت بشأن حادثة الإفك لفقها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبرئة زوجه السيدة عائشة . وما ذكرناه بشأن هذه الحادثة يكذب دعاوى هذا المتجرئ.

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم :

يختتم رودينسون الباب السادس من كتابه ، بالكلام عن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وما حدث بين الصحابة على أثرها في سقيفة بني ساعدة من خلاف في الرأي وكالمعتاد فإنه يقرأ السيرة بمنظوره الخاص والمعتم ويحاول دائمًا أن يصبغها بآرائه ورؤاه الشخصية وينزلها على منطقه هو لينتهي من خلال عرضها إلى النتيجة التي رتبها مسبقًا، بل وكانت هي الدافع من وراء تأليفه لهذا الكتاب وكتبه الأخرى التي تناول فيها الإسلام . وهذه النتيجة تتلخص في أن محمدًا يعتبر نبيًا محليًا وأنه مؤسس فرقة لا

دين ، وأن مادة القرآن ، منتحلة من كتب اليهود والنصارى ، بل وأن القرآن متأثر بأناشيد وتراتيل الكنيسة السريانية في أسلوبه وربما في طريقة أدائه (ص٢٩٠ - ٣٠٠).

ودون الدخول في التفاصيل والأضاليل الأخرى التي يشتمل عليها هذا الباب من الكتاب فإن رودينسون لم يبد موضوعيًا في عرضه وتحليله معًا ، إنه يجهل اللغة العربية و لم يعتمد إلا على مصادر ثانوية .

محمد في نظر الغربيين المحدثين :

وفي الباب السابع والأخير من كتابه وهو بعنوان «الانتصار على الموت».. يتحدث رودينسون عن انتصار دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وعن انتشار الإسلام في الآفاق بسرعة وعن إقبال الناس عليه ، وعلى حب المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم وتقديس آثاره . وعلى انتشار القرآن في الأصقاع وإقبال الناس على حفظه ودراسته ، وعلى تبني هذه الشعوب الغفيرة للغة العربية وهجر لغاتهم الأم ، ومن جهة أخرى فإنه يشير إلى مواقف النصارى منه صلى الله عليه وسلم فيقول : «بينما يقدس المسلمون محمدًا (صلى الله عليه وسلم) فإن النصارى يعتبرونه أكبر الأعداء ، وزعيم الأدعياء ويرون فيه كذلك نموذجًا متجسدًا للشر والفسوق . وبينما يعتبر المسلمون محمدًا أكمل رجل في التاريخ، يعتبره بعض الناس من غير المتدينين بدين ، أو من المتدينين بغير الإسلام رجلاً معتادًا ، عاش عيشتهم وعمل بمثل عملهم ، وقد أعطى علماء الغرب لمحمد عدة صور مختلفة ، فالكونت دي بولينفليرز كان يعتبره مفكرًا حرًّا مبدعًا لديانة العقل ، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر . وقد اتخذ فولتير محمدًا كسلاح ضد المسيحية عن طريق إعطائه شخصية دجال ساحر، ولكنه بالرغم من ذلك قد استطاع أن يقود أمته إلى طريق المجد ، وذلك بمساعدة قصص خيالية نسجها لهم من وحي خياله. ولقد اعتبره كتاب القرن الثامن عشر بشكل عام داعية لديانة الطبيعة والعقلانية ، والتي هي أبعد بكثير وأسمى من ديانة الصليب المجنونة. وقد مَدَحَتْ محمداً صلى الله عليه وسلم وَنَّوهَتْ بعلو قدره الأكاديميات الغربية فالشاعر الألماني جوته على سبيل المثال قد كتب فيه شعرًا رائعًا وممتازًا ، واعتبره مثالاً أو نموذجًا للعبقرية الفذة ، وقارنه في شعره بنهر عظيم ومتدفق دائمًا بقوة ، ذلك النهر الذي نادت عليه جميع أخواته من الأنهار والجداول ليساعدها حتى تبلغ البحر الذي ينتظر قدومها عليه. وفي هذا الشعر يقول جوته أيضًا إن محمدًا هو المظفر الملكي المهيب الذي لا يقاوم

ولقد كان هو الذي حمل تلك الأنهار والجداول إلى مجرى البحر العظيم .

Und so tragter seine Bruder,
Seine Schatze, seine kinder
Dem erwartenden Erzeuger
Freudebrausend an das Herz.

(And thus he carries his brothers, his treasures, his children, all tumultuous with joy, to their waiting Parent's bosom. [Trans., Dr David luke])

وتعني هـذه السطور الشـعرية في اللغـة العربيـة : «وهكذا حمل (أي محمد صلى الله عليه وسلم) إخوانـه ، وكنوزه ، وأطفالـه ، وكل مضطرب بفرح ، إلى حجور الآباء التي كـانت تنتظرهـم». ولقـد وضع الفيلسـوف الإنجليزي (كـارليل) هـذه النفس العظيمـة في مصـاف أبطـال الإنسـانية الذين أضـاءت بهم الدنيـا وأومضت في داخلهم الشعلة الإلهية المقدسة .

وبعـد كارليل عكف الكتـاب الغربيون المعنيون على كتابة سيرته (صلى الله عليه وسـلم) من مصادرها العربيـة فعلى سبيل المثال فقـد اعتبره المستشرق هوبرت جريم ، في نهاية القرن التاسع عشر اشتراكيًّا حاول أن يفرض الإصلاح الاجتماعي والمالي على قومه بالقوة ، وذلك بمساعدة قدر يسير جدًا من الحكايات الأسطورية ، والتي اخترعها محمد ليرهب بها الأغنياء ، حتى يعطوه تأييدهم .

وبينمـا يحـاول بعـض المستشـرقين أن يخففوا مـن حدة لهجتهم ويعدلـوا من وجهـة نظرهم لتصبح إلى حد ما أكثر موضوعية ، نجد الأب اليسوعي البلجيكي هنري لامنز، والذي كان له إلمام واسع بالمصادر الإسلامية ، مع كراهية قاتلة للإسلام ، لا يزال يعبر عن شكه المرير في إخلاص محمد .

أمـا المستشـرقون والعلماء الـروس فـإنهم لم ينتهوا بعد إلى رأي قـاطع يقررون فيـه طبيعـة دعوة محمد ، هل كـان محمد رجعيًـا أم تقدميًـا ؟ (وبالطبع فقد سـقط الاتحاد السـوفيتي وسـقطت الشيوعية) هل كـان قوميًّا أم اشـتراكيًّا ؟ ، وحتى الشيوعيون في البلدان الإسلامية كانوا يدعون محمدًا لأنفسهم، ويحاولون جذب دعوته نحو أهدافهم ، وهكذا فقـد صور كل واحد من هؤلاء محمـدًا كما يراه وكمـا يرغـب فيه أن يكون ، كل واحـد قد أخذ من دعوتـه ما ينـاسـب فكره وتوجهاتـه ، وفي الوقت نفسـه فإنه لا يلتفت إلى ما لا يعنيه منه (ص ٣١١ ، ٣١٢) .

الخاتمة

وإلى هذا الحد نعتبر أننا قد وصلنا إلى الخاتمة في عرض ونقد كتاب مكسيم رودينسون وإذا كان لنا أخيرًا أن نصف هذا الكتاب بكلمة مختصرة قلنا إنه كتاب غير موضوعي وأنه ينم بوضوح عن حقد صاحبه على الإسلام والمسلمين وعلى جهله باللغة العربية ، ومصادر السيرة الصحيحة . وأن رودينسون قد استعان في هذا الكتاب بمعطيات علم النفس الغربي الإلحادي على ترويج أفكاره الزائفة حول الرسول صلى الله عليه وسلم وحول رسالته العالمية الخاتمة .

لقد بينا بالأدلة الساطعة والقاطعة أن محمدًا صلى ا لله عليه وسلم هو المثل الأعلى للبشرية ، وأنه كان ولا يزال أعظم شخصية عرفها التاريخ الإنساني كله . لم تشغله صلى الله عليه وسلم عن الدعوة والمبادئ المثلى شهوات أو مغريات ، ولم يكن للمرأة إلى قلبه صلى الله عليه وسلم من سبيل غير السبيل الذي شرعه الله تبارك وتعالى . لقد اكتملت كل صفات العظمة والكمال في شخص رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم . لم يكذب النبي قط ولم يدع ما ليس له أبدًا . وقد بينا خطأ رودينسون في خلطه بين مفاهيم النبوة والكهانة والشعر ، وبرهنا على أن النبوة تختلف عن الكهانة وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يكن كاهنًا ولا شاعرًا وإنما كان نبيًّا رسولاً ، بنى دين الله على الحق والصدق ، وأنشأ الأمة الإسلامية على دعائم التوحيد والأخلاق الفاضلة ، والتشريعات العادلة ، وعلى المحبة والإيثار والتسامح والأخوة التامة بين المسلمين بعضهم وبعض ، وبين المسلمين وغير المسلمين . وقد أوضحنا بالأدلة أن القرآن هو كلام الله تعالى تلقاه محمد وبلغه كما نزل ، لم يبتدع فيه حرفًا ولا عبارة ، لم يحذف منه شيئًا ولم يضف إليه شيئًا كذلك ، ولم يغير في نظامه أو سياقه وترتيبه ، سواء بالنسبة للآيات أو السور ، وأن كتابة القرآن ، على ما تسنى من أدوات قد تم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، و أنها كانت مواكبة لنزوله فقد ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ كتابًا للوحي ، كان يملي عليهم ما نزل عليه من كتاب الله تعالى ، دون توان أو إمهال وأنه كان يطلب من كتاب الوحي أن يقرأوا عليه ما كتبوه زيادة منه صلى الله عليه وسلم في الاستيثاق.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحتفظ عنده بما كتبه الكتاب حتى اكتمل نزول القرآن وتم الكتاب ، ومن هذه المواد المفرقة جمع القرآن الكريم ووضع في نسخة من مادة واحدة ، وهي الورق وذلك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم في مصحف إمام في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد روعيت في كتابة هذا المصحف قراءة العرضة الأخيرة. وقد تم الجمع في كلتا الحالتين بمعرفة الصحابة واتفاقهم ، ومهما كان وضع الروايات الضعيفة التي تهاون بعض العلماء في إثباتها في كتبهم عند الكلام عن جمع القرآن ، فإن الحكم الأكبر الذي لا ينبغي أن يغفل أو يتغافل عنه في موضوع جمع القرآن هو حفظ الأمة له وتعبدهم به واحتكامهم إليه في جميع شئونهم ، وتأسيس الدولة على قاعدته . والروايات كثيرة في أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الصلاة بالسور الطوال والسور القصار ، وأنه كان يأمر بوضع الآية في السورة بحسب توقيف جبريل له عليهما السلام ، وكذلك الشأن بالنسبة لترتيب السور ومما ينبغي الإشارة إليه أن الصحابة كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ويتعبدون به ويقرءونه آناء الليل وأطراف النهار .

وبناءً على هذا كله يتبين بجلاء بطلان دعوى رودينسون وأشياعه من المستشرقين بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم انتحل مادة القرآن أو أسلوبه أو ألفاظه ، من كتب اليهود والنصارى أو كتب غيرهم ، وقد بينا بالبرهان القاطع أن هذه الدعوى لا يؤيدها واقع البيئة العربية التي عاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا تاريخ كتب اليهود والنصارى التي لم تترجم إلى اللغة العربية إلا بعد قرون من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يقل عن هذا أهمية أن نستحضر في الذهن أن دعوى الانتحال المزعوم تتنافى مع طبيعة شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وتكوينه ورسالته .

لقد راعى محمد صلوات الله وسلامه عليه في دعوته حق الله وحق العباد ، وأبان ورتب لكل ذي حق حقه ، ولم يبن مجتمعه على الحقد أو العنصرية بل على العكس تمامًا فإنه قد أعطى للمخالفين له الحق في أن يخالفوه ، وفي نفس الوقت يعايشونه ويعاملهم ويعاملونه دون حساسية أو حرج أو توجس بسبب اختلاف الدين أو الجنس أو العرق أو اللون أو اللغة ، ولذلك فإن التشريعات الخاصة بأهل الذمة تعد سبقًا ومكرمة للإسلام ومنة منه وفضلاً على الإنسانية كلها وليست كما يدعي متعصبو الغرب عيبًا أو نقصًا في تعاليمه أو تعصبًا من جهة أهله .

وأخيرًا وبناءً على الدراسة المستفيضة فإنه من الصعب تصنيف كتاب محمد

لرودينسون تصنيفًا علميًا ومنهجيًا واضحًا ، فإنه ليس كتاب تاريخ لأنه لا يعتمد على حقائق تاريخية من مصادرها الأصيلة في التاريخ الإسلامي ، وليس هو كتاب في السيرة النبوية لأنه لم يلتزم بمصادرها ومعطياتها . وليس هو كتاب علم نفس لأنه لم يلتزم بمنهج علم النفس ولا راعى حدوده ، ثم إنه طبقه بطريقة صناعية على نموذج لا يتكرر وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي لا يمكن أن يصنف ضمن عينات أو مجموعات وقوائم علم الدراسات النفسية .

والكتاب لا يمكن أن يصنف كذلك على أنه قصة أو رواية لأن كاتبه لم يلتزم أساسًا بأصول الرواية أو القصة ومعايرهما الفنية ولا نراه قصد إلى ذلك .

وخلاصة ما انتهينا إليه في هذا الكتاب ، أن كتاب رودينسون خليط سيئ من الآراء والأفكار ، والتفسيرات المادية الباطلة لنصوص الكتاب والسنة ، والتشويه المتعمد والمغرض لحقائق التاريخ .

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين .

الدكتور محمد محمد أبو ليلة

أرض الجولف . مصر الجديدة . القاهرة

ملخص باللغة الإنجليزية
عن كتاب رودينسون والمشكلة التي أثارها
في الأوساط العلمية في مصر

The American University in Cairo has dropped from its curricula a book entitled Mohammed, written by Maxime Rodinson, because of charges that it makes false allegations against the prophet of Islam. Copies of an English-language summary that were distributed to students have also been withdrawn following a decision taken by Higher Education Minister Moufid Shehab. Shehab ordered the book thrown out after columnist Salah Montasser published an article in Al-Ahram on 13 May demanding that the book be banned. "We cannot remain with folded arms when a university in Egypt, even if it is a foreign university, teaches Muslim students a book that insults their creed and Holy Book. This is neither acceptable nor justifiable." Montasser wrote that "freedom of education does not mean that thousands of books are ignored in favour of a book that insults Islam." Montasser reproduced excerpts from the book to show that it does injustice to the religion. The mufti of the republic also published an article in the Arabic-language press, providing documentation refuting Rodinson's allegations. Moreover, Sheikh Mohamed Sayed Tantawi, grand imam of Al-Azhar, suggested that a law be enacted to empower Al-Azhar, the world's leading Islamic institution, to examine all books dealing with Islam before they are circulated in Egypt. "It is imperative to promulgate this law in order to uphold Islam and its tenets," said Tantawi. Shehab told Al-Ahram Weekly that as soon as he read Montasser's column, he decided that the book should not be taught or circulated at AUC and ordered that copies be withdrawn from students. "Not only did AUC respond positively," Shehab said, "but its president, Frank Vandiver, paid me a visit to convey the university's apologies for an unintentional, individual error as well as

assurances that AUC would never harbour the intention of directing insults at Islam."

A statement issued by AUC said: "With reference to Mr Salah Montasser's daily column on Wednesday, 13 May in Al-Ahram newspaper, the American Univers-

ity in Cairo has responded to official requests and acted to remove the book Mohammed by the French author Maxime Rodinson. The volume has been available in Egypt since its publication in the early 1970's." Shehab said that his decision was based on the fact that "it is the constitutional duty of the Ministry of Higher Education to supervise university education," be

it public or private. Shehab explained that all universities have the right to choose the curricula that are taught to students and the professors who teach them. And, he added, "it is up to the professor and his conscience to choose the books that he will use in teaching his course. It is very difficult to interfere with the thinking of professors".

On the other hand, Shehab said that if students are displeased with what they are being taught, then they have the right to complain to the university's management. "But this rarely happens," he added. Shehab said the AUC professor "obviously had no bad intentions. He certainly was not trying to force the students to embrace the ideas that are contained in the book." Shehab conceded that the book has been in circulation in Egypt for the past 15 years and taught at AUC for about seven years. "As far as the ministry is concerned, the whole matter is closed," he said. AUC sources said the university's library had four copies of the book, which have been withdrawn from circulation. It was on the reading list of a political-science course in the early 1970's and a history course in the early 1990's, the same course the book was being studied on in this semester. A source close to the professor said he invited his students to submit critical reviews of the book's content. "Students were required to criticise the book from whatever perspective they wished. The professor certainly did not praise the book and did not express a personal opinion. He even suggested other titles written by Muslim scholars so that the students might be exposed to ideas other than those the book advocates," the source said. According to the same AUC source, the professor has great respect for Islam and would defend it, whenever necessary. The source added that the professor had been involved, in his home country, in many battles defending Islam and Muslims against racism and media vilification of Islam. The professor has the support of many of his students. One of them, a Saudi Arabian, told the Weekly that the professor, while assigning the book to students, said that "it is not an Islamic book and may prove to be provocative and offending, so it will be easy for you to criticise. He provided us with the titles of Islamic references, so that we could build up a

good argument against the book." The professor told the students that "he did not care if they tore

Rodinson apart as long as they put forward a good argument," the Saudi student said. Another source, however, said that the problem began when a student complained about the book to a friend, who is an alumnus. The friend, along with 46 other alumni, wrote a petition to the dean of the school of humanities and social sciences, requesting that "corrective action" be taken. A copy of the petition was sent to Montasser.

Al-Ahram Weekly Issue No. 378 (1998)

Date: 21-27May 1999

المصادر العربية

القرآن الكريم .

كتب الأحاديث .

كتب العهدين القديم والجديد .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ . بيروت - دار صادر - ١٩٦٦ .

ابن الأثير ، النهاية . بيروت ، المعارف .

الإيجي ، عبد الرحمن بن أحمد . المواقف في علم الكلام , القاهرة . مكتبة المتنبي .

أبو حيان التوحيدي . المقابسات . تحقيق حسن السندوبي . الكويت . دار سعاد الصباح . ١٩٩٢.

ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد ، كتاب النبوات . المملكة العربية السعودية - مكتبة الرياض الحديثة،١٣٤٦هـ .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر . البيان والتبيين . بيروت . دار الكتب العلمية.

الجرجاني ، علي بن محمد السيد الشريف ، كتاب التعريفات. تحقيق عبد المنعم الحفني. القاهرة . دار الرشاد . ١٩٩١ .

ابن جني ، أبو الفتح عثمان. الخصائص . القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

ابن الجوزى ، أبوالفرج عبد الرحمن ،صفة الصفوة ، تحقيق طارق محمد عبد المنعم الاسكندرية ،دار ابن خلدون.

الخياط ، أبو الحسين عبد الرحيم ، كتاب الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ، مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج . القاهرة - مكتبة الدار العربية للكتاب -١٩٩٣.

دراز ، محمد عبد الله . مختصر مدخل إلي القران الكريم :ترجمة محمد عبد العظيم علي . القاهرة دار الدعوة، ١٤١٧هـ١٩٩٦م .

الذهبي ، شمس الدين .تاريخ الإسلام . مكتبة القدسي ١٣٦٧ .

الزرقـاني ، محمد عبد العظيـم ، مناهل العرفـان في علـوم القرآن . القـاهرة . دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٨٠ .

السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، الإتقان في علم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيـم . القـاهرة . مكتبـة ومطبعـة المشـهد الحسـيني . ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.

الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، بهامش الفصل لابن حزم القاهرة . مطبعة صبيح . ١٩٦٤ م .

الشـوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، نيل الأوطار شـرح منتقى الأخبار . القاهرة - المكتبة التوفيقية .١٩٦٤ .

ابن عبد البر ، أبو عمر يوسـف. جامع بيان العلم وفضلـه وما ينبغي في روايته وحمله ، قدم له الأستاذ عبد الكريم الخطيب .القاهرة. المكتبة الإسلامية ١٤٠٢- ١٩٨٢.

ابن عطيـة ، عبد الحـق. المحرر الوجيز في تفسـير الكتـاب العزيز . قطر . دار إحيـاء التراث . ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

الغزالي ، الإمام أبـو حامد ، إحيـاء علوم الديـن . بيروت . دار الكتـب العلمية . ١٤١٢ هـ- ١٩١٢م .

---------- ، تهـافت الفلاسـفة . تحقيق سـليمان دنيـا . القـاهرة . دار المعارف . ١٣٩٢ - ١٩٧٢ .

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي . مروج الذهب . بيروت . المكتبة العصرية . ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م .

ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمـد بن مكرم ، لسان العرب ، بيروت . دار صادر . ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م .

نورشـيف عبد الرحيم رفعت . دراسـات في مقارنة الأديـان . القـاهرة . المطبعة الإسلامية الحديثة ١٤١٧ هـ ١٩٩٧.

ابن هشام . سيرة رسول الله . بيروت . دار الجيل .

هونكه ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب. نقله عن الألمانية فاروق بيضون

وكمال دسوق راجعه ووي. بيروت. دار الجيل ودار الآفاق الجديدة . ١٤١٣ - ١٩٩٣

* أبوليلة ، محمد محمد . مشكلة الجمود وقضية الاجتهاد ، القاهرة . ندوة رابطة الجامعات الإسلامية - ١٩٩٩.

-------- ، " نصوص إسلامية في الفلسفة والأخلاق . ترجمة ودراسة " باللغة الإنجليزية . القاهرة . الفلاح . تحت الطبع .

مادلين نصر . صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية . مركز دراسات الوحدة الفرنسية . ١٩٩٥ .

المصادر الأجنبية

Abu Laylah , M. The status of Women From the Islamic Perspective with a Critical study of the Draft Platform for Action for the fourth World Conference on Women. Beijing, China, 1995 Cairo, al Matbaa al-Islamiyya al Haditha,1416-1996.

Daniel, Norman, Islam , Europe and Empire, Edinburgh 1966.

______Islam and the West , Oxford . Oneworld Publications 1997

Arnold T. W., The preaching of Islam , Pakistan, 1976.

Armstrong , Karen , A history of God . Ballantine Books, New York, 1991.

Attwater, Donald - A Dictionary of Saints, Great Britain. Penguin Books1965.

Cross F. L .(ed.) The Oxford Dictionary Of The Christian Church . London. Oxford university press1961.

Djait , Hichem, Europe and Islam .. University of California Press 1985.

Gibbon , Edward, Decline and Fall of the Roman Empire, ed. by J.B Bury , London, 1909-1914.

Guillaume, Alfred, Islam. Great Britain, Pelican books 1976

-----------, The Life of Muhammad, Atranslation of In Ishaqs Sirat Rasul Allah, Oxford , Oxford university press , 1978.

Hughes Thomas Patrick, New Delhi, Cosmo publication,1978

Humphreys, R.Stephen, Islamic History, London, I.B. Tauris and Co. Ltd. 1991.

Hunke, Sigrid, Allah's Sonne Uber Dem Abendland Unser Arabisches Erb.

Margoliouth, D. S. Mohammed and the Rise of Islam, New York ,Putnam , 1906.

Merrill C. Tenney ,(General Editor) The Zondervan Pictorial Encyclopedia of

the Bible . U. S. A. The Zondervan Corporation , 1975.

. Rodinson , Maxime, Mohammed. England, Penguin Books, 1971.

__________, Israel and the Arabs, England, Penguin Books, 1982.

__________, Islam and Capitalism, England, Penguin Books, 1966.

Ruthven , Malise, Islam In The World , England, Penguin Books 1991.

Southern, S. W. Western Views of Islam in the middle ages, Cambridge, Harvard University press, 1962 .

Stoddard, Lothrop, The New World of Islam ,New York, Charles Scribners Sons . 1925.

Watt. W. Montgomery. Muhammad prophet and statesman, Oxford University press 1978.

______Muhammad at Medina ., Oxford,Clarendon Press,1956.

______Muhammad at Mecca, Oxford , Clarendon Press , 1953.

______The Majesty that was Islam , London , Sidgwick and Jackson,1976.

فهرس

الموضـــــــوع	صفحـة
دعوى انتقال علوم اليهود والنصارى إلى محمد	١٠٤-١٠٨
المنطق المعكوس ودعوى تأثر محمد بمسيلمة الكذاب	١٠٨-١١١
(٣) ميــلاد فرقة	١١٢
دعوى التطور الروحي للنبي والطعن في طريقة الوحي	١١٢-١١٣
محمد ودعوى الخبرة الباطنية	١١٣-١١٧
مزاعم رودينسون حول القـرآن	١١٧ - ١٢٢
دعوى أن القرآن شعر وأن محمدًا كان شاعرًا	١٢٢- ١٢٥
طعن رودينسون في عقيدة الألوهية في الإسلام	١٢٥-١٢٦
مزاعم رودينسون حول الصحابة	١٢٦ -١٢٧
أقوال الصحابة وعلماء الأمة في رسول الله وفي القرآن	١٢٧-١٣٢
أبـو بـكر الصـديـق	١٣٣-١٣٤
عمر بن الخـطـاب	١٣٤-١٣٧
عثـمـان بـن عـفـان	١٣٧-١٣٨
زيـد بـن حـارثـة	١٣٨-١٤٠
المفاوضة بين رسـول الله والمشركين وأكذوبة الغرانيق	١٤٠-١٤٦
الطعن في قصص القرآن والعبادات الإسلامية وموضوعات أخرى	١٤٦-١٥٣
رودينسون ومعاهدة المدينة	١٥٣-١٥٧
اتهام رودينسون للعرب بالشهوانية	١٥٧-١٥٨
وفاة النبـي صـلـى الله عليـه وسـلم	١٥٨-١٥٩
محمد في نظر الغربيين المحدثين	١٥٩-١٦٠
الـخـاتـمــة	١٦١-١٦٣
ملخص باللغة الإنجليزية عن المشكلة التي أثارها كتاب رودينسون في الأوساط العلمية في مصر	١٦٤-١٦٦
المصادر العربية	١٦٧-١٦٩
المصادر الأجنبية	١٦٩-١٧٠
فهرست تفصيلي	١٧٢-١٧٣

المؤلف في سطور

الدكتور محمد أبو ليلة من مواليد قرية أبو الغيط - قليوبية - جمهورية مصر العربية.
حفظ القرآن في كتاب القرية .

التحق بالمعاهد الأزهرية الابتدائية والثانوية وتخرج في كلية أصول الدين جامعة الأزهر .

حصل على الماجستير في مقارنة الأديان من قسم الدعوة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر .

حصل على الدكتوراة في مقارنة الأديان من قسم الدراسات اللاهوتية بكلية الآداب جامعة إكستر بالمملكة المتحدة .

يعمل الآن رئيسا لقسم الدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر .

له عدة مؤلفات باللغتين العربية والإنجليزية

حاضر في كثير من الجامعات الأوربية والمراكز الإسلامية في العالم وشارك ببحوث في العديد من المؤتمرات المحلية والعالمية .

حاصل على درع مشاهير العالم في التربية .

عضو هيئة تحرير جورنال الدراسات القرآنية بجامعة لندن .

يتمتع بعضوية عدد من اللجان العلمية المتخصصة في مجال الترجمة وشبكة المعلومات وله حضور دائم في أجهزة الإعلام المصرية والعربية وفي حقل الدعوة في أنحاء العالم.